رضى الله عنه

كعب بن مالك

و

إنتاجه الأدبى

الدّكتور محمّد مظفر حسين الندوى

4076 57

اقرأ پبليكيشنز
مائسمه سرينگر كشمير

Call No...................

Acc. No...................   *Date*..............................

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last date stamped above. An over-due charge of *.06 P.* will be levied for each day, if the book is kept beyond that day.

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY
This book should be returned on or before the last stamped above.
An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is
kept beyond that day.

Call No. .... *Date* ....

Acc. No. ....

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last date stamped above. An over-due charge of *.06 P.* will be levied for each day, if the book is kept beyond that day.

كعب بن مالك الأنصاري

و

إنتاجه الأدبي

مؤلّفه

الدكتور محمد مظفر حسين الندوي

ملتزم الطبع و النشر

اِقرأ ببليكيشنز مائسمه سرينگر كشمير

الطّبعة الأوليى

١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

حقوق التّأليف محفوظة للطابع

حقوق الطبع محفوظة للطابع

اسم الكتاب	كعب بن مالك الانصارى رضى الله عنه و إنتاجه الأدبى
المؤلف	الدكتور محمد مظفّر حسين الندوى
تعداد الصفحات	٢٧٣
طبع عام	١٤٢١ه/٢٠٠٠م
شمن الكتاب	٣٥٠/ روپية هندية
الناشر	اقرأ ببليكيشنز مائسمه سرينغر (كشمير)

KASHMIR UNIVERSITY
Iqbal Library
Acc. No. 407557
Dated 24-12-2003

الفهرس

١ كلمة تقديم ٥

٢ المدخل

١٤ تحليل أدب كعب القصصي في ضوء حديثه عن العقبة ٩٦

١٥ معنى الشعر ١٠٣

١٦ كعب بن مالك الشاعر المطبوع ١١٢

١٧ تأثير القرآن الكريم في شعره ١٢٣

Call No. .... Date ....

Acc. No. ....

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last date stamped above. An over-due charge of *.06 P.* will be levied for each day, if the book is kept beyond that day.

Call No. ....

Date ....

Acc. No. ....

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last date stamped above. An over-due charge of *.06 P.* will be levied for each day, if the book is kept beyond that day.

الفهرس

١	كلمة تقديم	١
٢	المدخل	٥

الباب الاوّل

٣	المدينة المنوّرة	٧
٤	الكيان السياسيى	١٣
٥	الحياة الدينية	١٦
٦	الأحوال المعامة للمدينة المنوّرة.	١٩

الباب الثانى

٧	كعب بن مالك و أسرته	٢٩
٨	مولده و نشأته	٣٦
٩	إسلام كعب بن مالك رضى الله عنه	٤٧
١٠	غزوة تبوك و كعب من مالك	٦١

الباب الثالث

١١	وصف النثر	٧٣
١٢	كعب بن مالك و نثره المرسل	٧٧
١٣	القصّة و مزاياها	٩٢
١٤	تحليل أدب كعب القصصى فى ضوء حديثة عن العقبة	٩٦

الباب الرابع

١٥	ماهو الشعر	١٠٣
١٦	كعب بن مالك الشاعر المطبوع	١١٦
١٧	تأثير القرآن الكريم فى شعره	١٢٤

١٨. النقائض و كعب ١٣٥
١٩. رثاء كعب و هجاء ه ١٤٨
٢٠. الرّجزوكعب ١٦٤
٢١ هجاء كعب رضى الله عنه ١٦٨
٢٢. شعر الفخر و كعب ١٨٥
٢٣. دفاع كعب عن الإسلام و ذوده عنه ٢٠٦
٢٤. شعر كعب الغزلى ٢١٦
٢٥. الحكمة فيى شعر كعب ٢٢٤

الباب الخامس

٢٦. مذهبه بعد وفاة عمر ٢٤١
٢٧. وفاة كعب بن مالك الأنصاريى ٢٤٨
٢٨. الختام ٢٥٥
٢٩. مفتاح اللغة ٢٥٧

من أهداف إقرأ ببليكيشنز بسرينغرهى:

١ ـ نشركتب دينيّة إسلامية تنفخ روحاً إسلامية فى المجتمع الإسلامى

٢ ـتوحيد صفوف المسلمين بنشر الكتب المتفقة بين المذاهب والأحزاب الإسلامية

٣ ـنشر كتب تتفق و طبيعة النش الجديد و تغذيته تغذية إيمانيّة دينيّة.

٤ ـ نشر أدعية الرّسول ﷺ تتصل بها صلتهم القوية بصاحب القرآن صلى الله عليه وسلم.

٥ ـ نشر كتب تصبع سببًا لعلاقة العبد بربّه ـ وإذا طالع كتابًا و خاض فى معركة الحياة فلايخرج منها إلّا كخروج ابراهيم عليه السلام من نار نمرود.

جا علًا الأهداف المذكورة نصب أعيننا قمنا بطبع هذا الكتاب و لرضى اللّه

المدير

الإهداء

إلى والدي الكريم شريف الدِّين بن سعيد الدِّين الّــذى قــام بتضحيات كثيرة لتحقيق أهدافي المنشودة، و إلى أمــي الــتى فارقت الحياة و لم تقر عينها برؤتي كشاب، و إلى أساتيذ نـدوة العلماء الذين أمسوا لى منارت للعلم و المعرفة.

كلمة تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على خاتم النبيين محمد و على آله و صحبه أجمعين وبعد.

فإن الحديث عن شخصية حبيبة حديث حبيب، و بخاصة إذا كانت الشخصية شخصية صحابي عاش مع الرسول ﷺ و اقتبس من سيرته الطاهرة، وتزداد عذوبة الحديث إذا كانت الشخصية شخصية أدبية أنتجت نثراً أو شعراً، لقد كان سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه مثلاً كريماً لهذه الشخصية التي اجتمعت فيها الخلال المذكورة.

ولقد أجمع الناقدون و متذوقو الأدب على أن البراعة و الكمال في الفنّين: النثر و النظم، نادر، قلما يوفق أديب في هذا الجمع، ثم إن الكمال و حسن الأداء في مختلف أقسام النثر و النظم أيضاً لا يتحقق إلا لنخبة من الأدباء، و كان هذا الجمع في العصر الجاهلي، و في العصر الإسلامي، أكثر ندرة، و استحالة. ففي العصر الجاهلي كان النثر محدوداً، لا يتجاوز الأمثال، و الحكم و الخطب القصيرة المفككة الخيال، غير منسقة، و غير مترابطة، كخطب قس بن ساعدة، و عمرو بن معد يكرب، و أبي الأصبع العدواني، و عامر بن الظرب. فقد كان نثرهم مجموعة لجمل أشبه بالحكم و الأمثال. أما الروايات و الحكايات، فهي أيضاً قصيرة، تقدم جزءاً من حادث، أو حادثة، و هي رغم قصرها، و عدم تصويرها للمنظر، و رسم الشخصية، قليلة معدودة، فتوصف بالنوادر لمطابقتها للنادرة لفظاً و معنى.

و في العصر الإسلامي نجد تطور الخطبة، و قد سارت على النهج القديم، إلا أنها أسهل تعبيراً، و أكثر تناسقاً، و أزخر معنى، و إصابة للهدف، و قد تطورت

القصة في هذا العصر، لكنها ظلت تحتفظ بقصرها، و عدم الاسترسال في بيان الحادث و شرح هواجس النفس، و التعبير عن المشاعر القلبية، و المعاني الذهنية، و في الحديث الشريف نماذج قصص قصيرة، في غاية من الإيجاز.

و قد اجتمعت هذه المزايا المتعددة، في شخصية الصحابي الجليل كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، فهو لا يجمع بين الكمال في النثر والنظم، بل يجمع بين مختلف أصناف النثر، وأصناف النظم، كما يجمع بين خصائص الأدب الجاهلي و خصائص الأدب الإسلامي.

استعملت كلمة "المخضرم" للقطع، وللجمع معاً، ويرى بعض الباحثين أن المخضرم هو الذي قطع صلته بالجاهلية بمعنى القطع، ويرى آخرون أن المخضرم هو الذي يجمع بين الجاهلية والإسلام، فالذي كان شاعراً في الجاهلية و شاعراً في الإسلام هو مخضرم، ولذلك يقال مخضرم الدولتين: الأموية و العباسية، فهذا اللفظ هو بذاته يدل على الجمع، وبهذا المعنى، كان كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه مخضرماً بمعنى الكلمة، فقد كان صاحب كمال وبراعة في النثر بأقسامه المختلفة، و القصة إذا كانت من أهم أقسام النثر، وكانت أدباً صميماً فكعب بن مالك هو القصصي البارع الذي لا يوجد له نظير في عصره، ثم إنه شاعر بجميع أقسامه بالبراعة في جميع أقسام الشعر، و هذه ميزة لا يتصف بها شاعر مخضرم آخر فلا نجد نثراً أدبياً لشاعر مخضرم آخر.

لقد أغفل الكتاب في تأريخ الأدب العربي مكانة كعب بن مالك رضي الله عنه، و إذا ذكره أحد، ذكره كشاعر، ولم يبرز إسهامه في الأدب النثري إلا رابطة الأدب الإسلامي، فقد اقتبس رئيس رابطة الأدب الإسلامي سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي من قصة تخلف كعب بن مالك عن غزوة تبوك، كما حكاها هو بنفسه بأسلوب مؤثر جميل و بأسلوب مصور مثير، وليست لكعب بن مالك قطعة أبية واحدة تدل على يراعته في البيان و تصوير المنظر، بل له روايات

قصصية كثيرة، وقد روى ابن هشام في السيرة النبوية قصة خروجه إلى مكة مع البراء بن معرور، و يختلف أسلوب بيانه عن الأسلوب الجاهلي للقصة، لسهولة و واقعية، و عرض المشهد.

أما شعره فيكفي دلالة على تأثيره قول رسول الله ﷺ عندما أنشد له كعب بن مالك رضي الله عنه.

قضينا من تهامة كل وطر ... و خيبر ثم أغمدنا السيوفا

تخبرها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دوساً أو ثقيفا

فقال النبي عندما سمع البيتين و ما بعدهما من القصيدة: " و الذي نفسي بيده لهي أشد عليهم من رشق النبل".

قال ابن سيرين: فنبئت أن دوساً إنما أسلمت بكلمة كعب هذه.

وفي رواية أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله قال: " و الذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل بما تقولون لهم من الشعر".

و يقال: إن شعر النقائض هو الصنف الذي نشأ و ترعرع في العصر الأموي، و لكن هذا الصنف قد كان شائعاً في عهد المخضرمين، و لشاعر الرسول حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قصائد يمكن أن تعد في صنف النقائض، و ينطبق عليها التعريف الفني بالنقائض، كذلك لكعب بن مالك رضي الله عنه قصائد من هذا القبيل.

فقد هدد ضرار بن الخطاب بن مرداس بالأنصار بقوله:

عجبت لفخر الأوس و الحين دائر ... عليهم غداً و الدهر فيه بصائر

فأجابه كعب بن مالك بقصيدة مماثلة، قال فيها:

عجبت لأمر الله، والله قادر ... على ما أراد، ليس لله قاهر

و يذكر الأنصار فيها فيقول:

و فينا رسول الله و الأوس حوله ... له معقل منهم عزيز و ناصر

وقد أحسن الأستاذ مظفر حسين الندوي الكشميري بأنه ألف كتابا يبحث فيه شخصية كعب بن مالك و نثره و شعره، و ألقى الضوء فيه على مجتمع المدينة المنورة و الأسرة التي نشأ فيها كعب بن مالك، و أبرز عنصر الجمع بين الكمال في النثر والنظم، و شرح مجالات النثر، و مجالات النظم، و أقسامهما، و آراء الناقدين في أقسام النثر، و أقسام الشعر، و مكانة كعب بن مالك بين شعراء عصره، و الكتاب له قيمة تأريخية و نقدية، فقد قدم المؤلف خلاصة مطالعته الواسعة في هذا الموضوع، فلم يعد الكتاب كتابا يبحث عن الجانب الأدبي لحياة كعب بن مالك بل يشتمل الكتاب على مباحث نقدية وتأريخية و فنية، تفيد الدارس في التأريخ الأدبي، و النقد الأدبي.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل جهده، و ينفع به المتأدبين، و ينفع الكتاب أيضا في نفخ العاطفة الإسلامية، و الحمية الإسلامية في الشباب، سواء في النثر و النظم، و أرى أن هنا الكتاب يكون نموذجا طيبا يسير عليه المشتغلون بالبحث و الدراسة و العرض و التحليل لموضوعات أدبية في المنظور الإسلامي. والله هو الموفق.

١٤١٩/٩/٦هـ

١٩٩٨/١٢/٢٦م

محمد الرابع الحسني الندوي

مدير جامعة دار العلوم لندوة العلماء لكنؤ الهند

و نائب الرئيس لرابطة الأدب الإسلامي العالمية

و أمين المجمع الإسلامي العلمي

المشرف العام لمجلة البعث الإسلامي الشهري و جريدة الرائد

المدخل

الحمد لله رب العالمين،.و الصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد على آله الطيبين الطاهرين و أصحابه أجمعين و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عندما كنت طالباً نظامياً في جامعة دار العلوم ندوة العلماء بلكناؤ الهند درست كتاب "المختارات" لأستاذي الجليل العلامة أبى الحسن على الحسنى الندوي دراسة متأنية دقيقة، فتأثرت بقصة كعب بن مالك و أسلوب بيانه لها، و تشوقت إلى أن أقرأ له الكثير و تصفحت الكتب المتوفرة في المكتبات التي تتعلق بحياته، فلم أجد فيها إلا سنة وفاته وعماه في آخر عمره، إلا أن بعض الكتب قد استعرضت قصة العقبة و تخلفه عن غزوة تبوك، و أنه كان شاعر الرسول ﷺ.

أخذتنى الحيرة عندما قرأت أن الرسول ﷺ :كان يعرفه قبل قدومه إلى مكة لمبايعته ﷺ مع سيده و كبيره البراء بن معرور بـ" الشاعر"، فأخذت في البحث عن شعره و عثرت على شعرله منثور في كتب السير و تأريخ الأدب العربى فجمعته و درسته دراسة ناقد فأدركته في طليعة المدافعين عن الإسلام بشعره كما كان حسان بن ثابت الأنصارى يدافع عنه بلسانه إلا أن كعباً كان فارساً من الفرسان وابن حرب:

بنو الحرب لا نعيا بشئ نقوله ... ولا نحن مما جرّت الحرب نجزع
بنوالحرب إن نظفر فلسنا بفحش ... ولا نحن من أظفارها نتوجّع

و رأيته يجيب مرحباً يوم خيبر بقوله راجزاً:

قد علمت خيبر أنى كعب ... وأنى متى تشب الحرب
ماض على الهول جرئ صلبّ ... معى حسام كالعقيق عضب
بكف ماض ليس فيه عيب ... تدرككم حتى يذل الصعب

وطالعت خلال دراسة حياة هذا الصحابى البطل الشاعر الجرئ أن دوساً قد أسلمت خوفاً من قول كعب :

قضينا من تهامة كل ريب   و خيبر ثم أجمعنا السيوفا

فقالت: انطلقوا فخذوا لأنفسكم لاينزل بكم ما نزل بثقيف.

فزادني كل هذا عطشاً ، فأصبحت لى دارسة كعب كالماء المالح كلما يزداد الإنسان من شربه يزيد ظمأ جمعت كل ما وقع في يدى من آثاره من نثر و نظم و قسمت نثره كما قسمت شعره و جعلت لكل قسم باباً قمت أثناء هذا بوصف النثر و القصة منه و مزايا القصة و أصالتها كما وصفت الشعر و أقسامه مراجعاً أمّهات الكتب من الأدب العربى والنقد الأدبى و بالإضافة كتبت عن المدينة المنورة و أسرة كعب و غيرها.

و الآن أنى مغتبط جداً بعرض هذا الكتاب على القراء متوقعاً منهم العناية به نقداً علمياً و لغويا و أدبياً. و أعدهم أن اقتراحاتهم ستقبل برحابة الصدر. و قد تلقيت مقدمة على هذا الكتاب من الأستاذ الأديب مولانا محمد الرابع الحسني الندوي مدير دار العلوم لندوة العلماء فزاد الكتاب قيمة، و إنّ عنايته بي هي التي كوّنت هذا الكتاب من قبل.

و كنّا كالسهام إذا أصابت   مراميها فراميها أصابا

د/ محمد مظفر حسين الندوي

سرينغر كشمير ١٩٩٩/٤/١٦م

المدينة المنوّرة

إنّ من المعلوم لدى العقلاء و النبلاء أن الإنسان يرث بعض خصائله من الآباء و الأجداد و الأمّهات و بعضها من الجوّ الّذي يعيشه، و بعضها من الطبيعة نفسها، لأنهّ إذا فتح عينيه في الدنيا تحتضنه أمّه و عند ما يكون جنينًا يختلط بدمه دمها و في طبيعته طبيعتها، و يرث من الأقرباء ما لهم م من أخبار و أحاديث وخرافات و أوهام وعلوم و فنون مختلفة، و قبل كل ورثة تكون الأمّ هى أولى مدرسة له في هذا الكون الواسع، قبل أن يدخل في المدرسة المعروفة عندنا. و أنّ هذه الصور البدائية ترتسم على عقله و ذهنه و قلبه الفارغ عن الدنس و الأخلاق السيئة، لذلك نرى هذه الصورة المرتسمة الأولى تظهر في حياته حينًا بعد حين، و إن أخذت حياته بعض الأثر من مرّ الأيام و الليالى و كرّ العصور و الدهور.

لذلك يقال إنّ للثقافة أثراً كبيراً في حياة الفرد، و للبيئة حظّ وافر لا ينكر في مراحل حياته. و إن لم يكن كذلك لم نر الشعراء الجاهليين يذكرون الوحوش و الصحارى و الفيافي و البيداء و الطل و الدِّمن و أسماء الإبل و البعير و الفرس و الناقة و المطر و الظليم و النعامة و الأطلس، ولم تبدلت التشبيهات و الإستعارات في العصر العباسى. فالإنسان في بيئة كماكينة الآلة تؤثّر و تتأثّر، فالشاعر الّذي يعيش و ينشأ في مجتمع فلاحى يأتي بالتشبيهات و الصور الّتي تتعلق بما احتوت بيئته.

نظرًا إلى هذه الحقيقة القاطعة لابدّ لنا قبل كل شئ إذا قمنا بتحليل شخص وفهم مزاياه من بين الشخصيات من أن ندقّق النظر في بيئته التي ولد فيها و نمعن الفكرة في أحواله و ظروفه التي أحاطت به من كل جانب.

نعم، صاحبنا الّذي أريد أن أكتب عنه هو شخصية كعب من مالك الصحابى الجليل، نتعمّق في المؤثّرات التي أثّرت فيه، و الأوضاع التي ارتسمت على قلبه و عقله، و المقوّمات التي ما زالت تبتنى عليها حياته، و العوامل السياسة و

الاقتصادية و الاجتماعية و الدينيــة و غيرها. لانّ الأثمار المختلفة لا تثمر إلاّ في فصولها الخاصة،

فالمدينة المنورة هي مدينة الرسول التي وُلـد فيـها صاحبنـا هـي مدينـة ذات حدائق و بساتين و منتزهات، أمّـا مـا يـؤرّخ بعـض المؤرخـين أن الجزيـرة العربيـة كانت تشتمل على الصحارى القاحلة لم تكن فيها وديان و لا ماء، ينطبق هـذا القـول على جزء منها يقول الدكتور محمـد العيـد الخطراوى في كتابـه المدينـة في العصـر الجاهلي:

"إنّ الجوّ كان في عمومه خير من مكة ولم يعـان مـا عانى أهل مكة من شح في الماء فالماء متوافر، و مـن الممكن الحصول عليه بسهولة، و لهذا كان من إمكانها زرع النخيل، و إنشاء البساتين، و الحدائق العامرة، و الكروم و الليمون و التيـن و المشـمش و الخـوخ و مختلف الخضروات"١

و قد روى الحربىّ عن طريق هشام بـن عـروة عـن عائشـة. رضـى الله عنـها. قالت: قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة و واديها بطحـان نجـل تجـتري عليه الإبل _ أي واسع فيه ماء ظاهر _ و بدليل قول حسان رضي الله عنه

"إذا جدول تصـرّم مـاءه وصلنا إليه بالنواضح جدولا "٢

فحيث وجد الماء وجدت الزراعة و الفلاحة و الأزهـار و الأشجار الـتي لهـا منظر خاص و لذاذة متميِّزة تتخلل فيها الرِّيـاح الـتي تشـف الأذهـان، يرتسـم هـذا المنظر البهيج الخلاّب و هواؤه النقي و جوّه البهي على ذهن الإنسان فيصطفيـه مـن الإنسان الّذي يلد و يترعرع في بيئة دنسة و هواء نتن.

ينخدع قارئ جغرافية الجزيرة بمطالعة بعض الكتب التي تعطينا معلومات ناقصة عنها لذلك اضطرّ الدكتور محمد العيد الخطراوى صاحب كتاب المدينة في العصر الجاهلي إلى أن يرّد من خالف الحقيقة بانخداعه ببعض الأشعار الجاهلية فقال:

"(مجتمع المدينة) مجتمع زراعي يمثّله سكان الواحات و المناطق الوفيرة كيثرب و الطائف و الحيرة، و ليست كل الجزيرة العربية صحارى قاحلة و وديانًا جافة. أمّا الصورة التي تنطبع في أذهاننا عن هذه الجزيرة من معطيات بعض الأشعار الجاهلية فهي صورة ناقصة جزئية"٣

يصّور لنا شاعر عربى مدنىّ بئار المدنية في شعره:

لها ثلاث بئار في جوانبها فكلُها عقف يسقى بأقيال.٤

و يقول كعب بن أشرف اليهودي عن بئره و نخله:

و لنا بئر رواء عذبة من يردها بإناء يغترف
و نخيل من تلاع جمة تخرج التمر كأمثال الأكف٥

و لشاعر الرسول حسان بن الثابت شعر عن هذه البيئة:

لنا حرة مأطورة بجبالها بنى المجد فيها بينه فتأهلا
بها النخل و الآطام تجرى ظلالها جداول قد تعلو رقاقا و جرولا ٦

يقول الدكتور المذكور:

"و كان أهل المدينة يعلفون إبلهم النوى لوجود النخيل، بينما لا يفعل ذلك أهل مكة."٧

يفيدنا ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان أن العماليق هم أول من زرع بالمدينة يقول:

"و كان أوّل من زرع بالمدينة و اتّخذ بها النخــــل و
عمّر بها الدور و الآطام و اتخذ بها الضياع العماليق و
نزلت اليهود بعدهم الحجاز"٨

نعم، إذا كان مجتمع المدينة يفوق مجتمع مكة من حيث أشجارها و آبارهـا و صيفها و شتائها و يتميّز عنه، لابدّ أن يتميّز تأريخها عن تاريخها. "بلـدة زراعيـة تكثر بها الآبار و الأشجار و تفوق مكة من حيث ثمارها و منتجاتها و مناخها علـى ما في صيفها من حرّ و في شتائها من برد خير من مناخ مكة، و لذلك اختلف تـاريخ المدينتين إبان العصر الجاهلي لأنّهما تأثّرتا بطبيعتهما الجغرافية أكثر مـن أي شئ آخر.

إن يثرب لم تكن مجهولة عن الناس بل و كانت معروفة الصيت ورد اسمها في جغرافيـة بطليمـوس و في كتابـات البـابليين و البيزنطيين، و أن أسمائـها كـانت حـوالى تسعة وعشرين اسماً منـها: المدينـة، طيبـة، طابـة، العـذراء، الجـابرة، المحبة، المحـببة، يـثرب، الناجيـة، القدسـية، العاصمـة، الشافية، الخـيرة ، المحبوبة، القاصمة، المختارة الخ.

ياقوت الحموى في معجم البلدان يروى حديثاً أن النبي ـ صلى الله عليه وسلّم ـ قال:

"اللهّم إنّك أخرجتني من أحبّ أرضك إلـىّ، فـأنزلني
أحبّ أرضك إليك، فأنزله المدينة"٩

لما قدم رسول الله المدينة وثب على أصحابه وباء شديد حتى أهمدتـهم الحمّى فما كان يصلىّ مع رسول الله إلاّ اليسير فدعا لهم، و قال:

"اللّهم حبّب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة، و اجعــل
ما كان بها من وباء بخمّ"١٠

هذا، و قد كان يقال للمدينة المنورة في العهد الجاهلي "يثرب فبحث العصريّون و المحقّقون عن تسميتها لم سمّيت بيثرب فاختلفوا فيه فمن قائل: إنها سمّيت "يثرب" نسبة إلى يثرب بن قانية من سلالة إرم بن سام بن نوح ،و هو أوّل من نزل فيها، فسمّيت باسمه، و من قائل سمّيت يثرب من التثريب، و من قائل أسماء أخرى من هذا القبيل.

العلاّمة ابن منظور صاحب لسان العرب و ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان سالف الذكر يذكران أن النّبى ـ صلى الله عليه وسلّم ـ لما نزلها سمّاها طيبة و طابة كراهة للتثريب، إذ التثريب الإفساد و اللوم و التعيير وقد ورد اسم يثرب في القرآن العظيم". وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا" كما ورد اسم المدينة" وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُوْنَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِيْنَةِ مَرَدُوْا عَلَى النِّفَاقِ."١١

يزيد ياقوت الحموى إلى هذه المعلومات علمًا بأن المؤرّخين قد اختلفوا في هل المدينة هى ناحية من يثرب أو بالعكس أو هي هي: يقول:

"ثم اختلفوا فقيل إن يثرب الناحية التي منها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم و قال آخرون: بل يثرب ناحية من مدينة النبي- صلى الله عليه وسلم١٢

نتيجة لهذه البيئة و الجوّ الصافي و الطبيعة اللطيفة نرى أنه قد نشأ هنالك أدباء و شعراء و أصبحت هذه المدينة مهوى العلماء و الأدباء، و كانت تفوق على كل بلدٍ بطقسها و بالإضافة أصبحت مركز السلطة الدينية و الدنيوية و مصدر الفقه و التشريع و ملتقى القادة و المفكرين و مسرح الشعراء و الخطباء و الكتاب يقول الدكتور محمد العيد الخطراوى في كتابه المدينة في العصر الجاهلي:

"استقطبت إليها كلّ ذى عقل و قلب، فجمعت بذلك كلّه القيادة الدينية و السياسية و الاقتصادية من جهة، و الريادة الفكرية العلمية الأدبية و التقدمية من جهة أخرى ، و احتوت كل أنواع الأنشطة الحضارية و تفردت بها و ملكت زمام قيادتها و حققت التميز و التفرد على مرّ التأريخ"١٣

لقد كان لطبيعة المدينة الخصبة و طقسها اللطيف ما انبث فيها مزارع و حقول أثر في طباع أهلها على ما يبدو. يقول الدكتور محمد على الهاشمى في كتابه كعب مالك الأنصارى:

"إذ عرفوا بلين العريكة و دماثة الطبع و سماحة النفس أكثر مما عرف به سواهم من سكان الحجاز، و قد تجلّى هذا الخلق السمح الرضي في استجابة الأوس و الخزرج لدعوة الرسول -ص- و انبعاثهم لنصرته و تأييده بصدق و حرارة، و اندفاع و إيثار فكانوا الأنصار كما لقبوا بحق"١٤

أنشد هؤلاء الشعراء من الأوس و الخزرج ما كان بينهما في الجاهلية من حروب طاحنة دامية و نزاع _ الطابور الخامس _ و افتخروا على عدوّهم خير فخر و أىّ فخر و كان شعرهم تعبيرًا عن حياتهم القبلية و تمثيلاً لحياتهم ، و يعدّ الخطراوى تعبير هؤلاء الشعراء عن أذواقهم و بيئاتهم و ظروفهم و حروبهم و أيامهم في المكان الأوّل. وكانت كلا القبيلتين أقرب إلى البداوة و إن كانوا قد اتّخذوا الآطام سكنًا لهم و يذكر الهاشمى أنّ عدد الّذين كانوا يقرأون و يكتبون في الجاهليةقليلٌ وكان من بينهم سويد بن الصامت الأوسي و الزبرقان بن بدر وكعب بن زهير و كعب بن مالك.١٥

الكيان السياسي

تحدّثنا في الصفحات السالفة شيئاً يسيراً عن البيئة الاجتماعية للمدينة المنورة التي تسبّب الإنسان للتأثُّر و تترتب أوضاع البيئة على الأذهان و القلوب، فكما أن الإنسان يتأثّر بأكل الفلفل و السمّ و الدواء و الغذاء الموافق و المخالف لطبيعته، كذلك يتأثر بظروفه، إذا كانت الظروف ظروف الحرب و الضرب و المصادرة و الغزو و النهب ترتسمُ على الإنسان القساوة و الجفوة

كذلك للأوضاع السياسية أثر عميق في حياة الإنسان، فالأحوال السياسية مثلاً التي أحاطت الجزيرة العربية في العصر العباسى كانت أقسى إلى حدّ نهائى، فيئس الناس من حياتهم و آووا إلى الزوايا و التكايا و المساجد، و تركوا السياسة لأصحابها حتى أنهّم قالوا: "الدّنيا جيفة و طالبها كلاب" و نسوا بأحوالهم دعاء القرآن " رَبَّنَاْ آتِنا فِي الدُّنْيَاْ حَسَنَةً وَّ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَّقِنَاْ عَذَاْبَ النَّاْرْ" فنتج الأدب الصوفي و له سمات بارزة. تخالف الأدب الجاهلى البتة لأنّ الأدب الجاهلى هو أدب البطولة و البسالة و الشجاعة.

يفيدنا التأريخ بأنه لم يكن للعرب في الجاهلية كيان سياسي حيّ صحيح ولم يكن لهم رئيس لجميع القبائل الّذى يرأسهم في أمورهم الخارجية، و لم يكن لهم جند خاص للحروب و لا معسكَرات كما نراها في هذه الأيّام ، إنّ الوعي السياسي كان فيهم ضعيفاً ضيّقاً لا يتجاوز حدود القبيلة أو حدود القبائل المنتمية إلى حدٍ واحد.

١. إنّ وسط الجزيرة العربية بما فيه الحجاز لم يكن يعرف نظام الحكومة الدائمة المستقرة أو بتعبير أصحّ لم يكد يعرف الكيان السياسي المستقّل.

٢. لم يكن لهم قضاء يحتكمون إليه أو شرطة تقرّ الأمن و النظام و لا جيش يدرأ عنهم الأخطار الداخلية و الخارجية.

٣. إنهم كانوا يختارون لهم رئيسًا منهم يقود هم في أمر حازب أو لفترة معيّنة

٤. لم يكلّفوا بدفع أىّ ضريبة أو إتاوة و ذلك لعدم وجود الحكومة التي قد تحتاج في بعض شئونها إلى فرض الضرائب.

٥. كان على الشخص الذي اعتدى عليه يثأر لنفسه بنفسه، وعلى قبيلته أن تشدّ أزره، و قد تحل بعض الثارات بدفع الدِّيات.

٦. إنّهم لم يكونوا يشعرون بشعور المواطن الّذي ينتمي إلى أرض ذات حدود و ثغور. أو أمّة أو شعب ذي خصائص و ميزات و تراث أو عقيدة واضحة بل وكانت تصرّفاتهم محكومة بالشعور القبلي وحده.

"و ما أنا إلاّ من غـزيّة إن غوت
غويت، و إن ترشد غـزية
أرشد"١٦

٧. إنهّ لم يكن هنالك نظام لاختيار رئيس القبيلة غير أنه لابدّ أن يكون من الشيوخ و كِبار السن و ذوى المال و النفوذ و الفروسية، و سلطته في الغالب مقيّدة بمجلس الشورى للقبيلة المكوّن عادة من رؤساء الأمر.

٨. إنّهم كانوا كثيراً ما يتسامحون في تسمية هؤلاء الرؤساء أو الأمراء باسم الملوك.

٩. بعض رؤساء القبائل، حملوا لقب ملك في يثرب كالأرقم بن الأرقم و مالك بن العجلان.١٧

هذه بعض النكات التي ذكرها صاحب كتاب "دراسات في النظم العربية والإسلامية" التي تدلّ على أحوال المدينة السياسية في العصر الجاهلى. و الحق أنّ

عدم النظام السياسي المستقل دعاهم إلى القتال و الحروب الطاحنة التي كانت تمر إلى سنوات طويلة، هذا الذي سببهم أن يكون تصوير حياتهم.

و أحيانا على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا١٨

و كانت هذه الفوضوية في النظام يجعل الإنسان يثأر لنفسه بنفسه و إذا لم يستطع الوتر بنفسه لجأ إلى قبيلته، لا حاكم لهم و لا محكوم، لا راعى لهم ولا رعية و لا آمر و لا مأمور اللهم إلا القبيلة هي التي كانت تآزر و تؤيد من ينتمي إليها في نوائبه و شدائده، فيفتخر بها في أشعاره وكلامه وخاصة برئيس القبيلة.

نعم، كان العرب من حيث العموم منقسمين إلى قسمين سياسية وفق قول مؤلفي" الأدب نصوصه وتأريخه"١٩. قسم لهم مسحة سياسية، يعيشون في إمارات كإمارة الحيرة و الغساسنة و كنده. إمارة الحيرة أنشأها الفرس كان ملوكها يدعون مناذرة منهم المنذر بن ماء السماء، أما الغساسنة فقد أنشاها الروم و ملوكها بنو غسان من أشهرهم الحارث بن جبلة و جبلة بن الأيهم. و أما كنده فكانت تابعة للتبابعة باليمن اشتهر من ملوكها حجر الكندي والد امرئ القيس.

و قسم آخر لم يكن لهم وضع سياسي، و هم قبائل من البدو الرحل فهم يخضعون لشيخهم يكون عادة فارسا و سيدا يتحلى بأروع المثل العليا من كرم و إقدام و نجدة و فصاحة و لهم امتيازات كأنها قوانين منها: أن له ربع الغنائم قبل توزيعه و له الفضول و هو لا يقبل القسمة من الغنائم.

لك المرباع فينا و الصفايا و حكمك و النشيطة و الفضول٢٠

النشيطة هى ما يغنمه جيش القبيلة في الطريق.

و نعلم أن الأوس و الخزرج كانوا أقرب إلى البدو و إن لم يكونوا رحلا لاستقرارهم في المدينة ، فلا نقطع الأمر على بداوتهم كبداوة أهل مكة، و لا على نظامهم السياسى المستقل الدائم لنظام الغساسنة و الحيرة و كنده وكنظام اليهود.

الحياة الدينية

إنّ مما لا شك فيه أنّه للحياة الدينية تأثير عميق و حظّ وافر في تغيير المجتمع ، لأنّ هذا التأثير أكثر ما يتعلق بقلب الإنسان بالنسبة إلى علاقته بالعقل و التفكير ، كما أن الأدب يتعلق بالوجدان والشعور ، ولست أنكر ما للعقل والتفكير سهم في كل شئ فضلاً عن الدين الذي يدعو إلى التدبّر ، ولكن العشق هو الّذي يهزم العقل أحيانًا إنّ العشق هو الّذي قفز قفزة في نار نمرود.

كانت الحياة الدينية في المدينة المنورة غير الحياة في مكة المكرمة لأنّ اليهود كانوا قد ألقوا رحلهم بالمدينة من زمن طال أمده. و كانت لهم الأغلبية و الأكثرية الساحقة في هذه البلدة بعد الأوس و الخزرج الّذين كانوا وثنيين ، و لكنّ هاتين القبيلتين كانتا تعظمان اليهود لديانتهم تعظيمًا. أمّا في مكة فلم يكن اليهود بها في عدد يُذكر. و كانت اليهود قد اندمجت "في العادات العربية و كانوا يخضعون لسلطانهم و ينظمون الأشعار العربية و يلبسون الزى العربى"٢١ وفق قول الخطراوي.

كان العرب من حيث المجموع يدينون بالوثنية و بقيت قبيلتا الأوس و الخزرج على عقيدتهما السائدة على الجزيرة العربية و لم تبال بديانة اليهود. يقول سماحة الشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى في كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"

> "كان الشرك هو دين العرب العام، و العقيدة السائدة وكانوا يعتقدون في الله أنّه إله أعظم خالق الأكوان و مدبر السماوات و الأرض"٢٢

أما الأشجار و الأحجار التي كانت العرب تقدسها و تتخذها آلهة، لم يكونوا يعظّمونها بكونها آلهة مطلقة بل و كانوا يتخذونها وسيلة و زلفي "مَاْ نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُوْنَاْ إلى الله زُلْفي " يقول الخطراوى:

" وكل ما يهمّه أن يدين بتقاليد قبيلته ويتبع أعراف جماعته وما وجد عليه آباءه ولا يبيح لنفسه الخروج عن هذا الإطار، بل يعد مجرد التفكير في ذلك عقوقا و مروقا فعلاقته بالأحجار و الأشجار و الأصنام التي يقدسها لم تكن وثيقة بدليل، خرج امرئ القيس في طلب الثأر من قتلة أبيه و مرّ مع أنصاره بمعيد ذى الخلصة، و استقسم بقداحة الثلاثة الآمر و الناهى و المتربص متفائلاً، فلمّا خرج سهم النهى ثلاث مّرات قذف السهام المحطمة في وجه الصنم صائحاً ، أيّها الملعون، لو أنّ أباك هو الّذى قتل لما نهيتنى عن الثأر له"[٢٣]

كانوا يقدمون القرابين لهذه الأصنام و الأوثان و يوزّعون ذبائح لحومها و ينذرون له نذورا من ذلك، البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام "وَمَاْ جَعَلَ الله مَنْ بُحَيْرَةٍ وَّلاَ سَائِبَةٍ وَّلَاْ وَصِيْلَةٍ وَلاْ حَاْمٍ" [٢٤]يقول ابن الكلبي في كتابه المعروف الصيت "الأصنام" عن الأوس والخزرج:

"كان الأوس والخزرج يدينان بمناة أكثر من أى صنم"[٢٥]

و يؤيد كلام ابن الكلبي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عروة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنّها قالت:

"إنّ الأنصار قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلّل"٢٦

كانت الكعبة المشرفة مركزاً للعرب جمعاء كانوا يحجونها و يعتمرونها و يعظمونها و يأتون إليها ذرافات و وُحدانا في شهور خاصة. يقول صاحب الكتاب المدينة في العصر الجاهلي.

"مع ذلك كانوا يعظّمون الكعبة التي كانوا يعبدونها ويسمّونها بيت الله."٢٧

ولَكنّهم لم يكادوا يحلقون رؤسهم إلاّ عند مناة بالمشلّل، و قد روى البخاري عن رجاء العطاري قال:

"كُناّ نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هوَ خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر. فإذا لم نجد حجراً جمعناحثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فجعلنا عليه ثم طفنا به"٢٨

أضاف ابن الكلبى في كتاب الأصنام:

"كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتّخذه ربا، وجعل ثلاث أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه"٢٩

لم يتوقف العرب على هذه الأوثان و الأصنام من الأحجار و الأشجار و التراب بل و جاوزوا إلى الملائكة و الجن و الكواكب و اتخذوها ربّاً و زلفي. و كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله فيتخذونها شفعاء عند الله و يعبدونهم و يتوسلون بهم عند الله سبحانه، كما اتخذوا الجن شركاء لله، و آمنوا بقدرتهم و تأثيرهم و عبدوهم.

لعب الشعراء بهذا التفكير و ملأوا جو العرب بتقديسهم و تكبيرهم.

أنشد عبد العزّى بن وديعة المزنى قوله:

إنّى حلفت يمين صدق برّة بمناة عند محل آل الخزرج ٣٠

وقال دهم بن زيد الأوسى:

إنّى و ربّ العزّى السعيده والله الّذيى دون بيته سرف ٣١

لم يكن عند اليثربيين ولا غيرهم من العرب الوثنيين تصوّر متكامل للناحية الدينية ولم يكونوا يؤمنون ببعث أونشور أوجنّة أونار إنها هيى أرحام تدفع و أرض تبلغ.

حياة ثمّ موت ثمّ بعث حديث خرافة يا أم عمرو بأنهم

"وَمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا" ٣٢

كانوا يصنعون أصنامًا لهم من عجين فاذا جاعوا أكلوها. كانت اليهود يفاخرون الأوس و الخزرج بأنّهم أهل كتاب و لهم علم ليس لغير هم منه حظ كانوا يعلّمون أولادهم فيى بيوتهم شريعتهم. يقول الخطراوى:

"كان اليهود ينعتون أنفسهم بأنهم أهل العلم والأديان ولشرائع ويفاخرون الأوس والخزرج بذلك،ويعيّرونهم لكهونهم ليسوا بأهل كتاب و كانت لهم بيوت يتدارسون فيها أمور دينهم وأحكام شريعتهم و تواريخهم" ٣٣

الأحوال العاملة للمدينة المنوّرة

استمرت مشاجرات و احتكاكات بين اليهود والأوس و الخزرج جاء ت بأكل ونتاج و فوائد جمّة، فائدة كلامية و لغوية و دينيّة و سياسية، و كان تأثير متبادل فكرىّ و عقلىّ، تلك الاحتكاكات و الحروب السيفية والنصالية سببت عدم اعتناق القبلتين الأوس الخزرج ديانة اليهود، ومن جانب كانت الحروب بين اليهودية والنصرانية التيى من أجلهالم تكد اليهود تطمع فيى أكثر من السلامة التيى تهيّألهم الثروة و المال و ازدهار التجارة و تانياً كانت اليهود تزعم أنّهم شعب اللّه

المختار فلا تطمع أن يكون غيرهم يحتّل هذه المكانة العظمى لذلك لم تدعُ إلى دينهم من جانب و كانت تحسب خطرًا عليهم إذا خلع أحدٌ منهم ديانته منهم من جانب آخر.

مع هذا فإنّ الآراء و الأفكار تجري كالهواء من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد آخر لا يتمكّن أحدٌ من منع شيوعها و انتشارها مهما كانت المنازلات و المناضلات، و مهما كان الصلح و السلام و الهدوء و الوئام فأنّها لا تتوقّف، فالحروب و الاتصالات التجارية تدعو إلى تبادل الآراء أكثر من الأمن و السلام، لذلك نرى الثروة الأدبية تنتج بسبب الخلافات و النزاعات، و ما كان الهجاء و النقائض مثلاً نيتجة الأمن و ما كانت المراثى تحتلّ تلك المكانة التي احتلتها.

فنرى هاتين القبيلتين الأوس والخزرج تتأثّران بما كانتا تسمعان من اليهود عن الديانات السماوية و كانت تأخذ أحاديثهم و كلامهم طريقها إلى القبيلتين و الدوائر الفكرية فتتفاعل معها إيجاباً أو سلباً مما جعلهما بالإضافة إلى ظروف أخرى أسرع العرب إلى التصديق برسالة محمّد - صلى الله عليه وسلّم - وهى لم تكن إلاّ الثقافة الروحية التي لها دلالات كثيرة في تحليل نفيسة الأوس وسيكولوجية الخزرج.

إنّني أرى أن الأوس و الخزرج الوثنيين كانوا قد تأثّروا باليهود من حيث الروحانية و الدِّين و لم يتأثروا بهم خلقًا و سلوكًا، لذلك نراهم يعظّمونهم و يقدّسونهم من جانب و يحاربونهم من جانب آخر. و هذا الأمر المزدوج لا يثير العجب، فهم كانوا يأخذون ما صفا و يدعون ما كدر. لأجل ذلك لم يتهوّد الأوس و الخزرج و إن تعلّموا منهم كثيًراً من العلم و تثقفوا بثقاتهم الروحية إلى حد مّا.

يروى لنا التأريخ أن الرسول -ص- عند ما خاطر بنى قينقاع خمس عشرة ليلة كانت لهم ثلاثمائة دارع فأخذ آلة صياغتهم لينتفع بها المسلمون و غنم منهم

سلاحاً كثيراً و كان في مخلفات بنى نضير بعد جلائـهم ثلاثمائـة و أربعون سيفاً و خمسون درعاً. و كانت العرب يصنعون مختلف الأواني و الآلات الخشبية، كان الرسول-ص- يخطب في المدينة على جذع من النخل ثم إنّ امرأة من الأنصار. كما روى البخاري عن جابر بن عبد الله - قالت: يا رسول الله ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه فإن لى غلاماً نجاراً، قال: إن شئت، فعملت له المنبر يذكر بعض المؤرخين أن الذين اشتركوا في صنع منبره-ص- من الأنصار سبعة نجارين٤١

هذا، و قد عرفت المدينة المنورة بنشاطات صياغية لصياغة الحلي و صناعتها و بلغ عدد الصياغة فيها ثلاثمائة صائغ و قد أصبحت مشهورة بصناعات السهام و الرماح و النبال و الدروع و برعوا في ذلك براعة كبيرة حتى غدت معروفة قال الطفيل الغنوي:

رمت عن قسى الماسخى رحالنا　　　بأجود ما يبتاع من نبل يثرب ٤٢

ينبغي لنا أن نذكر هنا أن العرب كانوا منقسمين إلى حضر و بدو فأهل الحضر هم أهل استقرار و البدويون هم مجتمع رعوي تقوم حياتهم على الرعي و الانتجاع فهم لا يرتبطون بالأرض إلا بمقدار ما توفر لهم من ماءٍ و عشب و استقرار مؤقت و هم في الأغلبية و الأكثرية مثل بكر و تغلب و عبس و ذبيان، و كان من ميزاتهم أنهم لم يكونوا يحبون الصناعة و الصياغة، بل و كانوا يقضون حياتهم على اللحوم و الألبان.

" و أما أهل الحضر فهم الذين كانوا أهل الصناعة و الصياغة والتجارة"٤٣

هذه نظرة خاطفة على أحوال المدينة المنوّرة الدينية والسياسية والاجتماعية و الاقتصادية التي تدل دلالة واضحة على أنها لم تكن منعزلة عن العجم و الحياة الروحية و كانت مسرح الديانات و الثقافات و الحضارات المختلفة التي جعلت أهلها

ألين و أسرع إلى الحق و صيّرت عقولهم خصبة لقبول الدعوة الإسلامية بعد، و تأثرت بتلك العوامل و الجداول المختلفة التي كانت تجرى إليها لأجل التجارة، و أثرت فيها.

قال بعض علماء الاجتماع: " صفوا لى طبيعة أرض أصف لكم سكانها" لان الطبيعة لها أثر عميق في الحياة البشرية جمعاء، فإنّ الزهر الذى ينمو في الشتاء غير الزهر الذي ينمو في الصيف؛ و هما غير الزهر الذي ينمو في الربيع، كذلك الرجل الأفريقي مع عقله و صورته و ضخامته و طريق فكره و أخيلته و طرق معاشه و منهجه في الطعام و الشراب و الزي غير الرجل الذي يسكن في الهند، تتغيرّ اللهجات من بلد إلى بلد و من موطن إلى موطن آخر، تتغير الأطعمة و الأشربة بتغيير الأمكنة و البلدان، فالشامي مثلاً يحبّ شياً حباً جماً و الهندي يكرهه كرها شديداً، و الأمريكي يستسيغ شيئاً و الصيني يمجه مجّاً و هكذا. و كلهم بشر، فلم هذه الفروق الشاسعة في الأذواق و الطبائع؟ ولم هذا البون الواسع بين المناهج والطرق؟ ولم هذا التغيّر في اللون و الصور؟ هكذا يمكن للإنسان أن يسأل أسئلة كثيرة، و لكن الجواب هو واحدٌ لا قرن له، و هو أن هذه الفروق من حيث الطبيعة للأرض، لكل أرض طبيعة خاصة متميزة عن أخرى. و لكل أرض جوّ يمتاز عن جوّ أرض أخرى لها رياحها و أمطارها و شمسها و زراعتها التي تؤثر في حياة البشر. فقاطنو الجبال لا يخشون من الوحوش خشية سكان الحضر لأنهم يعيشونها و يصيدونها و يعاملون معها و يرونها كل يوم، فيصبحون أقوياء، و قد ورد في الحديث "من سكن البادية جفا" لأنه يعش بكد اليمين و عرق الجبين ليل نهار كذلك قال ابن خلدون في مقدمته المشهورة.

"قد صار لهم البأس خلقاً، والشجاعة سجية يرجعون إليه متى دعاهم داعٍ، أو استنفرهم صارخ"٤٤

الحضري يكون مهذباً و مثقفاً و مطلعاً على الأحوال التي تجرى في الحكومات و الدول من سياسة و اقتصاد فيصبح أعمق فكراً بالنسبة إلي بدوي.

نظراً إلى توجيهات علماء الاجتماع و النفس و السياسة و المعيشة و الطبيعة و ما لكل منها من أثر قوى في الحياة سردت هذه السطور لإخراج شخصية كعب بن مالك الأنصاري المدني. والآن نحن مع هذه الشخصية الفذة، الذي لا يعرفه الناس حتى الدوائر العلمية و أوساطها إلا كصحابي جليل ذكر قصة تبوك و تخلفه عنها. و ذكره الله في كلامه المجيد دون أن يذكر اسمه المبارك.

و قد أعددنا هذه المحاولة التي تكاد أن تصبح كتاباً لنعرفه إلى الناس كشاعر و أديب جليل قام بسرد أحداث تبوك في أسلوب جذاب خلاب و لو لا هو لم يصل إلينا قصتها و لولا غزوة تبوك لما ذكرناه كما نذكره.

فالله أسأله التوفيق و أستعينه وحده لا شريك له في إخراج مترجمنا هذا رضى الله عنه كما رضى عنه.

ذكر الدكتور أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام أنّ بعض المؤرّخين قد ادّعى أن العرب كانوا منعزلين عن العالم بدليل أنّها كانت محصورة بين البحار والصحراوات، وأنهم لم يقتبسوا من العجم شيئاً ماديًا ولا أدبًا ولا ثقافة فأقام الدكتور دلائل ضدهم وأمعن في بحث طويل فالطرق التي كانت واصلة العرب بالعجم هي على حسب بحثه.

١. التجارة ٢. إنشاء المدن العربية المتاخمة لفارس و الرُّوم.

٣. البعثات اليهودية و النّصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب تدعو الثانية إلى دينها و نشر ثقافتّها [٣٤]

نزيد هنا قول الدكتور محمد العيد الخطراوي [٣٥] إلى قول الدكتور أحمد أمين و هو علاقة العرب بالعجم بالحروب التي نمت بينهم و بين الفرس و الأحباش، هذا وقد ذكر كلا الدكتورين العلاقة التجارية حيث كان العرب يوردون التوابل و الطباق و غيرها و يذهبون بها إلى الشام و مصر أو كان أهل الهند هم الّذين يبيعون هذه المأكولات و المصنوعات الأخرى في المدينة ثم يسافرون إلى الشام و مصر. فلابدّ أن تكون لها آثارها على التفكير و السلوك و العادات و اللسان، كما كان يضطرّ هم إلى بعض المعاوضات اللّغوية بجانب تلك المعاوضات التجارية فمن الألفاظ الهندية الزنجيل، الكافور، الفلفل، النارجيل و من الالفاظ الفارسية السنجاب، الخز، الديباج البلّور و الإبريق و الخوان، استعمل الشعراء و الأدباء هذه الألفاظ في شعرهم:

يقول حسان بن ثابت الأنصاري:

ألا دفنتم رسول الله في سقط من الألوّة و الكافور منضود [٣٦]

و أنشد قيس بن الخطيم:

كأنّ الفلفل و الزنجيل

و ذاكى العبير بجلبابها. [37]

كانت المصنوعات كذلك تنقل من بلد إلى بلد فعرفت المدينة هذه المصنوعات الأعجمية مثل الصفر أي النحاس فصنعوا منه القدور و الأدوات الأخرى

يقول حسان:

حست قدور الصاد حول بيوتنا

قنابل دهَما في المحلّة صُيّما [38]

فكانت العرب حسبما يقول الخطراوي:

"إنة مجتمع التقت فيه ديانات و ثقافات و تضاربت

فيه أهداف وعناصر وغايات" [39]

عرفت العرب المنسوجات القطنية و الحريرية و النمارق الملوّنة و السنّور المرسومة

يقول حسان:

تنادوا بليل، فاستقلّت حُمُوْلهم

و عالين أنماط الدرْقل المرقّما

عسجن بأعناق الظبا و أبرزت

حواشي برود القطر وشياً منمنما [40]

١. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوى ص:١١٢	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٢. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوى ص:١١٣	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٣. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطرلوى ص :١٠٥	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٤.٥.٦. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوى ص: ١٠٥-١٠٧بالترتيب	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٧. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوى ص: ١٠٧	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٨. معجم البلدان	أبو عبد الله ياقوت الحموي ص:٨٥ مادة: المدينة المجلد الخامس	مطبعة السعادة مصر الطبعة الأولى
٩. معجم البلدان	أبو عبد الله ياقوت الحموي ص:٨٣ مادة: المدينة المجلد الخامس	مطبعة السعادة مصر الطبعة الأولى
١٠. معجم البلدان	أبو عبد الله ياقوت الحموي ص:٨٣ مادة المدينة المجلد الخامس	مطبعة السعادة مصر الطبعة الأولى
١١. معجم البلدان و لسان العرب و القرآن الكريم	أبو عبد الله ياقوت الحموي و ابن منظور ص: ٤٣٠. مادة: يثرب الأحزاب آية :١٣ الجزء الحادي و عشرون	مطبعة السعادة مصر الطبعة الأولى
١٢. معجم البلدان	أبو عبد الله ياقوت الحموي ص: ٤٣٠ مادة يثرب المجلد الخامس	مطبعة السعادة مصر، الطبعة الأولى
١٣. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوي ص:١٠	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
١٤. كعب بن مالك الأنصاري الشاعر الأديب	الدكتور محمد على الهاشمي ص: ٢٢	الطبعة الأولي ١٩٨٥م
١٥. المدينة في العصر الجاهلي	د/محمد العيد الخطراوي ص: ١٢	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
١٦. دراسات في النظم العربية و الإسلامية	د/ حسن ابراهيم حسن و على ابراهيم حسن	طبع بمصر الطبعة الأولي
١٧. دراسات في النظم العربية والإسلامية	د/ حسن ابراهيم حسن و على ابراهيم حسن	طبع بمصر الطبعة الأولي

١٨. ديوان الحماسة	لأبى تمام ص: ٦٠ هذا الشعر لشاعر إسلامي نصراني القطامي وكان من بني تغلب ص: ٦٠	المطبعة الرحيمية ديوبند
١٩. الأدب، نصوصه وتأريخه	دكاتير حسن شاذلى فرهو وشكرى عياد وأصحابهما ص: ٢٢	الطبعة الرابعة دار الأصفهاني جده ١٩٨١.
٢٠. التاريخ الإسلامي العام و الأدب، نصوصه وتأريخه	د/على إبراهيم حسن ص: ٤٩٢ و دكاتير حسن شاذلى فرهو وشكرى عياد وأصحابهما ص: ٢٢	دار الأصفهاني وكالة المطبوعات الكويت ١٩٨١ و كالة المطبوعات الكويت ١٩٨١
٢١. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوي ص: ٢٨٤	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٢٢. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	الشيخ أبوالحسن على الحسنى الندوي ص: ٥٣	مطبعة الفيصل قام بطباعته الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.
٢٣. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوى ص: ٢٤٤	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٢٤. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوى ص: ٢٤٧	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٢٥. الأصنام	ابن الكلبي ص: ١٣ نقلا عن المدينة في العصر الجاهلي للخطراوى	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٢٦. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب	محمود شكري الآلوسي نقلا عن المدينة في العصر الجاهلي	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٢٧. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوي ص: ٢٤٨	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٢٨. الجامع الصحيح	للإمام محمد بن إسماعيل البخاري في كتاب المغازي	المكتبة الرحيمية بديوبند الهند
٢٩. كتاب الأصنام	ابن الكلبي نقلا عن الخطراوي ص: ٢٤٨	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٣٠. -٣١. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوى ص: ٢٤٨ و ٢٥٠ بالترتيب	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٣٢. القرآن الكريم		
٣٣. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوى ص: ٢٧٢	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٣٤. فجر الإسلام	الدكتور أحمد أمين ص: ١٢	دار الكتاب العربي بيروت . لبنان الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٥م

٣٥. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الحظراوى ص: ٢٨٥	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٣٦. فجر الإسلام	الدكتور احمد أمين ص: ١٢	دار الكتاب العربي بيروت . لبنان الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٥م
٣٧. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوى ص: ٢١٤.	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٣٨. المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الحظراوى ص: ٢٧٥	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٣٩. ديوان حسان	حسان بن ثابت الأنصاري ص: ٩	طبع ببيروت لبنان
٤٠. الجامع الصحيح	الإمام محمد بن إسماعيل البخاري. كتاب المغازي	المكتبة الرحيمية بديوبند الهند
٤١. .المدينة في العصر الجاهلي	الدكتور محمد العيد الخطراوي ص: ٢١٢	مؤسسة علوم القرآن بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢
٤٢. المقدّمة	عبد الرحمان ابن محمد المعروف بابن خلدون ص: ١٢٥	دار القلم بيروت لبنان الطبعة الرابعة ١٩٨١م

كعب بن مالك و أسرته

نستهلّ هذا الفصل بما كتبه الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن على المقدسى المعروف بابن القيرواني (٥٠٧-٤٤٨) في كتابه "كتاب الجمع بين كتابى أبى نصر الكلابازى وأبى بكر الأصفهاني في رجال البخارى و مسلم"

"كعب بن مالك بن أبى كعب بن عمرو بن القين بن كعب بن سوادة بن غنم ابن كعب بن سلمة السلمى الخزرجى المدني"١

ثم نقارن هذا الاستهلال بأقوال أصحاب المراجع و المصادر المستندة يقول ابن الحجر العسقلانى (المتوفي ٨٥٢) في كتابه " تهذيب التهذيب:"

"كعب بن مالك بن أبى كعب واسمه عمرو بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصارى السلمى"٢

استوعب كعبًا صاحب كتاب الاستيعاب عبد الله ابن البر النمرى (٤٦٣-٣٦٨) كما يلى:

"كعب بن مالك بن أبى كعب واسم أبى كعب عمرو بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعيد بن على بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأنصارى السلمى".٣

إن ابن الحجر العسقلانى قد أضاف إلى سلالة كعب بعض الأسماء في كتابه المعروف "الإصابة في تمييز الصحابة" .و ذلك بعد سلمة و هى:

"سعد بن على ابن أسد بن أسد بن ساردة وذكر أن سلمة بكسر اللام".٤

هذا وقد ذكر سعيد أبو محمد على بن أحمد الأندلسى (٤٥٦-٣٨٣) في كتابه "جمهرة أنساب العرب:"

"الشاعر كعب بن مالك بن أبى كعب واسمه عمرو بن القين بن كعب بن سواد عقبى"٥

أماّ على بن الحسين أبو الفرج الأصفهانى(المتوفي ٣٥٦)فقد ذكر في كتابه الأغانى:

"هو كعب بن مالك بن أبى كعب و اسم أبى كعب عمرو بن القين بن كعب بن سواد، وقيل القين بن سواد (هكذا قال ابن الكلبي) بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن على بن أسد بن شاردة بن يزيد بن جُشم بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث"٦

و قد انفرد أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفارسي الغنوي (المتوفي ٢٧٧)في كتابه " كتاب المعرفة و التأريخ" بأن جعل "غنمًا" ابنا لثعلبة. ٧

و اتفق عزّ الدين على بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير في كتابه "أسد الغابة في معرفة الصحابة" بأن جعل "سلمة" ابن سعد بن على ابنا لعلى ٨ مع صاحب الأغاني و ذكر الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي في "تجريد أسماء الصحابة":

"كعب بن مالك بن أبى كعب عمرو بن القين الخزرجى السلمي عقبى "*

٥ص: ٣٣الجزء الثانى طبعه شرف الدين الكتبى و أولاده بومبابي ١٩٦٩م

KASHMIR UNIVERSITY
Iqbal Library

الدكتور محمد على الهاشمى قد أفرد كتابا لذكر كعب و ترجمته ذكر فيه كناه يغنينا عن الكتب الأخرى إذا بحثنا عن صاحبنا هذا.

"ذكر العلماء الذين ترجموا عن الكعب عددا من الكنى فذهب ابن أبى حاتم في (الجرح والتعديل) و المرزباني (معجم الشعراء) والمقدسي (الاستبصار) و صفي الدين الخزرجى الأنصاري (خلاصة تهذيب تهذيب الكمال) إلى أن كنيته أبو عبد الله. و ذهب ابن عبد البر (الاستيعاب) وابن الأثير (أسد الغابة) و السخاوي (التحفة اللطيفة في تأريخ المدينة الشريفة) و السيوطى (شرح شواهد المغنى) و الصفدي (نكت الهيمان) والبغدادي (خزانة الأرب) إلى أن له كنيتين، أبو عبد الله، و قيل أبو عبد الرحمان وذكر النووي (تهذيب الأسماء واللغات) والحافظ المزى (تحفة الأشراف) و ابن الحجر العسقلانى (تهذيب التهذيب) لكعب أربع كنى، إذ قالوا: هو أبو عبد الله، و يقال: أبو عبد الرحمان: و يقال : أبو محمد، و يقال: أبو بشير، وأضاف ابن حجر في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة كانت كنية كعب بن مالك في الجاهلية أبا بشير، فكناه النبي أبا عبد الله." ٩

كان اسم أمه ليلى بنت زيد بن ثعلبة بن سلمة وفق صاحب "أسد الغابة. ١٠

فاتفق على اسم أمه ليلى بصاحب الاستيعاب.١١ إلا أنه ذكر أنها كانت بنت يزيد بن ثعلبة بن سلمة. ذكر كنيته ابن الحجر العسقلانى ١٢ أبا عبد الله و أبا عبد الرحمان وافقه عليهما ابن القيروانى١٣ و أضاف إليهما في "التهذيب "أبا محمد و أبا بشير و أما يحيى بن شرف في كتابه تهذيب الأسماء والكنى فذكر هذه الأربعة[١٤]

الحق أن تعدد الكنى كان معروفا بين الناس في الزمن القديم وخاصة إذا كان للرجل أكثر من زوج، لكل زوج أولاد و يكنى الأب بالإبن الأكبر و كنى كعب بأولاده الأربعة الذين وردت أساءهم في كتب تراجم الرجال.

يتفق يحي بن شرف[١٥] و ابن الحجر العسقلانى [١٦] على أن أولاده هم: عبيد الله و عبد الرحمان و محمد و عبد الله إلا أن ابن الحجر العسقلانى [١٧] قد أضاف إليهم معبدا، فيصبح عدد أولاده خمسا حسب قوله.

كان لكعب أصل عريق كما كان له فرع طويل، نتحدث عن أصله العريق بعد سطور نود هنا أن نذكر أن ابنه عبد الرحمان كان شاعرا و الزبير بن خارجة بن عبد الله كان من الشعراء يفيدنا صاحب الأغاني:

> "ابنه عبد الرحمان كان شاعرا وابن ابنه بشير بن عبد الرحمان شاعر و الزبير بن خارجة بن عبد الله بن مالك شاعر ومعن بن عمرو بن عبد الله بن كعب شاعر وعبد الرحمان بن عبد الله بن كعب شاعر أبو الخطاب شاعر ومعن بن وهب بن كعب شاعر و كلهم مجيد مقدم١٨ "

يخبرنا التأريخ و أصحاب السير بأن كعب بن مالك قد ولد في بيئة الشعراء المجيدين البارزين كان أبوه مالك بن أبى كعب بن القين شاعرا، كان من هؤلاء الشعراء الذين تناولوا خلافات الأوس و الخزرج في الأيام الجاهلية ذكر أبو الفرج الأصفهاني [١٩] في كتابه الأغاني أن اسم مالك كان بارزا في الجاهلية وأن له قصيدة مطلعها "قيل الإسلام آثار و ذكر."

وقيس بن أبى كعب أخو مالك و عم كعب كان شاعرا روى صاحب الأغاني آثاره و أشعاره في باب خاص[٢٠] و شهد بدرا.

ورث كعب من أبيه و عمه ورثة الشعر الرقيق فترسمت آثاره في ذهنه وقلبه من حداثة سنه و نعومة أظفاره، فكون عقله و ذهنه للشعر و تمكناه.

١. كتاب الجمع بين كتابي أبي نصر الكلاباذي و أبي بكر الأصفهاني في رجال البخاري ومسلم المجلد الثاني.	أبو الفضل محمد بن طاهر بن على المقدسي المعروف بابن القيرواني ص: ٤٢٩	مطبعة دائرة المعارف العثمانية الهند عام ١٣٢٣هـ
٢. تهذيب التهذيب	شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على ابن حجر العسقلاني ص: ٤٤٠-٤٤١	نشره دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة عام ١٩٩٢م الطبعة الأولى.
٣. الاستيعاب	الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن البر النمري، علي حاشية الإصابة ص: ٢٨٦-٢٨٧.	مطبعة السعادة مصر
٤.الإصابة في تمييز الصحابة	شهاب الدين أبو الفضل احمد بن على ابن حجر العسقلاني ص: ٣٠٢	مطبعة السعادة مصر.
٥.جمهرة أنساب العرب	أبو محمد على ابن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي تحقيق و تعليق عبد السلام محمد هارون ص: ٣٢٠	دار المعارف القاهرة
٦.الأغاني	على بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني الجزء السادس عشر ص: ٢٢٦	طبع بمطبعة دار إحياء التراث الإسلامي بيروت لبنان
٧.كتاب المعرفة والتاريخ الجزء الأول حققه و علق عليه د/ اكرم ضياء العمري	أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفارسي الفنوي ص: ٣١٨	الطبعة الأولى١٤١٠ هـ نشره مكتبة الدار بالمدنية المنورة
٨.أسد الغابة في معرفة الصحابة. المجلد الرابع	عز الدين على بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير ص: ٢٤٧.	دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.
٩. كعب بن مالك الأنصاري الصحابي الأديب الشاعر	الدكتور محمد على الهاشمي ص: ٥٢-٥٣.	الطبعة الأولى ١٩٨٥م
١٠. أسد الغابة في معرفة الصحابة	عز الدين على بن محمد الجزري الجزء الرابع ص: ٢٤٧	دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان.
١١. الاستيعاب	الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن البر ص: ٢٨٦ على حاشية الإصابة.	مطبعة السعادة مصر ١٣٢٨هـ
١٢. الإصابة في تمييز الصحابة	شهاب الدين أبوا لفضل احمد بن على ابن حجر العسقلاني ص: ٣٠٢	مطبعة السعادة مصر ١٣٢٨هـ

١٣. كتاب الجمع بين كتابى أبى نصر الكلاباذى و أبى بكر الأصبهانى في رجال البخارى ومسلم	أبو الفضل محمد بن طاهر بن على المقدسي المعروف بابن القيرواني– ص: ٤٢٩،	مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن الهند ١٣٢٣هـ الطبعة الأولى
١٤. تهذيب التهذيب، وتهذيب الأسماء والكنى	احمد بن على ابن حجر العسقلاني، ويحيى بن شرف ص:٤٤٠ و ص:٥٢٣ بالترتيب.	نشره دار الكتاب الإسلامي القاهره الطبعة الأولى ١٩٩٢م
١٥. تهذيب الأسماء والكنى	محى الدين يحيى بن شرف ص:٥٣٢	نشره دار الكتاب الإسلامي القاهره الطبعة الأولى ١٩٩٢م
١٦. تهذيب التهذيب الجزء الثامن	أحمد بن على ابن حجر العسقلاني ص: ٤٤٠	نشره دار الكتاب الإسلامي القاهره الطبعة الأولى ١٩٩٢م
١٧. الإصابة في تمييز الصحابة	أحمد بن على ابن حجر العسقلاني ص: ٣٠٢	مطبعة السعادة مصر ١٣٢٨هـ
١٨. الأغاني	على بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني السادس عشر ص: ٢٢٦	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت لبنان
١٩. الأغاني	على بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني السادس عشر ص: ٢٢٦	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت لبنان
٢٠. الأغاني	نفس المؤلف الجزء السادس عشر ص: ٢٢٦	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت لبنان

مولده و نشأته

اختلف أصحاب التراجم و المؤرخون في سن ولادة هذا الصحابى الجليل، فلا نكاد نتفق على سنة ولادته بالضبط كذلك خلاف بينهم في تأريخ وفاته رضى الله عنه. يقول الدكتور عمر فروخ في كتابه المعروف "تأريخ الأدب العربى":

"ولد كعب بن مالك في يثرب عام ٤٥ قبل الهجرة المصادف ٥٩٤ الميلادى وكان في نحو الخامسة والعشرين من عمره لما شهد بيعة العقبة مع قدمه في الإسلام"[١]

و يقول عن وفاته ﷺ :-

"عمى كعب بن مالك في آخر عمره ثم توفي بين سنة ٥٠ وسنة ٥٥ المصادف (٦٧٠ -٦٧٣م) وسنه في نحو السابعة والسبعين"[٢]

أما الدكتور محمد على الهاشمى صاحب كتاب "كعب بن مالك الأنصاري" فيقول:

"وفاته كانت على أرجح الأقوال خمسين من الهجرة وعمر حتى بلغ سبعا وسبعين سنة على أرجح الأقوال أيضا: يبين لنا أن سنة مولده كانت حوالي سبع وعشرين قبل الهجرة على وجه التقريب وفي مدينة يثرب"[٣]

نقل ابن القيرواني صاحب كتاب" كتاب الجمع بين كتابي نصر الكلابازي و أبى بكر الأصفهاني في رجال البخاري ومسلم" قول الواقدي على النحو التالي:

"قال الواقدى مات سنة خمسين وهو ابن سبع وستين سنة"[٤]

يتفق صاحب المنجد[٥] على سن وفاته بقول الواقدى إلا أنه ذكر سنة الميلاد كذلك وهو ٦٦٠م، فوفق قول الواقدى كانت ولادته عام ١٦ قبل الهجرة، لسنا هنا بصدد ذكر وفاته وما ورد من خلاف فيها بين المؤرخين فسنذكرها في ختام المقال.

اتّفق المؤرّخون على أنه ولد بيثرب و في المذاد و هى من بنى حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة فاضطربت الأقوال عن سلمة و هو بكسر اللام عند الجوهرى يقول:

"ليس في العرب سلمة بكسر اللام سواهم ، والنسبة إليهم سلمى بفتح اللام هكذا ينسب النحويّون بفتح اللام و المحدّثون يكسرونها." ٦

يقول الدكتور محمد على الهاشمي:

"بيد أن ما جزم به الجوهرى في صحاحه، ونقله عنه القلقشندي في كتابه "نهاية الأرب" من أن ليس في العرب سلمة بكسر اللام سوى هذا البطن من الخزرج فيه نظر"[٧]

لأنّ أبا جعفر محمد بن أبى حبيب البغدادي ذكر في كتابه "مختلف القبائل و مؤتلفها"[٨] و كذلك الحسين بن الحسين الوزير المغربى في كتابه" الإيناس في علم الأنساب"[٩] أن سلمة بكسر اللام توجد في ثلاثة بطون من القبائل العربية المختلفة وهى: الأنصار و جعفيّ و جهينة و ذلك في النص الآتى:

سلمة في الأنصار: سلمة بن سعد بن على بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج ومنه كعب من مالك رضى الله عنه

سلمة في جعفي : سلمة بن عمرو بن عمر بن ذ هل بن مرّان بن جعفي.

سلمة في جهينة: سلمة بن نصر بن غطفان بن قيس بن جهينة.

وكل هذه السلمات هى بكسراللام، وقد ردّ صاحب القاموس قول الجوهرى و نسب إليه الخطأ في قوله ليس هناك سلمة بكسر اللام سواهم" فقال:

" و أخطأ الجوهري في قوله، وليس سلمة في العرب غير بطن الأنصار"[10]

كان هذا البطن من بنى سلمة لكعب بن مالك يسكن بين مقبرة إلى المذاد، يقول السمهودي في كتابه "وفاء الوفاء":

"المذاد بالفتح ثم ذال معجمة وآخره مهملة من ذاده، إذا طرده اسم أطم لبنى حرام من بنى سلمة غربى مسجد الفتح به سمّيت الناحية، و عنده مزرعة تسمى بالمذاد."[11]

هذا، و قد ساق المصنّف نفسه شعراً لكعب بن مالك رضي الله عنه قاله يوم الخندق و هو:

من سرّه ضرب يرعبل بعضه
بعضاً كمعمعة الأباء المحرق
فليأت مأسدة نسل سيوفها
بين المذاد وبين جزع الخندق[12]

أمّا ياقوت الحموي صاحب "معجم البلدان" في باب "ميم" فيقول عن المذاد،

"المذاد: بالفتح و آخره دال مهملة وهو إسم مكان من ذاده يذوده إذا طرده. قال ابن الأعرابى: المذاد

والمزاد المرتفع موضع بالمدينة حيث حفـــر الخنـــدق النبى ﷺ . قال كعب بن مالك:

"فليأت مأسدة تسل سيوفها بين المذاد و بين جزع الخندق

وقيل: المذاد واد بين سلع و خندق المدينة"[١٣]

كانت للخزرج عشر قبائل في الجاهلية تسكن في مختلف الأماكن في يثرب و لكن بنى حرام كان يتولّى عليهم جميعاً وفق ما يقول لنا الخطراوى في كتابه "المدينة في العصر الجاهلى."[١٤]

نشأ و ترعرع مترجمنا هذا بين أطم بنى حرام و بين مقبرة بني سلمة و المذاد بالضبط و التأكيد و لا نشك أن هذه المقبرة التي كانت تقبر كثيرا من الرجال و النساء و الصبيان في جوفها قد اعتبر بها شاعرنا هذا و صحابى رسولنا الكريم، فترتبت صورها مع عبرها و دروسها في ذهنه وفكره، و أن هذا المذاد له حظ وافر و يد طولى في نود الكفر و النفاق و الفواحش و الجهالة عن بيئته و من نشأ فيه، و كان ذا مزرعة خصبة و هواء لطيف عليل يهب على أجواءه و يمر بأزهاره فيعطر العقل ويشف الفهم، و كان لتلك المزرعة تأيثر قوى في تمهيد وجدان شاعرنا و شعوره و أحاسيسه اللطيفة إلى صراط سوى قويم، لما في المزرعة من حقول خضراء و طبيعة غير مصنوعة.

نجد هنالك جانبين لتكوين حياته: جانب الأسرة والسلالة التي انحدر منها، فكانت تميل إلى الشعر من القدم و كان شعراءها كل منهم مجيد مقدم حسب قول أبى الفرج الأصفهاني.[١٥] و قد امتاز العرب جميعا بقوة حفظهم و بميلهم إلى الشعر. و جانب آخر الأرض الخصبة التي رزق بها إذ من دواعي الشعر المنظر البهى البهيج. ذكر أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (م سنة ٢٧٦هـ) في كتابه "الشعر والشعراء":

"قيل لكثير: كيف تصنع يا أبا صخر إذا عسر عليك الشعر؟ قال: أطوف الرباع المحيلة و الرياض المعشبة فيسهل على أريضه ويسرع إلى أحسنه"[١٦]

وما من أسباب الرياض المعشبة إلا الماء الجارى الذى يرويه، يقول ابن قتيبة نفسه:

"ويقال ما استدعى شارد الشعر بمثل الماء الجاري"[١٧]

فالحقول والمزارع بالمذاد حيث ولد مترجمنا قد مهدت نفسه وأمالتها إلى قرض الشعر و دعته هذه الطبيعة الفطرية إلى إقباله على الدين الحنيف الفطري.

والحق أن كعبا قد استفاد من الجانبين حق الإستفادة بذكاءه المفرط حتى وصل إلى ما وصل إليه، وعد من فحول الشعراء ومن الأصحاب الذين أصبحوا محك الإيمان للآخرين، فرضى الله عنه ورضي عنه.

و الآن نلفت نظرنا إلى تلك البيئة التي ولد فيها و حضنته في حضانتها و ربته تربية أصبح بها بعد مينارا لنا.

إن البيئة التي ولد فيها مترجمنا كانت أصبحت "مهد الحضارة والثقافة والحكم والسياسة ومسرح الفوضى والانحلال والاختلاف وسوء النظام وعنف الحكام" وفق تعبير السيد أبى الحسن علي الحسنى الندوى صاحب كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"[١٨] "و كان ظلام الأمية مخيما على العرب في تلك الفترة من حياة المدينة، فالأوس والخزرج كانوا في حياتهم و طراز عيشهم أقرب إلى البداوة، وإن اتخذوا الآطام سكنا لهم، من ثم كان عدد الذين يقرأون و يكتبون في الجاهلية قليلا منهم سويد بن الصامت الأوسى، و الزبرقان بن بدر، و كعب بن زهير، و كعب بن مالك" وفق قول الدكتور محمد على الهاشمى في كتابه كعب بن مالك الأنصارى[١٩].

و كانت للحياة السياسية ثلاثة مظاهر مهمة يقول عمر فروخ في كتابه تأريخ

الأدب العربى" تلخيصه:

"الحكومة القبلية، كان يكون شيخا للقبيلة كبير السن، وقد يكون صغير السن، إذا اجتمعت فيه الحكمة والغنى والعدل والوجاهة، كان يحكم بالشورى. وكان الحكم في المدن التجارية في يد حفنة قوية من أهل المدينة من التجارة والوجهاء يحكمون على هواهم و يقسمون الغنائم على مقدار ما كان لكل واحد منهم من النفوذ المادى والمعنوى"[٢٠]

أما من الناحية الدينية فقد كان البدوى يؤمن بالله ولكنة قليل الاحتفال بالعبادات كما ذكرت عن امرئ القيس ما فعل بصنمه و من جانب كان هناك أفراد متحنفون ذووا أخلاق كريمة و أعمال خاصة حرموا على أنفسهم الخمر و هجروا الأوثان، و الحنيف يصفه القرآن في اثنتى عشرة آية يقول الدكتور عمر فروخ،

"إن الحنيف هوالرجل الذى كان على ملة إبراهيم، بأنه ليس يهوديا ولا نصرانيا ولا مشركا بالله ولكنه على "فطرة الله التي فطر الناس عليها" وقد قام البر في الجاهلى والبدو والحضر مقام الدين والرابطة الاجتماعية والأخلاق الشخصية"[٢١]

أنشد العرب هذا البر في شعرهم وجعلوه معيارا للأخلاق الفاضلة

فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللبر عين لا تغمض ناظره[٢٢]

كان أهل المدينة أصحاب زراعة و صناعة و عملهما كان محبوبا لديهم أما أهل مكة فقد كانوا يستكرهونها استكراها شديدا، يقول الأستاذ محمد الرابع الندوى في كتابه "مختار الشعر العربى":

"والذي يقوم بهذا العمل إنما يهجئ ولا يتمتع باحترام ما والأخطل لما أراد أن يهجو الأنصار من أهل المدينة قال لهم خذوامساحيكم" وقوله مساحيكم يدل على أنهم مزارعون"[٢٣]

كذلك عير جرير الفرزدق على أن أجداده بنى القين بقوله:

بيتا يحمم فينكم بفنائه دنسا مقاعده خبيث المدخل[٢٤]

العرب كانوا منقسمين إلى قسمين بدو و حضر، فالبدو كانوا ينتقلون من مكان إلى مكان طلبا للماء و المرعى، و أسباب المعيشة هى الغزو، أما الحضر فكانوا يعيشون على الزراعة في الأقل و على التجارة في الأكثر يقول عمر فروخ:

"وكانت متاجرهم من فارس والحبشة واليمن إلى الشام والعراق وأشهر مدنهم التجارية كانت أم القرى (مكة) و الطائف ويثرب ومدين"[٢٥]

حياة المرأة كانت أخس ما تكون لم تكن لها أى قيمة في المجتمع، أما طرق الزواج فكانت مختلفة ذكر عمر فروخ بعضها وهى:

"زواج المهر، زواج السبى، زواج الاسترقاق (بالشراء) زواج المتعة (الزواج الموافت) زواج المقت (كان الرجل إذا مات ورث أولاده نساءه) زواج الإستبضاع (ذلك أن يعجب رجل بفارس أوبطل أوشريف فيسمح لأحد نساءه أن تستبضع بها)"[٢٦]

كانت القبيلة هى أساس الحياة الإجتماعية، والقبيلة أسرة كبيرة يربط بعض أفرادها ببعض بسبب من القرابة أو الزواج نفسه. و لم يكن الغزل في الجاهلية إلا في المتزوجات يدل على ذلك شعر امرى القيس الجاهلى:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعا   فألهيتها عن ذى تمام محول[٢٧]

وقول الأعشى الجاهلى:

وقد أخالس رب البيت غفلته[٢٨]

يقول عمر فروخ:

"حتى أنهم حرموا على الفتى أن يتزوج فتاة تغزل بها فشهرها"[٢٩]

كان الشعر و الأدب تمثيلا لحياتهم و تعبيرا عن أذواقهم و بيئاتهم و ظروفهم، لم يكن لهم منهج آخر لإظهار أحاسيسهم و مشاعرهم فتجمعت قواهم الفكرية وتركزت على الشعر فحسب. يقول الخطراوى:

"إن البحث عن الحياة الأدبية في المدينة المنورة خلال العصر الجاهلى وذلك إنما يشمل الأوس والخزرج في المكان الأول"[٣٠]

كل هذه الظروف و الأوضاع سياسية كانت أو دينية و اقتصادية حربية كانت أو سلمية كونت شخصية كعب بن مالك. و عملت فيه عملها فتمخضته تمخضا، و ارتسمت ارتسامات مختلفة متنوعة متضادة و معاكسة على عقله الصافى و قلبه الخفاق الدقاق، و كونت من نفسه بركانا يريد الانفجار فما لبث أن انفجر انفجارا قويا تأثرت به بيئته ، أو كانت العوامل المختلفة و الأسباب المنوعة قد اتفقت على خلق مثل هذه الشخصية الفذة و رافقتها الفطرة و الطبيعة و صحبتها، كم كانت تكون الأفكار تختلج عقله و تخطر بباله، أظن أنها أحمشت حروبا شعواء فى ذهنه فعزم على مواجهتها حينا و حلها حلا حتميا حينا آخر، كان فى مثل هذه الليلة الحالكة المظلمة يبيت، فطالت ليلته و لكن لم ينم،

لم يطل ليلى ولكن لم أنم   ونفى عنى الكرى طيف ألم

كان قد شاهد بعض النجوم على السماء الزرقاء و لكنها لم تتمكن من تنوير و كانت وشك الغور فلم يقر له قرار، و جعل يتململ كتململ السليم اللديغ يقلب

مضاجعه حينا و يقف كحيران أحيانا يمسح عينيه و يشكو بسهره كأن الزفرات كانت تتصعد من بين جوانحه و الآهات كانت تزلزل نفسه.

كادت الليلة المظلمة تنتهى و جعلت تباشير الصباح تبرز، و كان قد سمع ممن سمع منه فى بيئته أنها على وشك الانتهاء و أن الشمس الساطعة سوف تشرق و تتجلى و تنور العالم و تقضى على ذلك الظلام المهلك، فكان فى انتظار و ارتقاب - و ما ألذ ساعات الانتظار - حتى أشرقت و طلعت من مكة المكرمة. قال سجانه و تعالى فى سورة الأحزاب:

يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا

ونذيرا، و داعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ٣١

استقبلت شخصية كعب بن مالك هذه الشمس اللامعة البراقة بالابتسامات ،و تفتح وجهه و بثتت الشمس أشعتها على سيمياه فاهتدى هديا لم يكن يعرفه من قبل و اطمئن بعد اليأس و القنوط. و وجد جوابا مقنعا لتلك الأسئلة التى كانت تدور فى عقله. و هدأ قلبه و لبه. و جرت سفينته إلى الساحل بعدما كادت أن تتلاشى فى تلاطم الأمواج الهائلة المخيفة.

كان كعب من قبل طالبا حيران، فأصبح بعد مطلوبا و طالبا معا و صاحب اطمئنان، نزلت فى شأنه آيات، و سنلاحظ فى السطور الآتية ذكاءه المفرط و شخصيته الفذة و ارتسامات شمس النبوة على حياته الانفرادية و الاجتماعية.

١. تاريخ الأدب العربي الجزء الأول	د/عمر فروخ ص: ٣٢٣	دار العلم للملايين الطبعة الخامسة ١٩٨٤
٢. تاريخ الأدب العربي الجزء الأول	د/عمر فروخ ص: ٣٢٤	دار العلم للملايين الطبعة الخامسة ١٩٨٤
٣. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الشاعر الأديب	د/محمد الهاشمى ص: ٥٦	الطبعة الأولي عام ١٩٨٥م لم تذكر المطبعة
٤. كتاب الجمع بين كتابى أبى نصر الكلاباذى وأبى بكر الأصبهانى في رجال البخارى و مسلم	الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر على المقدمى المعروف بابن القيروانى ص: ٤٢٩	الطبعة الأولى مطبعة دائرة المعارف العثمانية الهند ١٣٢٣هـ
٥. المنجد	الأستاذ كرم البستانى ص: ٥٩	الطبعة الخامسة والثلاثون
٦. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر	د/محمد على الهاشمى ص: ٢٦٠	الطبعة الأولي عام ١٩٨٥م
٧. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر	د/محمد على الهاشمى ص: ٢٦٠	الطبعة الأولي عام ١٩٨٥م
٨. مختلف القبائل و مؤتلفها	أبو جعفر محمد بن أبى حبيب البغدادى نقلا عن الدكتور الهاشمي ص: ٢٦٠	الطبعة الأولي عام ١٩٨٥م
٩. الإيناس في علم الأنساب	الحسين بن الحسين الوزير المغربى نقلا عن الدكتور الهاشمي ص: ٢٦٢	الطبعة الأولي عام ١٩٨٥م
١٠. القاموس	للفيروز ابادي الجزء الثاني ص: ٦٠٢	مطبع دار عالم الكتب الرياض الطبعة الرابعة ١٩٩٦م
١١. وفاء الوفاء بأخبار المصطفي الجزء الثالث	نور الدين على بن أحمد السمهودى ص: ١٣٠١	طبع بمطبعة السعادة مصر ١٩٠٦م
١٢. وفاء الوفاء بأخبار المصطفي الجزء الثالث	نور الدين على بن أحمد السمهودى ص: ١٣٠٢	طبع بمطبعة السعادة مصر ١٩٠٦م
١٣. معجم البلدان	أبوعبدالله ياقوت الحموى باب: ميم	طبع بمطبعة السعادة مصر ١٩٠٦م
١٤. المدينة في العصر الجاهلى	د/محمد العيد الخطراوى ص: ٦١-٦٢	مؤسسة علوم القرآن بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٢م
١٥. الأغاني الجزء السادس عشر	على بن الحسين أبوالفرج الأصبهاني ص: ٢٢٨	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت - لبنان
١٦. الشعر و الشعراء	أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ص: ١٧	المكتبة التجارية الكبرى مصر سنة ١٩٣٢م
١٧. الشعر و الشعراء	أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ص: ١٧	المكتبة التجارية الكبرى مصر سنة ١٩٣٢م

١٨. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	العلاّمة أبو الحسن على الحسن الندوى ص ٣٧	مطبعة الفيصل قام بطباعته الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية
١٩. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر	د/محمد على الهاشمى ص: ٢٦٠	الطبعة الأولى عام ١٩٨٥م
٢٠. تاريخ الأدب العربي الجزء الأول	د/عمر فروخ ص: ٦٦	دار العلم للملايين الطبعة الخامسة ١٩٨٤
٢١. تاريخ الأدب العربي الجزء الأول	الدكتور عمر فروخ ص: ٦٢	دار العلم للملايين الطبعة الخامسة ١٩٨٣
٢٢. تاريخ الأدب العربي الجزء الأول	الدكتور عمر فروخ ص: ٦٤	دار العلم للملايين الطبعة الخامسة ١٩٨٣
٢٣. مختار الشعر العربي الجزء الثانى	الأستاذ محمد الرابع الندوى ص:	كلية اللغة العربية دار العلوم ندوة العلماء
٢٤. مختار الشعر العربي الجزء الثانى	الأستاذ محمد الرابع الندوى ص: ١٣٧	كلية اللغة العربية دار العلوم ندوة العلماء
٢٥. تاريخ الأدب العربي الجزء الأول	د/عمر فروخ ص: ٦٥	دار العلم للملايين الطبعة الخامسة ١٩٨٤
٢٦. تاريخ الأدب العربي الجزء الأول	د/عمر فروخ ص: ٦٠	دار العلم للملايين الطبعة الخامسة ١٩٨٤
٢٧. شرح المعلقات السبع	معلقة امرئ القيس ص: ١١ شرحها القاضى أبو عبد الله الحسين بن احمد بن الحسين الزوزنى	دار الكتب العلمية بيروت لبنان
٢٨. تاريخ الأدب العربي الجزء الأول	د/عمر فروخ ص: ٦١	دار العلم للملايين الطبعة الخامسة ١٩٨٣
٢٩. تاريخ الأدب العربى الجزء الأول	د/عمر فروخ ص: ٦١	دار العلم للملايين الطبعة الخامسة ١٩٨٤
٣٠. المدينة فى العصر الجاهلى	الدكتور محمد العيد الخطراوى ص: ٦٢	مؤسسة علوم القرآن بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٢م
٣١. القرآن الكريم	الأحزاب الجزء: ٢٢ ،الآية: ٤٥-٤٦	

إسلام كعب بن مالك رضي الله عنه

قامت الدعوة الإسلامية في أول أمرها في مكة المكرمة، لكونها مهدا لها و مركزا. و لأن النبي ﷺ ولد فيها، لم يكن النبي ﷺ يصدع بها و لم يكن يدعو إليها الجميع، بل و كان يدعو إليها من هو أقرب إليه قلبا و دما، و كان ذلك كله من توجيهات الخالق وعليم سيكولوجية الإنسان، وأنذر عشيرتك الأقربين١. فلما تمكنت في عشيرته ومن يأنس به ورصت جذورها فيهم وجد عونا، أمر بصدعها والإعراض عن المشركين و تحمل أذاهم بقول الله تعالى. فأصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين"٢

صعد النبي ﷺ بهذه الدعوة على الصفا و نادى في الناس "بـ واصباحاه"! "واصباحاه"! فاجتمع الناس و دعاهم إليها. فزعم الرؤساء و سراة قريش "الصادق" و "الأمين" عدوا لهم لتسفيهه آلهتهم، وبدءوا يخافون من دعوته لكونها داحضة لأباطيلهم و محطمة لأ وثانهم المصنوعة بأيديهم و مكسدة لسوقهم، وخشوا ان لا يؤيده أحد، فجعلوا يحذرون الناس من التكلم به،

كانت مكة المكرمة مركزا لجميع العرب و ملقى تسيارهم لمكانة الكعبة العليا فيهم بالاتفاق و كانوا يحجونها ويعتمرونها في كل سنة فقامت قيامتهم و أقضت نومهم. لأن الدعوة قد صارت حديث المحافل و المجالس لرؤساء قريش، فبدءوا يأتمرون ضدها لاستيصالها و اجتثاثها من جذورها، لأنهم قد خافوا اعتناق أهل المدينة الإسلام بالكلام العذب لصاحبها إذا قدموا إليها في أيام الحج. فاستشاروا لمنع أهل المدينة من الوصول إليه، فامتنعوا عنه- اللهم إلا البعض منهم - فجعل الرسول ﷺ يعرض نفسه عليهم في مجالسهم و محافلهم ليدعوهم إلى الله وحده،

فلقي من لقيه، فاعتنق الإسلام من اعتنق، فلم يرجعوا إلى المدينة إلا حاملين تلك الدعوة و أخذت أشعتها تنبثق انبثاقا بين أهل المدينة بفضل جهود مصعب بن عمير رضي الله عنه والذين معه. كانت هذه أول بذور بذرها دعاة الإسلام في المدينة المنورة، حتى حان موسم الحج الآخر فقد وفد الناس إلى مكة "حجيجا و في أذهانهم تجسس و تنبه، فأخبار هذه المرة لم تصل إلينا إلا من قبل مترجمنا كعب بن مالك رضي الله عنه الذى ساق حديثا طويلا عن هذه الرحلة لأهل المدينة إلى مكة. رواه البخارى و كتب السير و التأريخ بالبسط و التفصيل و قد صور كعب تلك الصورة في قالب الألفاظ في أسلوبه الرقيق، و لولم يكن كعب لم يصل إلينا هذا الخبر و ذلك المنظر البهيج الأنيق لهؤلاء الشائقين إلى الإسلام الذين نهضوا في الليل الحالك إلى استماع إلى صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم و تسللهم كتسلل القطا. يقول صاحب "تهذيب سيرة ابن هشام"

"ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله -صلى الله عليه و سلم- العقبة من أوسط أيام التشريق حتى أراد الله بهم ما أراد من كرامة و النصر لنبيه و إعزاز الإسلام و أهله، و إذلال الشرك و أهله"٣

ثم ساق صاحب التهذيب حديث كعب الذى نحن بصدده وإبراز جوانبه الأدبية المهمة وسوقه أخبار العقبة الأولى، فلابد لنا أن لايفلت منا كلمة استعملها فى تصوير ذلك المشهد الجميل يقول كعب — رضي الله عنه

"خرجنا مع حجاج قومنا من المشركين، و قد صلينا و فقهنا و معنا البراء بن معرور، سيدنا و كبيرنا، فلما وجهنا لسفرنا و خرجنا من المدينة قال البراء لنا: يا هؤلاء أنى قد رأيت ألا أدع هذه البنية منى بظهر - يعنى الكعبة - و أن أصلى إليها، فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا يصلى إلا إلى الشام — أى بيت المقدس — و ما نريد أن نخالفه. فقال: إنى لمصل إليها. فقلنا له: لكنا لا نفعل. فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام، و صلى إلى الكعبة حتى قدمنا مكة، و قد كنا عبنا عليه ما صنع، و أبى إلا الإقامة على ذلك"٤

هذا المشهد الأول له ملامحه و منه يبرز لنا أن كعبا قد أسلم بالمدينة بدعوة، الدعاة و إنه قد انتهَز الفرصة فى العقبة و فى موسم الحج لزيارة الرسول-ص- و أنه كان يصلى مع البراء، و أنه كان يصلى إلى بيت المقدس، و أنه عاب على الداعى ما صنع يقول الأستاذ الكبير سعيد الرحمان الندوى ريئس التحرير لمجلة البعث الإسلامى فى عددها الرابع:

"أكرمه الله بالإسلام قبل أن يشهد العقبة وهو فى يثرب وطنه فكان يفقه الدين، و يصلى سرا عن قومه، و لكنه انتهز فرصة خروج قومه من المشركين فى الموسم لكى يبايع رسول الله-ص- على حمايته و منعه مما يمنع من عائلته و ذلك فى شهر ذى الحجة قبل هجرة النبى - صلى الله عليه وسلم"٥

و المشهد الثانى هو قدومه إلى مكة المكرمة مع سيده البراء بن معرور يقول كعب:

فلما قدمنا مكة قال لى: يا ابن أخى انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتىٰ نسأله عما صنعت فى سفرى هذا، فإنه و الله لقد وقع في نفسي منه شئ لما رأيت من خلافكم إياى فيه، فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ و كنا لا نعرفه، و لم نره من قبل ذلك فلقينا رجلا من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا، قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قلنا: نعم - و قد كنا نعرف العباس كان لا يزال يقدم علينا تاجرا قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس، فدخلنا المسجد، فإذا العباس جالس و رسول الله جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه فقال للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا العباس؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فو الله ما أنسى قول رسول الله ﷺ الشاعر قلت: نعم، فقال البراء بن معرور: يا نبى الله! إنى خرجت في سفرى هذا، وقد هدانى الله للإسلام. فرأيت ألا أجعل هذه البنية منى بظهر، فصليت إليها، و قد خالفنى أصحابى في ذلك، حتى وقع في نفسى من ذلك شيئ، فماذا ترى يا رسول الله، فقال: قد كنت على قبلة

لو صبرت عليها، فرجع البراء إلى قبلة رسول الله و صلى معنا إلى الشام"[٦]

هذا المشهد القصصي السهل السلس الرقيق يفيدنا بأن كعبا لم يكن يعرف النبي ﷺ من قبل إلا أنه قد كان يعرف العباس لسفره إلى المدينة لأغراض التجارة. وأن كعبا وصاحبه لقى الرسول أول مرة قبل العقبة و لاستفسار سؤال، و أن النبي ﷺ كان يعرف كعبا "الشاعر" وأن كعبا تكلم به أول ما تكلم بكلمة "نعم" كلمة إثبات، وخامسا: رأي كعب كان صوابا.

استمر كعب يحدث عما وقع بينه وبين أصحابه من أهل المدينة و ذلك في

المشهد الثالث مع النبي ﷺ

"ثم خرجنا إلى الحج، و واعدنا رسول الله -ص- العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم من قومنا من المشركين أمرنا. فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر! إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، و إنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا، ثم دعوناه إلى الإسلام و أخبرناه بميعاد الرسول ﷺ إيانا العقبة فأسلم و شهد معنا العقبة وكان نقيبا.

فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ

نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشـــعب
عند العقبة*، و نحن ثلاثة و سـبعون رجـلا و معنـا
امرأتان من نساءنا نسيبة بنت كعـب و أسـماء بنـت
عمرو بن عدى"٧

هذا المنظر يفيدنا كيف كان المسلمون الأوائل يتحفظون و يكتمون إسلامهم من المشركين مدنيين كانوا أو مكيين إلا من وجدوا فيهم السماحة و رحابة الصدر لقبول الحق و الإذعان له، فيدعونه إلى الإسلام و ينذرونهم النار التى تطلع على الأفئدة، و أنه قد أسلم على يده و أيدى أصحابه سيد من ساداتهم الا و هو عبد الله بن عمرو ، و أن الحق كان أقض عليهم مضاجعهم، فيستيقظون بعد ثلث الليل فيزورون النبى ﷺ كى لا يطلع عليهم أحد فيتسللون كتسلل القطا.

بعد هذا المشهد الذى يثير العجب، لنا شريط آخر مخرجه، و مديره هو كعب نفسه يقول:

"فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله،حتى جاءنا ومعه
عمه العباس بن عبد المطلب و هو يومئذ علـى ديـن
قومه،إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه و يتوثق له،
فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبـد المطلـب،
فقال: يا معشر الخزرج، و كانت العرب تسـمى هـذا
الحى من الأنصار. الخزرج ـ خزرجـها وأوسـها ـ

---

* و العقبة كما ذكر صاحب معجم البلدان: (هى) بين منى بينها وبين مكة نحو ميلين و عندها مسجد و منها ترى جمرة العقبة، و كان من حديثها أن النبى ﷺ كان في بدء أمره يوافي الموسم بسوق عكاظ و ذى المجاز و مجنة و يتتبع القبائل في رحالها و يدعوهم إلى الإسلام". (معجم البلدن مادة المدينة المجلد الخامس مطبعة السعادة مصر الطبعة الأول)

إن محمدا منا حيث قد علمتم، و قد منعناه من قومنـا
ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومـه،و
منعة فى بلده، و إنه قد أبـى إلا الانحيـاز إليكـم، و
اللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه
إليه، و مانعوه ممن خالفه، فأنتم و ما تحملتم من ذلـك،
و إن كنتم ترون أنكم مسلموه و خاذلوه بعد الخروج به
إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز و منعة من قومه و
بلده، فقلنا له، قد سمعنا ما قلت."٨

جعل كعب فى هذا المشهد العباس بطلا لا يتكلم إلا هو، و يعرفهم النبى ﷺ بما له من مكانة عظيمة من قومه من حيث هو منهم إلا أنه مسفه أحلامهم مع ذلك هو فى منعة من حيث النظام القبلى المعروف لديهم و قد تحدث كعب من قبل عن العباس بأنه كان معروفا عندهم لتجارته فيهم، لذلك أصبح رابطا بينهم و بين ابن أخيه ﷺ.

لقد بقى الآن مشهدان من هذه الصورة العظيمة المتسلسلة وهما مشهدان لهما مكانتهما العليا من بين هذه المشاهد،حيث تنتهى الصورة بهما، المشهد الأول منهما هو للرسول و الثانى لكعب وحده، لأن المنتصر لابد له من أن يبرز أخيرا بروزا و يقوم مخاطبا، و لابد للمدير و الموجه أن يلقى كلمته الأخيرة و بها تعلن عن نهاية المطاف: يقول كعب:

"فتكلم رسول الله، فتلا القرآن، و دعا إلى الله، و رغب
فى الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعونـى مما
تمنعون منه نساءكم و أبناءكم، فأخذ البراء بن معـرور
بيده ثم قال: نعم، و الذى بعثك بالحق نبيا، لنمنعك مما

نمنع منه أزرنا، فبايعنا رسول الله، فنحـن والله أبنـاء الحروب، و أهل الحلقة ورثناها كـابرا عـن كـابر، فاعترض القول و البراء يتكلم رسول الله أبو الهيثم بن التهيان فقال: إن بيننا وبيـن الرجـال حبـالا و إنـا لقاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنـا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعينا؟

فتبسم رسول الله ثم قال: بل الدم الدم و الهدم الهدم إنا منكم و أنتم منى، أحارب من حـاربتم، و أسـالم مـن سالمتم، وقد كان قال رسول الله: أخرجوا إلـى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا، تسعة من الخزرج و ثلاثة مـن الأوس، وكان أول من ضرب على يد رسول الله البراء بن معرور، ثم بايع بعد القوم"[٩]

ظهر في هذا الشريط شخصيات ببطولاتهم و هم البراء بن معرور الذى ظهر من قبل في المشاهد الأخر بشجاعته المثالية النموذجية و بكلامه المتين الرصين، و كعب بن مالك صاحب أبناء الحروب بما له من نسب و صفات، و أبو الهيثم بن التهيان الذى شاهدناه أول مرة في هـذه الصورة الطويلة بقوله الواضح البين غير متحفظ استحياء، و على رأسهم شخصية الرسول العظمى التي لا تماثله شخصية بدعوته اللهية و تبسمه و شجاعته الفائقة و أخوته. و أخيرا برزت شخصيات النقباء و الأمراء بهوياتهم دون أن تذكر أسماءهم.

و في الحلقة الأخيرة ظهرت شخصية غير مرئية، شخصية الشيطان الرجيم العدو اللدود بأنفذ صوته ينذر الجباجب و أهل المنازل بما وقع في تلك الليلة التي

حدثت فيها حادثة عظيمة في العالم، الحادثة التي زلزت أحلام تابعيها وأحلامها ونفسها، لأن خمسا و سبعين شخصا آمنوا بربهم وبرسوله المبعوث إلى الأحمر و الأسود و الجن و الإنس يقول كعب:

"فلما بايعنا رسول الله صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت ما سمعته قط! يا أهل الجباجب (المنازل) هل لكم في مذمم و الصباة معه، قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله: هذا أزب العقبة هذا ابن أزيب (اسم الشيطان)."[10]

و انتهت هذه الصورة التمثيلية بأقوال الرسول ﷺ والعباس بن عبادة بن نضلة و أهل قريش و بأحداث مختلفة و براو لها و هو كعب يقول كعب.

"ثم قال رسول الله إرفضوا إلى رحالكم، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: و الله الذى بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى عذابا بأسيافنا، فقال رسول الله:لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم.

فرجعنا إلى مضاجعنا حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش فقالوا: يا معشر خزرج، إنه بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا و تبايعونه على حربنا، و إنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا و بينهم منكم."[11]

جعل القوم من أهل المدينة يعتذرون و يحلفون بالله على أنهم لا يعرفون من الخبر شيأ لأنهم كانوا نائمين عندما تسلل خمسة و سبعون شخصا لمبايعة الرسول

تسلل القطا بعد مضى ثلث الليل، فكعب منهم يسمع كلام هؤلاء و هؤلاء فيروى لنا كعب هذا الخبر النهائى بأسلوبه الرائق. يقول كعب:

"فانبعث من مشركي قومنا يحلفون بالله، ما كان من هذا شئ، وما علمنا وقد صدقوا، ولم يعلموه، قال : وبعضنا ينظر إلي بعض، و نفر الناس من منى، فتنطس القوم بالخبر فوجدوا قد كان ، وخرجوا فى طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر (موضع قريب من مكة) والمنذر بن عمرو ، و كلاهما كان نقيبا، فأما المنذر فأعجز القوم، و أما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله(النسع شراك يشد به الرحل) ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته و كان ذا شعر كثير"١٢

نعم، قد يطول بنا الكلام لو ذكرنا هذه القصة التى ساقها صاحب سيرة بن هشام فى كتابه هذا بطولها و الكتب الأخرى للسير و التاريخ و الأحاديث، إلا أنه لا بد لنا من أن نذكر هنا ذلك الفرق اليسير فى العبارات بين ابن إسحاق و صاحب البداية و النهاية لابن كثير فى قائمتين:

عبارات ابن إسحاق	عبارات صاحب البداية و النهاية
قال كعب بن مالك	حدثني معبد بن كعب بن مالك أن أخاه عبد الله بن كعب و كان أعلم الأنصار. حدثه أن أباه كعبا حدثه، و كان ممن شهد العقبة و بايع رسول الله ﷺ بها
قال البراء لنا: يا هؤلاء	قال البراء: يا هؤلاء
فوالله ما أدرى أ توافقونني	والله ما أدرى أتوافقونني
قال: رأيت أن لا أدع هذه البنية منى بظهر	قال قد رأيت الخ

أن نبينا لا يصلى إلا إلى الشام أي بيت المقدس
فقلنا له لكنا لا نفعل
فكنا إذا حضرت الصلاة
و صلى إلى الكعبة حتى قدمنا مكة
و قد كنا عبنا عليه ما صنع و أبى إلا
الإقامة على ذلك فلما قدمنا مكة
حتى نسأله
فانه والله قد وقع في نفسي من شيئ
فقال: هل تعرفانه
قال فهل تعرفان العباس
قلنا: نعم
فدخلنا المسجد
هل تعرف هذين الرجلين يا أبا العباس
فوالله ما أنسي قول رسول الله
فماذا ترى يا رسول الله
لم يذكر العبارة التي في البداية و النهاية[١٣]

أن نبينا لا يصلى إلا إلى الشام
قال: فقلنا له لا نفعل
قال فكنا إذا حضرت الصلاة
وصلى هو إلى الكعبة الخ
لم يذكر ابن كثير هذه العبارة

حتى أسأله
فإنه قد والله الخ
قال هل تعرفانه
فقال هل الخ
قال: قلنا: نعم
قال: فدخلنا المسجد
هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل
قال: فوالله الخ
فماذا ترى
قال: و أهله يزعمون أنـه صلى إلى الكعبة حتي مات وليس ذلك كما قالوا نحن أعلم به منهم[١٤].

إن هذه الأحداث حدثت في البيعة العقبة الثانية لأن صـاحب الاستيعاب[١٥] و صاحب سيرة ابن هشام[١٦] قد اتفقا على أن كعبا قد شهد العقبة الثانية و صاحب أسد الغابة في معرفة الصحابة يقول: شهد العقبة في قول الجميع.[١٧]

أما خصائص و مـيزات نـثر كعب فسنذكرها في موضعـها، وقد سقنا قصة العقبة كى نطلع على إسلامه و بيعته على يد الرسول ﷺ والأحوال الـتي كـانت محيطة بحفنة من المسلمين في تلك الأيام الأولى. ولكن السؤال الهام الذى يحتـاج إلى أن يبرهن هو: ما هى دواعى إسلام أهل المدينة و سبقهم إليـه؟ استعرضها الدكتـور على إبراهيم حسن استعراضا لا بأس به في كتابه " التاريخ الإسلامى العام" و قبل أن أنقل عبارتـه لابد مـن أن أذكـر أن المدينـة المنورة كـانت مـهدا لليـهود و الأوس و الخزرج أما مكة فلم يكن اليهود يسكنون فيـها إلا البعض القليـل فكـانت القبيلتـان

على خبرة تامة أنه سيبعث نبى و قد تنبأت كتب اليهود و توراتهم به و كانوا يدعون أنه يبعث فيهم و يستفتحون عليهم (الأوس و الخزرج) و يسيطرون و يهاجمون به ﷺ على هاتين القبيلتين. و كان النزاع المستمر بين اليهود و بينهما، لذلك كانتا تريدان أن يكون النبى المبعوث منهم أو إذا بعث سبقوا إليه و كانت اليهود محتلين و مستعمرين متثقفين فلم تكن القبيلتان راضيتين عنهم فقد كانتا تريدان طردهم و إخراجهم عن المدينة المنورة، و هما أهل الحروب و الحلقة ورثتاها كابرا عن كابر، و إنهما بعد المبايعة على يد الرسول لم يلبثوا حتى قالوا نمنعك مما نمنع أزرنا، و كانت حبالا بينهم و بينهما اقتصادية كانت أو سياسية فقطعتاها على الفور، وهذا الحبل القصير كان على وشك الإنقطاع.

فطرد اليهود من المدينة كان من إحدى دواعي لإقبال القبيلتين إلى الإسلام واعتناقه يقول الدكتور على إبراهيم:

> كما أنه لم يكن هنالك مصلحة اقتصادية لأهل يثرب في تمسكهم بالوثنية كقريش. و كان النزاع بين أهل يثرب من الأوس و الخزرج و بين اليهود أكبر الأثر في مخالفتهم للرسول، إذ وجدوا في ذلك فرصة لطرد اليهود من المدينة المنورة و إجلائهم عن أراضيهم التي تعد أخصب بقاع المدينة......أما من ناحية الرسول فقد كان بينه و بين أهل يثرب صلة نسب و قرابة فهنالك بنو النجار أخوال جده عبد المطلب، و هنالك قبر أبيه.... و في منتصف الطريق بين مكة و المدينة يوجد قبر أمه .... لهذه الأسباب مجتمعة التقت مصالح

الرسول بمصالح أهل يثرب فحالفـا و تعـاقدا علـى الإسلام و على التفاني في نشره و نصرته"[١٨]

نظرا إلى هذه الحقائق التأريخية و الدروس التي وردت في نص الأحداث التي رواها كعب نستطيع أن نستنتج أن بذور الإسلام كانت قد رسخت في بعض أهل المدينة وأن الشريعة المحمدية قد كانت أخذت طريقـها إلى قلوبـهم بدليل معارضة بعضهم لبراء بن معرور في تغيير القبلة و تجشمهم مخالفة العرب لتصديق الرسـول و منعه مما يمنعون منه أبناءهم و آباءهم و نساءهم، و لكعب فضل في رواية هذه المشاهد و المناظر التمثيلية لولاه لما وصلت إلينا و منها فطنا أنه أسلم قبل وصوله إلى مكة لزياده الرسول ﷺ.

١.	القران الكريم	سورة الشعراء ٢٦ : ٢١٤	
٢.	القرآن الكريم		
٣.	تهذيب سيرة ابن هشام الجزء الثانى	ابو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ٦١	طبع بمطبعة دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٤.	السيرة النبوية لابن هشام	ابو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص ٦١	طبع بمطبعة دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٥.	البعث الإسلامى (مجلة)	الأستاذ سعيد الرحمان الأعظمى الندوى	محرم الحرام ١٤٠٤ المطابق اكتوبر نوفمبر ١٩٨٣ ص: ٧٢
٦.	السيرة النبوية	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص ٦٢	طبع بمطبعة دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٧.	السيرة النبوية	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ٦٣	طبع بمطبعة دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٨.	السيرة النبوية	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص ٦٣	طبع بمطبعة دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٩.	تهذيب سيرة ابن هشام	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى هذ به عبد السلام هارون ص ١٠٨	دار الفكر بيروت الطبعة الأولى
١٠.	السيرة النبوية	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص :٦٧	دار الجيل بيروت ١٩٨٧
١١.	تهذيب سيرة ابن هشام	أبو محمد عبد الملك بن هشام هذبه عبد السلام هارون ص: ١٠٩	دار الفكر بيروت الطبعة الأولى
١٢.	تهذيب سيرة بن هشام	أبو محمد عبد الملك بن هشام هذبه عبد السلام هارون ص: ١٠٩	دار الفكر بيروت الطبعة الأولى
١٣.	تهذيب سيرة بن هشام	أبو محمد عبد الملك بن هشام هذبه عبد السلام هارون ص: ١١٠-١٠٥	دار الفكر بيروت الطبعة الأولى
١٤.	البداية والنهاية الجزء الثالث	أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى ص:١٥٨ إلى نهاية الكلام	دار الكتب العلمية بيروت لبنان طبع سنة ١٩٨٥
١٥.	الاستيعاب الجزء الأول	الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن البر النمرى ص ٢٨٦	على حاشية الإصابة مطبعة السعادة مصر
١٦.	سيرة بن هشام	أبو محمد عبد الملك بن هشام هذبه عبد السلام هارون ص: ١١٠-١٠٥	دار الفكر بيروت الطبعة الأولى
١٧.	أسد الغابة فى معرفة الصحابة	عز الدين على بن محمد الجزرى الجزء الرابع ص:٢٤٧	دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان
١٨.	التأريخ الإسلامى العام	الدكتور على ابراهيم ص ١٨٢	مكتبة الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية القاهرة

غزوة تبوك وكعب من مالك

"و على الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت و ضاقت عليهم أنفسهم، و ظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتو بوا، إن الله هو التواب الرحيم."[1]

تصفحت أوراق معجم البلدان لياقوت الحموى فنفضت يدى بالإخفاق لعدم استعراضه هذا المكان الأهم إلا أن العلامة شبلى النعمانى صاحب سيرة النبى* إستعرضه استعراضا يسيرا فذكر:

"تبوك موضع معروف يقع بين المدينة المنورة و بين دمشق"[2]

وأما خلفية هذه المعركة وفق قول العلامة المذكور ملخصا مترجما كما يلى،

"أرادت الإمبراطورية الرومية الهجوم على العرب بعد غزوة مؤته و استعمل قيصر الروم لهذا الأمر الغسانيين الذين كانوا يتولون الحكومة من قبل الروم و كانوا مسيحيين دينا، فاشتهرت هذه الأخبار في المدينة بفضل التجار، حتى أن عمر -رضـ- عندما فاجأه عتبان بن مالك سأله عمر هل هجم الغسانيون؟

وأخبر التجار أهل المدينة أن الروم قد اجتمعت بقضهم و قضيضهم لشن حرب شعواء على العرب سببا لذلك قسمت الأموال و الوظائف لسنة كاملة بين الأفواج، و يشمل هذا الجيش لخم و الجذام و العنسان، و أنه قد

تقدمت مقدمة الجيش إلى بلقاء، و كتب مسيحيوا العرب أن محمدا قد توفي و العرب أصابهم الجدب و هم يموتون جياعا فأرسل إليهم هرقل أربعين ألفا من الأفواج.

سمع النبى ﷺ هذا الخبر فجهز جيشا من المسلمين و لكن شق عليهم التجهز نتيجة للقحط و الحرارة الشديدة و السفر الطويل ـ لا تنفروا في الحر ـ و جمع الصحابة أموالهم لهذا الأمر أما المنافقون فتولوا و أمروا أتباعهم بالفرار، و انفلت من رعيل الصحابة بعضهم لقلة عدتهم - ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم، قلت: لا أجد ما أحملكم عليه، تولوا و أعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون."٣

هذا، و كان هنالك بعض أصحاب النبى ﷺ لم يقدر لهم أن ينفروا في سبيل الله في هذه الغزوة، و قد تجهز بعضهم للسفر و لكن هذه الغزوة لم تكن في حظهم فامتحنهم الله امتحانا و ابتلاهم ابتلاءا عظيما و ذلك بعد قدوم النبى من الغزوة فاتحا، و كان من هؤلاء الذى نترجم له، و هو راو لهذا الابتلاء الذى لا يساويه ابتلاء.

لم يكن رسول الله يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله في حر شديد و استقبل سفرا بعيدا و مفازا و عدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم لوجهم الذى يريد و المسلمون مع رسول الله كثير، و لا

يجمعهم كتاب حافظ. يريد الديوان. قال كعب" فما رجل يريد أن يتغيبْ إلا ظن أنه سيخفي له ما لم ينزل فيه وحى الله، وغزا رسول الله تلك الغزوة حين طابت الثمار و الظلال، و تجهز رسول الله و المسلمون معه فطفقت اغدوا لكى أتجهز معهم فأرجع و لم أقض شيأ، فأقول في نفسى و أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى لى حتى أشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله و المسلمون معه، و لم أقض جهازى شيئا فقلت: أتجهز، فرجعت و لم أقض شيئا، ثم غدوت، فرجعت، و لم أقض شيئا فلم يزل بى حتى أسرعوا و تفارط الغزو، و هممت أن أرتحل فأدركهم، و ليتنى فعلت، فلم يقدر لى ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله، فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه بالنفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرنى رسول الله حتى بلغ تبوكا، فقال و هو جالس في القوم بتبوك مافعل كعب؟ فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله حبسه برداه و نظره في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا. فسكت رسول الله، قال كعب بن مالك: فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى همى و طفقت أتذكر الكذب، و أقول بماذا أخرج من سخطه غدا، و استعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى، فلما قيل لى:

أن رسول الله قد أظل قادما زاح عنى الباطل، وعرفت أنى لن أخرج منه أبدا بشئ من كذب، فاجمعت صدقه، و أصبح رسول الله قادما، و كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه و يحلفون له و كانوا بضعة و ثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله علانيتهم و بايعهم و استغفرلهم، و وكل سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى: ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت: بلى أنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، و لقد أعطيت جدلا، و لكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على و لئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه أنى لأرجو فيه عفو الله، لا، والله ما كان لى من عذر، والله ما كنت قط أقوى و لا أيسر منى حين تخلفت عنك. فقال رسول الله: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك فقمت، وسار رجال من بنى سلمة فاتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله بما اعتذر إليه المخلفون قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله لك، فوالله ما زالوا يؤنبونى

حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي،ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلـــت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، و هلال بن أمية الواقفي، فذكـــروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما، و نهى رسول الله المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتـنبا النـاس و تغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي اعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأمـا صاحبـاي، فاستكانا و قعدا في بـيوتهما يبكيان و أما أنـا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مـع المسلمين و أطوف في الأسواق، و لا يكلمنـي أحـد، وآتى رسول الله فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علـى أم لا؟ ثم أصلى قريبا منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت جدار حائط أبى قتادة ــ وهو ابن عمى ــ وأحب الناس إلـي فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله و رسـوله؟ فسـكت فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فقـال: الله و رسوله أعلم، ففاضت عيناي، و توليت حتى تسـورت الجدار، قال كعب: فبينا أنا امشي بسـوق المدينـة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قـدم بالطعـام يبيعـه

بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مـــالك؟ فطفــق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلى كتابـــا مــن ملك غسان ، فإذا فيه،

أما بعد: فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها ،و هذا أيضا من البلاء ،فتيممت بها التـــنور فسجرته بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله يأتيني فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتــزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قــال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثــل ذلك، فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتـى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أميــة رســول الله، فقالت يا رسول الله: إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه، قال: ولكــن لا يقربــك قالت: إنه والله ما به حركة إلى شئ، والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله فــي امرأتــك كمــا أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت: والله لا أســتأذن فيها رسول الله، و ما يدريني ما يقول رســول الله إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، فلبثت بعد ذلك عشــر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رســول

الله عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة ـ وأنا على ظهر بيت من بيوتنا بينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت على نفسي وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته، يا كعب: أبشر قال: فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج وآذن رسول الله بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي يبشرون، وركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس ،فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، و استعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ، فيتلقاني الناس فوجا فوجا يهنؤني بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله جالس حوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني و هنأني و الله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره، و لا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت: أ من عندك يا رسول الله أم من عند الله؟

قال: لا بل من عند الله، و كان رســـول الله إذا ســر استنار وجهه حتى كأنه قطعة من قمر، و كنا نعـــرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلـــى الله و إلـى رسول الله، قال رسول الله: أمسك عليك بعض مـــالك فهو خير لك، قلت: فأنى أمسك سهمي الـــذي بخيـــبر، فقلت: يا رسول الله إن الله نجاني بالصدق، وإن مـــن توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت، فوالله ما أعلـــم أحدا من المسلمين أبلاه في صدق الحديث منذ ذكـــرت ذلك لرسول الله إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني، و ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله إلى يومـــي هـــذا كذبا، و أني لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت و أنـــزل الله على رســـول الله: " لقـــد تـــاب الله علـــى النبـــى والمهاجرين والأنصار إلى قوله "كونوا مع الصادقين فوالله ما أنعم على من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام اعظم في نفسي من صدقي لرســـول الله أن لا أكـــون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فان الله قـــال للذيـــن كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال تبـــارك وتعالى : سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم إلى قولـــه فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين"

قال كعب: تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبـــل منهم رسول الله حين حلفوا له فبايعهم و استـــغفرلهم، و

أرجأ رسول الله أمرنا حتى قضي الله فيه و ذلك قــول الله: وعلى الثلاثة الذين خلفوا وليس للذين ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، و إنما هو تخليفه إيانا و إرجاءه أمرنا ممن حلف واعتذر إليه فقبل منه:٦

تناقل هذا الحديث الصحيح للإمام مسلم٧ و الإمام القرطبى٨ و الإمام الطبرى٩ في تفسيرهما مع تغيير بعض الألفاظ أما الحديث الذي نقلناه فلفظه للإمام البخارى وصاحب تفسير سراج المنير.١٠

ولتأييد خلفية "وعلى الثلاثة الذين خلفوا" نود أن نذكر هنا ما ذكره أصحاب السير و الرجال: فابن حجر العسقلانى في كتابه تهذيب التهذيب يقول:

"وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم و أنــزل فيــهم القرآن و على الثلاثة الذين خلفوا"١١

ويقول على ابن محمد بن عبد الكريم الجزرى المعروف بابن الأثير في كتابه أسد الغابة:

"وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا حتــى ضاقت عليــهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وهم كعب بن مالك ومرارة بن ربيعة وهلال بن أمية"١٢

و يقول صاحب الاستيعاب الحافظ بن البر:

"و هو أحد الثلاثة الأنصار الذين قال الله فيهم" وعلــى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بمــا رحبت الآية و هم: كعب بن مالك الشاعر هذا و هــلال بن أمية و مرارة بن ربعية تخلفوا عن غزوة تبــوك،

فتاب الله عليهم و عذرهم، و غفرلهم، و نزل القرآن المتلو في شأنهم"١٣

و يقول محى الدين يحى بن شرف صاحب كتاب تهذيب الأسماء و الكنى:

"و هو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم، و أنزل فيهم "و على الثلاثة الذين" و الثلاثة هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، و هلال بن أمية و حديث قصتهم مشهور في الصحيحين"١٤

يقول ملك المحدثين الشيخ محمد طاهر الفتنى في كتابه تلخيص خواتم جامع الأصول:

"كان أحد الشعراء و أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن تبوك"١٥

أما من النقاد و الأدباء محمد بن سلام الجمحى في كتابه "طبقات فحول الشعراء" فيقول:

و كان أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن تبوك، و هو: هلال بن أمية و مرارة بن الربيع فتاب الله عليهم كما قص في سورة براءة، و يروى أن قومه قالوا له في ذلك: لو اعتذرت إلى رسول الله ببعض ما يعتذر به الناس، عذرك، قال: إنى لأصنعهم لسانا، و أقدرهم على ذلك، و لكن والله لا أعتذر إليه بكذب و إن عذرنى فيطلعه الله عليه فيقال: إن الله عز وجل أنزل فيه: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و كونوا مع الصادقين سورة التوبة"١٦

يقول صاحب المنجد:

"قاتل في جميع الغزوات عدا بدر و تبوك"١٧

هذه بعض المصادر و المآخذ الذى يستغنينا عن نذكر الأخر، فلا يبقى لنا من شك أن هذه الآيات نزلت في شأن هؤلاء الثلاثة، و لا بدلنا من أن نقوم بدراسة هذا الحديث و ما ذكر قبله عن العقبة الثانية بالتحقيق دراسة متأنية نقدية و ذلك تحت عنوان كعب بن مالك و نثره المرسل والله ولى التوفيق.

١. القرآن الكريم	سورة التوبة رقم الآية: ١١٨ الجزء الحادى عشر	
٢. سيرة النبى الجزء الأول	العلامة شبلى النعمانى ص: ٣٣٦	طبع بمطبعة زاهد بشير لاهور باكستان ١٩٩١
٣. سيرة النبى الجزء الأول	العلامة شبلى النعمانى ص: ٣٣٦- ٣٣٧	طبع بمطبعة زاهد بشير لاهور باكستان ١٩٩١
٤. تأريخ الرسل والملوك الثالث	أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ص: ١٤٨	مكتبة خياط بيروت لبنان
٥. تأريخ الرسل والملوك الجز الثالث	أبو حعفر محمد بن جرير الطبرى ص: ١٤٣	طبع بمطبعة مكتبة خياط بيروت لبنان.
٦. فتح البارى بشرح صحيح البخارى	الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى	المكتبة التجارية دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٦ الجزء الثامن، لا حظ كتاب المغازى ص: ٤٦٢ و باب يأيها الذين آمنوا اتقوا الخ و باب لقد تاب الله على النبى ص: ٢٤٤ و ٢٤٢ بالترتيب.
٧. الصحيح لمسلم	مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كرشاد القشيرى النيشابورى ص:	انظر الصحيح لمسلم حيث ورد تخلف هؤلاء الصحابة عن تبوك
٨. تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن)	أبو عبد الله محمد بن احمد بن أبى بكر بن فرح القرطبي ص:	ادرس سورة التوبة من هذا التفسير
٩. جامع البيان عن تأويل آى القرآن الجزء الرابع عشر	أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى. ص: ٥٤٢-٥٤٤	لاحظ سورة التوبة من هذا التفسير
١٠. سراج المنير (أحسن تفسيرا و سراجا ميزا)	محمد بن الشربينى الخطيب	سورة التوبة المجلد الأول ص: ٧٠٧-٧٠٩ المطبع الكنوى نور الكشور.
١١. تهذيب التهذيب	أحمد بن على بن حجر العسقلانى ص: ٤٤٠	نشره دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة عام ١٩٩٢م الطبعة الأولى
١٢. أسد الغابة في معرفة الصحابة الرابع	على بن محمد بن عبد الكريم الجزرى المعروف بابن الأثير ص: ٢٤٧	دار إحياء التراث العربى بيروت......لبنان
١٣. الاستيعاب الأول	أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بإبن البر :٢٨٦ على حاشية الإصابة في معرفة الصحابة	مطبعة السعادة مصر
١٤. تهذيب الأسماء و الكنى	محى الدين يحى بن شرف ص: ٥٢٣	مطبعة السعادة مصر
١٥. تلخيص خواتم جامع الأصول	الشيخ محمد طاهر الفتنى. ص: ٣٥٥	طبعه علمى بريس وهمدم بريس ماليكاون الهند
١٦. طبقات فحول الشعراء	محمد بن سلام الجمحى ص: ٢٢٣	مطبعة المدنى بالقاهرة
١٧. المنجد	ص: ٥٩٠	الطبعة الخامس و الثلاثون

وصف النثر

هو كلام منثور فى مقابل الشعر و النظم، لا يقيّده وزن و لا قافيه، و هو لغة التخاطب، المعبّرة عن حاجات الناس و أغراضهم الانتفاعية، و يعبّر به عن معاناة نفسية تصيب الإنسان ، يسمو هذا النثر عن النثر الفنّى الجميل الرائع الّذى يحمل تجارب فكرية ، بيانا مؤثراً. فنى الحقيقة هى لغة التفاهم و التعامل، ثم كانت من أمر لغة الإنسان التعاملية و التفاهمية أن تحولت إلى وسيلِة للتاثير العاطفى و النزعات الوجدانية. فلما أدركت إهميتها الوجدانية اعتنى بصوغ عباراتها لتكون أوقع فى النفس غير إكثراث بالأخيلية والصور التى تتعلق بأساليب الشعر، ثم ازدهر هذا النثر الفنى و وجد مكانا إلى الظهور و احتلّ مكانة سامية.

و النثر العادى لا يستحق الدراسة لأنهّ يكون فيه كلام عادى خرج من غير تكلّف و لا مشقّة كما يستحق النثر الفنى الّذى يراعى فيه احتواءه على مقوّمات الفن كجمال التعبير و قوة التأثير.

و قد قسم النقّاد النثر إلى أقسامٍ منها: النثر المرسل هو النثر الّذى ينطلق به كاتبه من غير تصنّع أو زخرفة لفظيِة يكفيه تأدية المعنى كأسلوب مترجمنا كعب بن مالك رضي الله عنه و ابن المقفّع و الجاحظ. و النثر المسجّع المقفّى المصنوع يحرص فيه كاتبه على السجع و توازن آخر الحرف، أو توازن ألفاظ. كنثر الحريرى و بديع الزمان الهمدانى و أبى حيان التوحيدى و غيرهم ، و القسم الآخر هو النثر الشعرى، يحتوى هذا النثر على ما يحتوى عليه الشعر من الصُّور و التشابه. كما نراه فى أسلوب الأستاذ لطفى المنفلوطي.

و هنالك نثر سردى عام نجده فى المجلات و الجرائد، و عند كتّاب القصص و الروايات. هذا، و قد ظهر هنالك قسم النثر الآخر و هو النثر المركّز يقول الدكتور محمد التونجى فى كتابه "المعجم المفصّل في الأدب":

"حركة أدبية ظهرت فى العراق، رفضت الشعر العربى القديم، و دعت إلى التحرّر من قيود الوزن والقافية التى اعتمدها دعاة "الشعر الحر" و النثر المركّز لون يشبه " قصيدة النثر " (انظرها) و أحدث منها. أوّل من كتبها حسين مروان فى العراق ـ ثم نزار قبانى فى سورية"١

و أمّا النثر الجاهلى القديم القليل الّذى وصل إلينا فيلمح منه أنّه كان ساذجًا إلاّ أنّه لم يكن واضحًا، لم يكن فيه عمق إلاّ أنّه كان يشتمل على الحكم و الأمثال لكونها تجارب حياتهم و مرآة عقولهم، و كان يغلب عليه السجع و التوازن عند الكهّان يقول الدكتور محمد التونجى:

"كما لم يصل إلينا منه إلاّ شئ قليل جداً، ربّما لصعوبة حفظه و لعدم ضبطه بالوزن، و لندرة إمكانية الكتابة، و النثر الجاهلى الّذى تجمّع لدينا كان عبارة عن: خطب و كتب، و وصايا و أحاديث كهّان و حكم، و أمثال"٢

يفيدنا الدكتور عمر فرّوخ بنفس الرأى إلاّ أنّه أضاف قائلاً:

"إن النثر الّذى وصل إلينا من الجاهلية نزر جدّاً، فلقد
كان احتفال الرواة بالشعر أعظم مع أن الشعر الّذى
وصل إلينا من الجاهلية لم يكن كثيراً"٣

و قد يتفق مؤرّخو العربِ مثل شوقى ضيف و الدكتور أحمد امين و عمر فرّوخ على أنّ النثر العربى كان استمراراً للنثر الجاهلى ، و إن كان النثر الإسلامى يختلف عنه فى بعض الأمور بدليل المقارنة بين فصول الكلم الجامع من الجمل القصار و التوقيعات و النثر الجاهلى الّذى يحتوى على الأمثال و الحكم و الوصايا ، و أنّ النثر الإسلامى كان أكبر مقداراً و أوسع مدىً يقول الدكتور عمر فرّوخ فى كتابه تأريخ الأدب العربى:

"كان هذا النثر الإسلامى الّذى وصل إلينا أكبر مقداراً
و أوسع مدىً هنالك إلى جانب أحاديث رسول الله و
خطبه و خطب الخلفاء الراشدين و خطب قادة الجيوش
بالإضافة إلى الروايات التى حملت إلينا قدراً كثيراً
من اللغة و الأدب و التأريخ و القصص"٤

هذا، و قد امتاز النثر الإسلامى بطبيعة الحال و الوضع فى أغراضه و أسلوبه بالقرآن الكريم و أحاديث الرسول ﷺ يقول عمر فرّوخ عمّا امتياز به النثر الإسلامى:

"كان فى الدرجة الأولى ، أفصح ألفاظًا، و أسهل تركيبًا
و أعذب تعبيراً أمّا من الجهة الثانية فقد كان أمتن
سبكًا، و أبرع دلالة و آنق ديباجة لأنّ الناثرين كانوا قد
تأثّروا ببلاغة القران الكريم التى كانت تجرى فى

أساليب متعدد بتعدد الأغراض من ترغيب و ترهيب و من وعد و وعيد و من سرد و رقص و من وصف و تشريح، ثم إنّ العرب كانوا قد جعلوا النثر ميدان براعتهم في التعبير عن المقاصد و المعانى بعد كانوا قد انصرفوا عن الشعر قليلاً"٥

كانت هى دواعى للنثر الإسلامى حتى ادّعى المؤرخون بأنّ الشعر قلّ فى العهد الإسلامى الأوّل و كثر النثر و ازدهرت الخطابة، فان كان الشعر فى الجاهلية يحتلّ المكان الأوّل و النثر تابع له فى الدرجة الثانية ، فان النثر قد سبق الشعر فى العهد الإسلامى بطبيعة الحال. و تلك الأيام نداولها بين الناس. و ان قلنا إنّ الشعراء قد استسلموا أمام بلاغة القرآن فلا نكون بعيدين عن جادة الحق،لان لبيداً عندما سئل أن يقول شعراً، أجاب أ بعد القرآن؟ و من جانبٍ كان الرسول يحث الشعراء على قرض الشعر فبرز فى عهده شعراء الإسلام الّذين كان لهم جول و طول فى الميادين المختلفة منهم كعب الّذى نترجم عنه.

عندما نتكلّم عن نثر كعب نجعل كلّ هذه الحقائق نُصب أعيننا و نجعل بعض عباراته فى موضوع الدّراسة من حيث ألفاظها و أساليبها و تعبيراتها، و يحق لنا أن نقول، لو كان عندنا نثره الجاهلى الّذى نسيه التأريخ و لم يحفظه لنا لبرز لنا ككاتب كبير، نحسب أنّ كعباً كان كاتباً و ناثراً مرسلاً. لان نثره بعيد كل البعد عن التصنّع و زخرفة لفظية، لا يريد إلاّ تأدية المعنى و رواية الأحداث، اللهّم إلاّ أنّه يأتى بالتشبهات و الصور و المشاهد فهو أقرب من مصطفى لطفى المنفلوطى ، فنراه فيه كناثر شاعرٍ و نشعر الشعور التام بأن نثره هو نثر سردى عام كذلك، لأنّه راو القصص. لذلك كلّه نؤكّد على أن نثر كعب هو نثرمرسل و شعرى و سردى فى وقت واحد.

كعب بن مالك و نثره المرسل

يفيدنا التأريخ القديم للعصر الجاهلى بأنّه لم يكن للنثر العربى الأدبى قدم تُذكر اللّهم إلاّ أن الرُهبان كانوا يتكلمون بالنثر الفنى المسجّع و المقفّى و لم يكن هذا النثر كثيراً وافراً، كان يستعمل للإلتباس، و كان يكون هذا النثر يؤتى معنى مضاداً مختلفاً، تلاحظ بعض هذه العبارات و الألفاظ فى كتب التأريخ و خاصّة فى "سيرة ابن إسحاق" بيد أن الشعر قد كان سدّ مسدّ النثر فى الأيام الجاهلية و أصبح سماءهم و أرضهم و كان الشعر صار لهم لباساً يرتدونه فى المناسبات المختلفة، لأنّه لا يفتقر إلى عقل ناضج و فقه كامل و لا يحتاج إلى الكتابة فى أكثر الأوقات ، أمّا النثر الفنى الأدبى فهو فى أشدّ الحاجة إلى التفكير و التدبّر و الفراغ الكامل و الكتابة، ففن الكتابة كما يعرف كل دارس للأدب الجاهلي كان مفقوداً و معدوماً و كذلك أمر القراطيس، و النثر لا يزدهر إلاّ مع ازدهار العقل و الفهم و الحضارة و الثقافة و أنّى ذلك كلّه فى الأيام الجاهلية!

أماّ الشعر فإنّه يتعلق بالشعور و الوجدان و كلاهما لا يحتاجان إلى شئ من التقدم و الترقّى ، بل و كلُّ شخص منح قلباً خفّاقاً يؤثّر و يتأثّر، يقبل الحسن فيستحسنه و يقبح القبح فينفر عنه و يستقبحه، كلّ إنسان سليم القلب و الشعور يستحسن الوردة و صوت البلابل و الخضروات و المناظر الجميلة و شلّالات الماء المتدفّقة سواء كان له عقل ناضج أم لا. لأنّ هذه الأشياء الحسينة تؤثّر في النفس و القلب، و القلب مركز الشعور و الوجدان فكلّ منا يتأثر بحادثة حدثت أو واقعة وقعت فتثير الحماسة و الشجاعة لا يخصّ به بلد دون بلد أو أهل موطن دون موطن و لا زمان دون زمان، و العقل الإنسانى يرتقى يوماً فيوماً، فالاِكتشافات و الاختراعات و الابتكارات التى أحدثت بعد الإسلام لم تكن مثلاً من قبل، فالشعراء

و الأدباء جزء من المجتمع جعلوا يبتكرون فى شعرهم و أدبهم و بدأوا يتحدثون عنها. فأين ذلك الشعر العربى القديم من الشعر العربى الجديد، هكذا ازدهر النثر الفنى بعد الإسلام لحاجة مهمّة و تلك هى الدعوة الإسلامية لأنّ القرآن نفسه بين الشعر و النثر، و الحديث كلام منثور فنى، و الخطابات النبوية و خطب الخلفاء و القوّاد و الزُّهاد و الفرق المختلفة منثورة لحاجتهم إليه أكثر بكثير بالنسبة إلى الشعر و إن لم تقلّ قيمة الشعر بعد. و الإسلام يريد تبليغ رسالته إلى البشر فلا يمكن ذلك إلاّ بالنثر لنطاقه الواسع و الشعُر نطاقه محدود ضيّق. لذلك نرى أنّ النثر قد ارتقى ارتقاء لا بأس به بعد الإسلام فعبد الحميد الكاتب و أبو عثمان عمرو بن البحر الجاحظ و عبد الله بن المقفّع و ابن قتيبة و ابن العميد و القاضى الفاضل و صاحب ابن عبّاد و الحريرى و الهمدانى كلّهم ناثر و كاتب.

إنّ رواة الحديث الشريف لهم دور هاّم كذلك فى بث النثر منهم صاحبنا كعب بن مالك الّذى سقنا قصّته فى السطور المتقدمة : لا ننكر ما للشعر من الفضل لأنّه يصون الكلام من الابتذال و لمنورد هنا بعض أقوال النُّقاد عن الشعر و النثر لتضيئي بها الطريق الّذى يوصلنا إلى نثر كعب و شعره، يقول ابن الرشيق فى العمدة:

"كل منظوم أحسن من منثور من جنسه فى معترف العادة، ألا ترى أن الدرّ و هو أخو اللفظ و نسيبه و إليه يقاس و به يشبه إذا كان منثوراً ، لم يؤمن عليه، و لم ينتفع به فى الباب الّذى له كسب، و إن كان أعلى قدراً و أعلى ثمناً، فإذا نظم كان أصون له من الابتذال"٦

كذلك لم يصل إلينا النثر الكثير لأنه يبتذل ، يقول صاحب العمدة نفسه:

"لم يحفظ من المنثور عشره و لا ضاع من الوزن عشره"٧.

و يرى النقاد كذلك أن المنثور فى كلام العرب أكثر و لكن الّذى هو محفوظ جيد قليل و أن الشعر كان عندهم أقلّ بالنسبة إلى النثر و لكنّه محفوظ بفضل زينة الوزن و القافية.

لا نتمكن من تحديد قيمة أسلوب كعب فى نثره حتى نفهم ما هى وظيفة الأديب يقول حسن جاد حسن الأستاذ السابق بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر فى كتابه "دارسات فى النقد الأدبى"

"و الأديب العظيم يختار ألفاظه و يهيّئ له الجو الفني الّذى تشبع به الصور و الظلال و الإيحاء بالمعنى"٨

و الأديب إنّما يعبّر عما فى نفسه و خلده من أحاسيس و هواجس و خواطر فى الصورة اللفظية و أسلوبه الخاص: و هما اللّذان ينقلان الانطباعات و الانفعالات إلى الناس ، يقول حسن جاد حسن فى مكان آخر من هذا الكتاب:

"التعبير و الأسلوب أو نظم الكلام هو الأداة التى بواسطتها ينقل الأديب أحاسيسه المضمرة فى نفسه إلى الناس و قد وشّاها بصور الخيال و ظلاله ، فيؤثر فى نفوسهم و يدفعهم إلى مشاركته الوجدانية فيما انفعل به"٩

هذه هى مقوّماتٌ للأديب لابدّ أن يراعيها و يهتم بها اهتمامًا فى أدبه .لأنّه لكل معنى شريف لفظ شريف و لكّل معنى خسيس لفظ خسيس، قد أضاف حسن جاد حسن قائلاً:

"فلابّد من أن يكون اللفظ ملائمًا للجو الشعوري موحيًا به معانقًا له متّسقًا به رقةً و دقةً أو فخامةً و ضخامةً و لابدّ أن تتألف الألفاظ فيما بينهما، حتى تكون أسرة واحدة. كل كلمة منها تقبل على الأخرى و تعانقها و تفسح لها مكانًا بجانبها"١٠

يقول ابن الرشيق المصرى فى العمدة عن اللفظ و المعنى:

"اللفظ جسم و روحه المعنى ، و ارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه. و يقوى بقوته، فإذا أسلم المعنى و اختل بعض اللفظ كان نقصًا للشعر و هُجنه عليه : كما يعرض بعض الأجسام من العرج و الشلل و العور و ما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح"١١

هذا ، و قد نقل صاحب العمدة كلام بعض العلماء دون ذكر اسمه و هو:

"اللفظ أغلى من المعنى ثمناً و أعظم قيمة و أعزّ مطلبًا. فان المعانى فى طباع الناس يستوى الجاهل فيها و الحاذق و لكن العمل على جودة الألفاظ و حسن السبك و صحة التأليف"١٢

إنّ النُّقاد قد أظهروا آراءهم عن اللفظ و المعنى فمثلا العباس بن حسن العلوى قال فى موضع الألفاظ قوالب المعانى و خالف رائه فى موضع آخر فقال المعانى هى قوالب الألفاظ ، و قال أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبى نقله صاحب العمدة:

"البليغ من يحوك الكلام على حسب الأمانى و يخيــط الألفاظ على قدور المعانى"١٣

و قيل: "الألفاظ فى الأسماع كالصور فى الأبصار" ١٤

و قال الثعالبى فى يتيمة الدهر:

"أرى لك أن تقسّم الألفاظ على رتب المعانى".١٥

بعد هذه التوطئة و التمهيد يمكـن لنـا أن نحدّد مكانـة كعب الأنصارى فـى الأدب فى ظلال هذه المقوّمات و الأصول التـى عيّنـها الأدبـاء و النّقاد للأديـب ، لم يصل إلينا عنه نثر وافر كثير إلاّ حديثه عن العقبة الثانية و تبوك و لا يقـدر إنسـان على أن يفهم حديثه عن كلا الحادثين وقعا بكعـب و أصحابـه إلاّ إذا عاشا جوّهمـا بنفسه ، كيف قدموا من المدينة إلى مكة؟ و كيف انتهز هو الفرصة لزيارة الرسول و مبايعته و ذلك فى ظلام الليل و الناس نيام هو و أصحابه يتسللّون تسللّ القطـا حـذر مشركى المدينة و مكة نفسها، و`ما بدا لسيدهم من رأى عن القبلة، و مـا دار الكـلام بين النبى ﷺ و البراء بن معرور و اعتراض الهيثـم بينـهما، و كيـف كـان يسـارق النظر إلى رسول الله، و كل هذه المناظر و المشاهد إنما تتجسد و تتمثل أمامنـا كشـريط فيلم، و كصورة حيّة متحركة، فكأننا نشاهد هذه الصـور بـأم أعيننـا. إليكم بعـض الملامح البارزة فى نثر كعب الخزرجى الشاعر الأديب - رضى الله عنه - و قد اقتبسنا بعض الجمل من نثره الّذى نقلناه فى السطور السالفة الذكر و تكلمنـا عنـها وفـق مـا واتتنا.

١) "خرج رسول الله يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم و بين عدّوهـم على غير ميعاد"

ففى هذه العبارة نلمح كأنّ الناس كانوا متفرّقين فجمعهم الله من أشتاتٍ، و قد كانوا غافلين عن أمورهم و لم يكونوا يعلمون أنّهم سيتركون أعمالهم و يندفعون إلى أمر واحد.

٢) "حتى تواثقنا على الإسلام"

لم يقل بايعنا،لأنّ المبايعة تكون بالأيدي ، و لا يعرف ما فى القلوب، أمّا الوثوق على شئٍ فيتعلق بالقلوب أى بايعنا بالقلوب و الجنان لا بالأيدى فحسب، كذلك فیٓ التواثق صوت يحسّ به كل ذو لب أدبى خاص. يدلّ على أن الجنان قد اتّفقت على شئٌ مهمّ، و أنّها لا تتفرق أبداً مهما كانت الظروف و الأوضاع.

٣) "لم يكن رسول الله يريد غزوة إلاّ ورّي بغيرها"

لايمكن هنا استعمالُ غير كلمة ورّي لأنّ فيها انقطاع عن شئ إلى آخر و إيحاء خفيف و حيلة يستعملها الأديب إكمالاً لمهمّته من غير انخداع وخدعة و يستعمل لفظ و يراد به غير معناه.

٤) "و استقبل سفراً بعيداً و مفازاً و عدوّاً كثيراً"

هذا مشهد جميل رائع و مخوِّف كذلك السفر بعيد جدّاً و ليست فى الطرق مستعمرات أو عمرٰان كى يلجأ الإنسان إليها عند إحساس التعب، و لكن هنالك المفاز، لا شجرة فى الطريق يستظل تحتها و بعد هذا التعب الّذى يصيب الناس لايلقون إلاّ عدّواً، لاصديق لهم يواسيهم و يؤانسهم.

٥) "فجلّىَ للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أهبة غزوهم"

كأنّ الأمور كانت فى ظلمات حالكة مظلمة و فى دُجنّات مهلكة و كأنّ الناس كانوا يتخبطون فى ليلة سوداء فتجلّت الظلمات و نشر النور رداءه عليهم و على أمورهم فتجلّت و استنارت، و أصبح الناس يرون

كلّ شئ على حالته. هكذا نرى كلمة "يتأهّبوا أهبـةً" تعبير جميل، و نسمع من هاتين الكلمتين صوتاً يدلّ على أن النّاس يجمعون بعض الأشياء فيخرّ بعضها على الأرض و يتألّف بعضها ببعض، تتكوّن صورة تجهيز الناس للسفر بسرعة عجيبة.

٦) "فأقول فى نفسى: أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بى حتى اشتدّ بالناس الجدّ"

توحى هذه العبارة كأن الآراء و الأحلام كانت تمنعه حينًا بعد حين عن الخروج فى الغزو و قلبه قد خرج أو هو معلّق، اشتدّ بشدّ الدال و الجِدّ بالشدّ كذلك لهاتين كلمتين صوتهما وإيحاءهما له معناه، كلمة يتمادى تدلّ على أن الأخيلة كانت تتأرجح كأرجوحة، و اشتدّ بالناس الجدّ يظهر شدّة الناس فى السرعة .

٧) "حين طابت الثمار و الظلال"

هذه الجملة تتكلم عن طقس خاص و هواء مخصوص، طابت فيه الثمار و الظلال، و هما لا يطيبان حتى يواتيهما الأوضاع الجوّية المتميّزية، لهذه العبارة ظلالها، لأنّ كعباً لم يستعمل "حتى أينعت الثمار" لأنّ الإيناع له معنى محدود و كلمة طابت غير محدود المعنى تشتمل على الإيناع كما تشمل اشتياق الإنسان إليها حتى لا ينقطع عنها أبداً . و هذا هو منظر للاستراحة تحت هذه الظلال و الجنى المعلل.

٨) "و لم أقض أمراً"

استعمل كعب هذه الجملة أربع مرات خلال كلام واحد، ليرسخ فى قلوبنا، كأنّه كان ينفض يديه حين رأى الناس قد تجهّزوا للخروج فى الغزو، و كأنّه يتأسف على تأخّره فيضطرب اضطرابًا شديداً. و كأنّه

يريد الخروج و لم يخرج و كذلك تدل على تردده فيقدم رجلاً و يؤخر أخرى.

٩) "و تفارط الغزو و هممت أن ارتحل فأدركهم و ليتنى فعلت"
استعمل صاحبنا فعل "تفارط" و لم يستعمل تباعد، الوزن واحد و عدد الحروف سواء بسواء و لكن المعنى فى تفارط أقوى من تباعد ، كأن الغزو قد تجاوز عن حدّ التباعد، وجاء بجملة معترضة ليتنى فعلت تدلّ على حسرته على ما فاته من الأوان ، و هذه الحسرة أكثر ثوابا من المساهمة فى الغزو.

١٠) "أحزنني أنّى لا أرى إلاّ رجلاً مغموصا عليه النفاق"
شدّة الحصر كما يعرفه من له إلمام بالنحو و القواعد العربية تدلّ على كثرة المعنى، كلمة مغموص أنسب كلمة لإظهار نفاق شديد فى المنافقين، كأنّهم ليسوا منافقين عاديين بل و كانت الشياطين باضت فى عقولهم و كأنّهم نفاق.

١١) "فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله حبسه بُرداه و نظره فى عطفيه"
جعل البُرد حبسًا و سجناً فلا يستطيع الإنسان المسجون الخروج بإرادته، و لم يستعمل " منعه" لأنّ المنع يكون بالقول أو الأيدى أمّا الحبس فأحسن كلمة استعملها الكاتبُ كأنهّ محصور من جميع جوانبه، نظره فى عطفيه، منظر رائق وصورة أنيقة، و لمنظر جميل لفظ جميل، و تدلّ هذه الصورة على التكبر و الغرور و الدّلال.

١٢) "فلمّا بلغنى أنّه توجّه قافلاً حضرني همّى"
كان فى وسع كعب أن يستعمل عاد من الغزو أو رجع منه و لكنهّ ترك هذين الاستعمالين كليهما و استعمل توجّه قافلاً هذا هو عمل الأديب هو يترك الكلام العادى المبتذل و يستخدم ألفاظاً سهلةً مؤاتية للمكان،

و القفول يستعمل للتجار الذين يحصلون على الأموال الزائدة فيرجعون غانمين كذلك رجع المسلمون غانمين ، "حضرنى همى" توحى هذه الجملة كأن همه كان قد غاب عنه فحضر إليه.

١٣) "و طفقت أتذكر الكذب"

هذا منظر محير كأن الكاتب طرق رأسه على صفحته اليمنى و جعل يفكر الكذب، و هذه اللحظة من الحياة أشد عليه من جميع النازلات التى تنزل عليه، يقع الإنسان فيها فى زحام من الأحلام فيدافع بعضها و يعانق البعض، كأن الكاتب كان قد نسى الكذب عند كلامه بالنبى المصطفى ﷺ فذكر أصحابه له الكذب فتذكر، ولم يقله بل و طفق أن يتذكر، و ما طفق أن يقول.

١٤) "فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عنى الباطل"

ما أحسن أسلوب كعب عندما استعمل كلمة " أظل" فكأن النبى ﷺ ظل يستظله الناس ، ظل العطف و الرأفة و الرحمة ، كل من أصابه الحر الشديد و القر من الهموم و الأحران و النكبات يأتى و يأوى تحت ظلال هذه الشجرة الوارفة الأغصان، فيستريح من التعب و الحرور. لذلك كان قدومه ﷺ ظلا ، و إن الجزء الأخير من هذه العبارة قد يشعر القارئ بأن الباطل كان جامع الشمل لدى كعب فتفرق و تشتت بقدومه ﷺ و لم يستخدم كاتبنا ـ و كان فى وسعه ـ زال عنى الباطل ، لأن "زاح" له ظلاله و له صوره أكثر من كلمة "زال".

١٥) "فلما سلمت عليه ، تبسم تبسم المغضب"

لا يهمنا من هذه الجملة إلا "تبسم المغضب" هذه هى صورة متمثلة حية متحركة ، صورة إنسان غضبان و تبسمه ، وجه غضبان ينكمش و

أساريره تضيق، يزول عنه البشاشة: ولكن هذا وجه رسول الله ﷺ الّذى لم يتعوّد الانكماش و التضيّق، و لكن مع ذلك هناك فرق بين وجه مسرور و وجه غاضب، و هناك بون شاسع بين تبسّم و تبسّم يحسّه كل إنسان فضلاً عن أديب شاعر أوْ شاعر أديب.

١٦) "لقد أعطيت جدلاً"

لايريد كعب هنا أنهّ صاحب جدال و نزال بل ويقصد أنهّ مُنح لسانًا و عقلاً و منطقًا يقدر به على أن يخرجاه من سخط النبى ﷺ بحججه و براهينة ، و لكن أنّى ذلك بين يدي الرسول ﷺ و كان يقدر على أن يقلّب الكذب صدقاً و لكن الرسول ينزل عليه الوحي الّذى يخبره عن كل شئ مهّم.

١٧) "فو اللّه مازالوا يؤنبونى"

هذا التوبيخ و العُنف و الزجر كان من أهل كعب له و أقرباءه. لأنّهم كانوا يريدون أن يكذّب كعب ما قال للنبى ﷺ و هذا التأنيب لم يكن من قبلهم مرّة واحدة بل استمرّوا فيه. فالتوبيخ و العنف و الشدّه لا تؤدّى معنى التأنيب بكامله، فبدل أن يقول وبّخونى توبيخاً شديداً استعمل " أنّبونّى".

١٨) "فاجتنبنا الناس ، و تغيّروا لناحتى تنكّرت فى نفسى الأرض"

اجتناب الناس عن كعب يدلّ على وحشة كعب و كونه منفرداً، وحيداً و فقد كعب مؤانستهم و مواساتهم لأمر الرسول لهم، فأصبحوا منقطعين عنه و أصبح هو أجنبياً بين أهله و أصحابه و تغيرّ الناس له و ضاقت عليه الأرض بما رحبت، لا يتّسع له كان ، فما هى الأرض التى

ألفها و كأنها استكرهت وجود كعب، هذا تعبير جميل عجيب ، و كالفص فى الخاتم ، و لا تؤدى ألفاظ أخر مثل هذا المعنى.

١٩) "و أما أنا فكنت أشب القوم و أجلدهم"

فرب شاب لا يكون جلدا. و كل جلد لا يكون شابا لذلك جمع كعب بين هاتين الكلمتين ليكون المعنى أتم و أكمل و أدق، لم يكن شابا فحسب بل أشبهم ولم يكن جلدا فحسب بل و أجلدهم.

٢٠) "آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه و هو فى مجلسه بعد الصلاة، فأقول فى نفس: هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا؟"

قدم كعب فى هذه الكلمات صورة حية دائبة مجسمة للرسول عليه السلام و لنفسه ، تحريك الشفتين المحمرتين إتيانه إلى مجلس النبى ﷺ و همسه فى نفسه و علاقته بالنبى.

٢١) "ثم أصلى قريبا منه فأسارقه النظر"

كان كعب يتجسس أخيلة النبى ﷺ و يستخدم حيلا دقيقة ليكلمه النبى، كأنه كان عالما بالنفسيات و سكيولوجية النبى ﷺ و هى لا تعرف إلا بقرب و عن كثب: فمسارقته النظر له منظره و مشهده الأنيق الرائع.

٢٢) "ففاضت عيناى و توليت حتى تسورت الجدار"

قد استفاد كعب من تعبير امرأى القيس بقوله:

ففاضت دموع العين منى صبابة حتى بل دمعى محملى

و لكن تعبير كعب أروع و أدق لأنه حذف كلمة "المضاف" و جعل عينيه تفيضان، و استخدم " تسور" مكان "صعد" لأن فى السورة وثبة و ليس ذلك فى الصعود، لذلك هو أقوى و أدق معنى من "صعد"

٢٣) "فتيممت بها التنور فسجرته بها"

لم يستعمل صاحبنا كلمة ألقيتها أو رميت بها بل وجاء بتعبير جديد متجنبا عن تعبير متبذل عامي، ولم يستعمل حرقته ، فسجر إذا استعملناه بالتنور، فمعناه ملأه وقودا و أحماه ، فتعطينا كلمة "سجر" معنيان معنى الملأ و الحرق:

٢٤) "و أنا على ظهر بيت من بيوتنا"

إن كعبا فارس شجاع كان يكون دائما على ظهر فرس في الغزوات مع النبي ﷺ فلم يلبث أن استعمل كلمة "ظهر" مع البيت ، و كان خلفه و ذلك تجنبا عن الألفاظ و التعبيرات المتبذلة.

٢٥) "قد ضاقت على نفسي و ضاقت على الأرض"

ضيق كعب من جانبين، انكمشت له نفسه و أرضه، فلا راحة له و لا سعة، يأتي كعب بألوان من التعبيرات كي لا يمل القارى .ومن قبل استعمل تنكرت لي الأرض.

٢٦) "فخررت ساجدا"

كل ذي ذوق أدبي يفهم ما لكلمة "خر" من إيحاء مع الجو الشعوري و ما لها من صوت لائق له.

٢٧) "ركض إلى رجل فرسا"

هذه هي صورة رجل راكب فرسا ورجلاه مسبلتان على جانبي الفرس يضرب بهما الفرس لحثه على السرعة دون أن يأخذ عصا بيده لضربه فهنا ليس "للسوط ألهوب" كما كان لإمرى القيس بل و هنا "للساق درة، فهو فارس حاذق يعرف من أين يؤكل الكتف ، للركض صوته لا يمكن لكلمة أخرى أن تصورها.

٢٨) "كان الصوت أسرع من الفرس"

سرعتان كانتا تتسابقان و تتبادران إحدهما على الأخرى. سُرعة فرس و فارسه راكض، و سرعة صوْت الفارس ، فتسابقت سرعة الصوت على سرعة الفرس.

٢٩) "فلماً سلّمت على رسول الله، قال رسول الله: وهو يبرق وجهه من الشُرور أبشر بخير يوم مرّ عليك."

هذا هو التصوير الفنى للوجه الّذى استنار من السُرور و تهللّ فرحاً، و هو يبرق له لمعان كلمعان القمر أبشر بخير يوم" تعبير أنيق له وقعة فى القلب.

٣٠) "إذا سرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة من قمر"

كأنّ النبى استعار جزءاً من القمر، تشبيه لا بأس به، فإذا كان وجه النبى قطعة من قمر بلا مرٰاءٍ فانّ تعبير كعب قطعة من أدب دون شك.

٣١) "إنّ من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة"

كأنّ كعبًا كان لابسًا مالاً، و المال يوارى الإنسان من الذّلة و الهوان و مدّ يد السئوال إلى الآخرين، لذلك استخدم صاحبنا هذا التعبير المناسب للمناسبة.

هذه بعض التعبيرات الأدبية الفنيّة التى استخدمها مترجمنا فى غزوة تبوك التى تخلّف عنها، و لا يكون لوُسع أديب أو كاتب أن يُعبّر عن الأشياء الكثيرة فى هذا الكون لعجزه عن التعبير، فيلجأ فى بعض الأحيان إلى الاستعارات و المجازات و التشبيهات مع ذلك يقصر عن وصفها، لأنّها تتعلق بالقلوب فكم يفرح الإنسان برؤية وردة و لكنّه يعجز عن أن يصفها كما أحسّها و شعربها من سرور،

كذلك أحسست أنّى لم أتمكّن من التعبير عماّ شعرت بنثر كعب من فرح، و أمّا ماكتب النُّقاد عن النثر الفنى و ما فرضوا على الأديب من قوانين و أصول أودعتها فى التمهيد تنطبق كلّ الإنطباق على نثركعب.

هذا، و لكعب أدب قصصى مرموق أنيق خصصنا له فصلاً من كتابنا هذا و ذلك ما رواه فى البيعة العقبة الثانية التى تناقلتها الكتب التأريخية و أصحاب السير و الحديث. و قبل أن نبحث عنه نودّ نقل ما قال رئيس التحرير للبعث الإسلامى الأستاذ سعيد الرحمان الأعظمى الندوى عن نثره يقول:

> "هذا نموذج من كلامه يدلّ على علّو كعبه فى الأدب المنثور البليغ واقتداره على البيان المؤثر الأخّاذ و الأسلوب القصصى البليغ مع ما كان له من مكانة عالية فى الشعر لا يدانيه كثير من شعراء العرب"١٦

إنّ عهد كعب أقرب من العهد الجاهلى منه إلى العهد الجديد الحديث، بالرغم ذلك نرى نثره أقرب من نثر ارتقائى حديث، كيف أمكن له هذه القفزة الفائزة فى الأدب، ذلك ما يتعلق بذ كاءه المفرط و عقله الشاعر. لا نفرّق إذا وازنّا نثره بنثر ترعرع و نشأ حتى وصل إلى ذروته السامية - فى عهد الازدهار و التقدم. و ذلك هو علو كعبه و أكبر شأنه.

١.	المعجم المفصّل فى الأدب الجزء الثاني	الدكتور محمّد التونجى	دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان الطبعة الأ ولى ١٩٩٣م
٢.	المعجم المفصّل فى الأدب الجزء الثاني	الدكتور محمّد التونجى	دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان الطبعة الأ ولى ١٩٩٣م
٣.	تأريخ الأدب العربى	الدكتور عمر فرّوخ ص: ٢٥٤	دار العلم للملايين الطبعة الخاسة ١٩٨٤
٤.	تأريخ الأدب العربى	الدكتور عمر فرّوخ ص: ٢٥٤	دار العلم للملايين الطبعة الخاسة ١٩٨٤
٥.	تأريخ الأدب العربى	الدكتور عمر فرّوخ ص: ٢٥٤	دار العلم للملايين الطبعة الخاسة ١٩٨٤
٦.	العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأوّل	ابن الرشيق ص: ٧	طبع بمطبعة حجازى بالقاهرة عام ١٩٣٤م الطبعة الأولى
٧.	العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأوّل	ابن الرشيق ص: ٨	طبع بمطبعة حجازى بالقاهرة عام ١٩٣٤م الطبعة الأولى
٨.	دارسات في النقد الأدبى	د/حسن جاد حسن ص: ٦	المكتبة الندوية دار العلوم ندوة العلماء
٩.	دارسات في النقد الأدبى	د/حسن جاد حسن ص: ٦	المكتبة الندوية دار العلوم ندوة العلماء
١٠.	دارسات في النقد الأدبى	د/حسن جاد حسن ص: ٦	المكتبة الندوية دار العلوم ندوة العلماء
١١.	العمدة في محاسن الشعر و آدابه الجزء الأوّل	ابن الرشيق المصرى ص: ١٠٣	طبع بمطبعة حجازى بالقاهرة عام ١٩٣٤م الطبعة الأولى
١٢.	العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأوّل	ابن الرشيق المصرى ص: ١٠٦	طبع بمطبعة حجازى بالقاهرة عام ١٩٣٤م الطبعة الأولى
١٣.	العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأوّل	ابن الرشيق المصرى ص: ١٠٨	طبع بمطبعة حجازى بالقاهرة عام ١٩٣٤م الطبعة الأولى
١٤.	العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأوّل	ابن الرشيق المصرى ص: ١٠٨	طبع بمطبعة حجازى بالقاهرة عام ١٩٣٤م الطبعة الأولى
١٥.	يتيمة الدهر الجزء الرابع	أبو منصور عبد الملك الثعالبى النيشابورى ص: ٢٤٠	نقلا عن العمدة الجزء الثانى طبع بمطبعة حجازى بالقاهرة عام ١٩٣٤م الطبعة الأولى
١٦.	البعث الإسلامى (مجلّة)	مقالة الأستاذ سعيد الأعظمى الندوى المحرم الحرام ١٤٠٤	ند وة العلماء لكنؤ الهند.

القصّة و مزاياها

قبل أن نبحث عن مكانة كعب فى سرد نثره القصصى لابدّ لنا من أن نتكلّم عن القصّة نفسها فقد راجعنا كتابين مهمّين فى هذا الصدر و هما: "المعجم المفصّل فى اللغة و الأدب" للدكتورين ميشال عاصى و أميل بديع يعقوب. و المعجم المفصّل فى الأدب" للدكتور محمّد التونجى، أمّا ما ذكر الدكتوران فهو:

"القصّة فى المدلول الشامل للكلمة، لون من ألوان الأدب القصصى الذّى يروى الأخبار، على أنواعها، و يعرض الأحداث، و ينقل المآثر و يسوق الحكايا و النوادر، و ينسج الأساطير و الخرافات: طلبًا للمتعة و الفائدة"١

و يقول الدكتور محمد التونجى:

"وهى إحدى طرق التعبير عن الأحاسيس و المشاعر و وصف الحياة"٢

وَ ذكر عن شروط القصّة الفنّية:

"و للقصّة شروط فنيّة ، أساسها العقدة أو الحبكة، و لها عرض ثم خاتمة، و يجب أن يكون الأسلوب فيها مناسبًا للأبطال و الأحداث. و تعتمد القصص على السرد و الوصف بخلاف المسرحيّة و محورأغلب القصص هو المرأة، و حبّ الرجل لها، و بالإضافة إلى الفروسيات و المغامرات"٣

أماً من الناحية التأريخية فهى أقدم من الملحمة و الأسطورة و المسرحية، و القصّة هى أصل لهذه الثلاث و هى قديمة كقدم ميل الإنسان إلى سرد حكايات جرت

معه منذ قديم الزمن لكونها واسطة التعبير و أداة التعليم و محور سمر و مناجاة و هى تحمل ثمرة الخيال و المعتقدات و أصداء التجارب الإنسانية و المعاناة المصيرية، و ترسم أبعاد الإنسانية، و فى ضمن مدلولها العام تداولتها الأمم و الشعوب فى مختلف الأمصار و الأزمان. يقول الدكتور محمد التونجى:

"و تعدّ جلقامش أقدم قصّة وصلت إلينا، فقد كتبت فى الألف الثالث قبل الميلاد على اثنى عشر لوحًا بالخط المسمارى ، ثم برزت قصص اليونان العشيقة ، فالقصص اللاتينية، واستمرّ فن القصص يسمو حتى ارتقت قصص الفروسية فى العصور الوسطى"٤

هذا، و قد ذكر الدكتور الموصوف أقسامًا من القصّة منها: قصص الشطّار ، و القصص الاجتماعية و قصص التقاليد و القصص الفلسفية يقول:

"و من أقدم القصص الفلسفية مأدبة العشاء ***Symbosium*** لأفلاطون وعند العرب رسالة الحيوان و الإنسان لإخوان الصفا و قصص ابن سينا و ابن طفيل"٥

تتغير القصّة حسب مضمونها و مشمولاتها فقصّة الأشباح تثير الرعب و الدهشة و الفزع و تهدف إلى النصح و الموعظة، و قصّة الأطفال تعتمد على الأساطير و الخرافات و القصّة البوليسية تحكى سراً حول احدى الجرائم فكيشفه رجل البوليس السرّى مستنداً إلى قرائن و تصريحات. و قصّة الجامعة قصّة شعبية بحتة يرويها راو واحدٌ، تتكوّن من حكايات مختلفة يربط بينها الراوى مثل قصة ألف ليلة و ليلة.

و قصة الحيوانات بطلها يكون حيوانًا و تبدو فى القصص الرمزى كثيراً و القصة الخيالية تعتمد على الخيال و يربطها المؤلّف أو الكاتب بالواقع. و قد تكون قصة داخل قصّة يقول عنها الدكتور محمد التونجى:

"(هى)"سرد لقصّة طويلة يعترضها سرد آخر مكور و بعد انتهائها تتابع القصّة الطويلة سردها وتعتمد القصّة الثانية أو الثالثة على نوعٍ من الاستطراد المعتمد على التشابه والتذكير كقصص كليلة و دمنة و قصص شهرزاد"٦

و القصّة الرمزية تشمل جميع أنواع القصص حتى القصص الفلسفية مثل " حى بن يقظان" أو القصص الأدبية مثل "رسالة الغفران" للمعرى و قصص الحيوانات. أمّا القصّة الشعبية فهى تصدر عن الشعب نفسه واقعية أوخيالية ، و ميزتها عدم الاحتفال بالأسلوب الفنى، و القصّة الشعرية تكتب للإنشاء أو الغناء فتزخر بالأمثال الشعبية و الموعظة تتكون من مقاطع قصيرة. و هنالك القصّة العاطفية ففى الأغلب تشتمل على الحبّ بين الإثنين.

هذا ، و قد تتفرع من القصّة قصتا العلمية و الفلسفية ففى الأولى تكون افتراضات علمية و استنتاجات منطقية الثانية تعتمد على الفلسفة و شرح الأفكار و هكذا.

أمّا القَصَص العربى فيفيدنا الدكتور ميشال عاصى و الدكتور اميل بديع يعقوب:

"و أقدم ما وصلَنا من القصص العربى المدوّن هو القصص الدينى الّذى يتوخّى العبرة و العظة و الّذى اتّسع نطاقه فى عهد الخلفاء الراشدين و اشتهر به تميم الدارمى و ازداد اتساعًا فى العصر الأموى حيث

برزت طائفة من القصّاصين الدينيين فى المساجد
تروى أخبار الأنبياء و الأولياء الصالحين"٧

ازدهرت القصّة فى العهد العباسى ازدهاراً مرموقاً و رزقت أعلاماً مثل ابن المقفع و الجاحظ و أبى الفرج الأصفهانى و الحريرى و بديع الزمان الهمدانى و أمّا بعد هذا الازدهار فى عصور الانحطاط فيقولان عنها:

"و فى عصور الانحطاط تعاظم مجرى القصص الشعبى و أوغل فى المبالغات اللامعقولة و ذكرِ أخبار الجان و العفاريت و الغيلان و ذاعت على هذا الأسلس قصة عنترة و سيف بن ذى يزن"٨

ثم ترقت فى عصر النهضة بفضل ازدهار الصحافة التى كانت لها دور فاعل فى بلورة عناصرها الفنية و برزت لها أعلام تثقّفوا الثقافة الأوربية الحديثة ، يقول الدكتور محمد التونجى:

"و لم تنضج إلاّ بعد أن نقلت قصص الغرب إلى العربية ، لتأخذ بعدها دورها فى الناحية الفنيّة الحديثة الناجحة على أيدى محمود تيمور، أبى حديد، طه حسين ، الحكيم، المازنى"٩

ما ذكرنا قصة القصّة إلاّ لتمهّد لنا الطريق للوصول إلى مكانة كعب فى النثر القصصى ، لأنّ نثره القصصى هو مزيج أقسام كثيرة من القصّة ففيه رعب و دهشة، و موعظة و نصيحة و قصّة داخل قصّة أخرى.

تحليل أدب كعب القصصي فى ضوء حديثه عن العقبة

نثر كعب كلّه نثر قصصي جميل سواء يتعلق بروايته عن غزوة تبوك أوبقصّة العقبة يسنح لكل بطل فرصة التكلم المباشر، و قد أوردنا كلتيى القصتين فى بحثنا هذا فى مكانهما نريد هنا أن نتكلمّ عن بعض العبارات متجنّبين عن طول الكلام. و سيرى القارئ أن أسلوبه هو أسلوب القرن العشرين فى نثر أدبى بسيط سهل ممتع، لا يقبل الشرح و التفسير فى ألفاظ أخّاذة خلاّبة. فمن كلامه:

١) "قال البراء لنا: يا هؤلاء ، إنىّ قد رأيت رأياً، فو الله ، ما أدرى أ توافقونني عليه أم لا؟ قلنا و ما ذلك؟"

هذا هو أسلوب القصّة.ألفاظ سهلة لا تحتاج إلى فتح معجم للبحث عن معانيها، و لكن لها نوطة بالقلب، فيها استفسار و استفهام و إخبار و جواب.

٢) "فقال: إنىّ لمصلّ إليها. فقلنا له: لكنّا لا نفعل"

٣) "فقال هل تعرفانه؟ فقلنا لا : قال: فهل تعرفان العباس بن المطلّب عمّه، قلنا: نعم"

٤) " فنتسلّل تسلّل القطا مستخفين: حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة"

فى العبارتين الأوليين كلام مجلس يدور حول تاكيد بشئ من شخص و بالإنكار المؤكد من شخص آخر و بأسئلة و إجابة. و أمّا فى العبارة الأخيرة فقد عبّر كعب عن تلك الصورة و المشهد المتحرك الّذى شوهد فى جوف ليلة مظلمة ، فأصحاب كعب ساهرون بين مشركين نائمين يريدون لقاء الرّسول و وضع أيديهم على يدى رسول الله و هم خائفون من مشركى مكة و المدينة أن لا تقع أنظارهم

عليـهم فينـهضون و يتسـلّلون رويـداً رويداً كأنـهـم لا يضعـون أرجلـهم علـى الأرض فيسـمعوا خريرهـا، و يسـتخفون ان لا تقع أقدامـهم فـى الليلـة الحالكـة علـى جسـم أحـد مـن هـؤلاء، فليسـت هنـالك صـورة أدق و أرق و أشمـل و تمثيـل آنـق مـن أن يشـبه كعـب تسـلّله و تسـلّل صحابـه فـى هـذه الحالـة الحرجـة بتسـلّل القطـا:

٥) "و إنهّ أبى إلاّ الانحياز إليكم و اللحوق بكم"

الانحياز هو الإنقطاع عن جماعة إلى جماعة أخرى ، إذا كـان إنسان بين القوم فقام من مكانه و أصبح موضع جلوسه فارغًا، لا يسدّ مسدّه آخر كل هذه صورة و منظر، و كانّ الناس ينظـرون إلى هـذا الشخص الّذى نهض و ترك مكانه ثم ذهب إلى جماعة أخرى و لحق بها.

٦) "ورثناها كابراً عن كابر"

تعبير كابراً عن كابرٍ أعمّ مـن تعبيـر " أبًـا عـن جـدٍ" أو عـن الآبـاء و الأجداد ، و ذلك تعبير يستعمله كل إنسانٍ فتركـه كعـب و اسـتعمل هذا التعبير العالى.

٧) "إن بيننا و بين قومنا حبالاً و إناّ قاطعوها"

كأنّ حبلاً يشدّ بينهم و بين قومـه و يعصمـهم ، فإذا قطـع تفرّقـوا و تشتّتوا، و هنا أريد العهد و الميثـاق ـ لأن العـهد كذلـك يجمـع بـين الأقوام و الأفراد . فإذا تبرّأوا عنه وقـع الخـلاف بينـهم هـذا تشبيه بليغ رائع جدا.

٨) "بل الدّم الدّم، الهدم، الهدم، أنا منكم ، و أنتم منّى، أحـارب من حاربتم ، و أسالم من سالمتم"

هـذه عبـارة النبـى ﷺ حفظـها لنـا كعـب، أو مفـهوم عبارتـه و كلامه ﷺ فيها ما فيها مّن الصور المخيفة صورة دمـاء خرجـت مـن العروق ، و صورة هدم ، صورة الإئتلاف و الموانسة و مشهد حرب و سلم.

٩) "فلمّا بايعنا رسول الله صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت ما سمعته قط"

١٠) "يا أهل الجباجب"

١١) "إن شئت لنميلنّ على أهل منىً عذابًا بأسيافنا"

استعمال اسم تفضيل - أنفذ - استعمال يروّع الإنسان ، و فيه تخويف و تهديد و تنذير، كذلك استناد صرخ إلى الشيطان صورة مخوّفـة بيد أن "نفذ" يستعمل بالنصال و السهم، فكأن الصوت كان أنفذ مـن نفـوذ السهام.

لم يستعمل الكاتب أهل المنازل بل و استخدم كلمة جباجب لما فيـها باءان و جيمان لها صوت أنيق رائع و خلاّب.

لفظ "لنميلنّ" فيه اندفاع شديد، و تجمّع ثـم هجـوم و حملـة و يُرينـا مشهداً مروّعاً للحرب و الضرب.

١٢) "فلمّا أصبحنا غدت جلّة قريش"

١٣) "فتنطّس القوم بالخبر"

لكلمـة جلّـة نغمـة ليستلكلمـة أشراف أو أكابر، ولهـا موسيقى عجيبة كأنّها تضرب أوتار القلب الخفّاق.

و للفظة التنطّس صوت داخلى و خارجى يحيّر الإنسان ، و هو تودّى معانى كثيرة فالناطس هو الجاسـوس و تنطّـس معنـاه دقّ النظـر فـى

الأمور و استقصاه، و يقال فلان يتنطّس فى ملبسه و مأكله يعنى يتأنق فيه أو هو يتنطّس فى كلامه، فما أنسب هذه الكلمة فى التعبير عن هذه المعانى كلّها وما أوقع أغنيّتها على القلب.

١٤) " فأمّا المنذر فأعجز القوم ، أمّا سعد فأخذوه"

١٥) "فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله"

١٦) "ثم اقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، و يجذبونه بجمّته"١٠

عجز القوم عن إدراك المنذر، فهم كانوا يسرعون وراءه لأخذه، هذا مشهد رجل مُسرعٍ هارب خلفه رجال كثيرون و لكن الهارب أسرع منهم فعجزوا عن أخذه ، و أماّ سعد فأخذوه لعدم سرعته، و أمّا ربط اليدين إلى العنق بنسع الرحل فصورة رجل عاجز و قاصر و مظلوم و مغلوب، لا يستطيع أن يفعل شيئًا.

ادخلوه مكة فى حالة الضرب و كل يخذبه إليه و الجذب بالجمّة تصوير فنى مروّع لرجل مقهور و مغلوب.

هذا، لم ننقل هنا قصّة كعب بكامله فليراجع للإطلاع على المزيد العقبة الثانية و غزوة تبوك.

و قد راعينا هنا أن نفصّل الكلام على بعض مفرداته التى استعلمها لخلق القصّة، أمّا عدم اهتمام الدكاتير الثلاثة فى معجمهم بكعب و أهمّيته فى النثر الأدبى فذلك يرجع إلى أنّهم ذكروا العهد النبوى من حيث المجموع، و فى ذلك المجموع يشمل كعب كما يضمن الآخرون من النُّثار.أعجبت بنثر كعب كلّه إلاّ أن إعجابى كان أكبر بهذه التعبيرات التى جعلتها موضع الدِّراسة ، فالإعجاب بشئ واستحسانه يتعلق

بذوق الإنسان، و الذوق هو العمدة فى النقد الأدبى ، و لا نعنى بالذوق كل ذوق يقول أحمد الشائب فى كتابه أصول النقد الأدبى:

"إنمّا نعنى الذوق المهذب الّذى صقله الأدب و شحّذته القريحة و جلّته الفطنة ، و ألهم الفصل بين الردى و الجيد"١١

و أمّا الدكتور محمّد على الهاشمى فيقول فى كتابه "كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الشاعر الأديب"

"و ما أجمل تعابيرة: حضرنى بثّى، زاح عنى الباطل ، و أجمعت صدقه وكان تعقيب النبى بالغ الدلالة على صدقه و على كذب المخلفين المعتذرين قبله ، أمّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك، و ما أجمل تعبير كعب: تغيّروا لنا ، حتى تنكّرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى اعرفها ، و هذه أيضًا من البلاء، و قول رسول الله فيه : أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك ، أمن عندك يا رسول الله أم من الله؟"١٢

هذا ، و قد استحسن ابن حجر العسقلانى التعبيرات الآتية لكعب بن مالك رضى الله عنه يقول:

"و تخلّف فى تبوك و هو أحد الثلاثة الّذين تيب عليهم، و قد ساق قصّة فى ذلك سياقًا حسنًا وتعابيره : تفارط الغزو، و لقد اعطيت جدلاً حتى تنكرت لى الأرض ، ففاضت عيناى، و توليت فيتمّمت بها التنور فسجرته"١٣

يقول ابن سلاَم الجمحى فى كتابه "طبقات فحول الشعراء" عن الذوق:

"هو ذوق مثقف خبير فى الفن ، عاش فيه، و أضنى عقله ، و أفنى عمره فى الإدمان و الممارسة"١٤

إنّ هذا الكلام ينطبق كلّ الانطباق على الأديب العلّامة أبى الحسن على الحسنى الندوى ، فان كتابه "المختارات " قد حوى نثر كعب كأنّه قد تذوّق نثر كعب فاختاره، و الاختيارات تدل على ذوق الإنسان ، فلم يختر العلامة الندوى نثره إلاّ بتأثره به. يقول فى مقدمة المختارات:

"إقرا معنى حديث كعب بن مالك عن تخلّفه عن غزوة تبوك و هو موضوع دقيق محرج، يطلب منه الصراحة و الاعتراف بالتقصير، و الشهادة على النفس، و يطلب منه تصوير ذلك الجو القاتم العابس الّذى عاش فيه خمسين ليلة، و يطلب منه تصوير الخواطر التى كانت تجيش فى صدره و تساور نفسه و هو يعيش فى جفاء و عتاب ممن يحبّهم و تربطه بهم العقيدة و العاطفة، لا يجد لذة فى فراقهم و لايرى فى الدينا عوضًا عنهم، و تصوير تلك الصلة الروحية و الحب العميق الّذى يربطه بالنبى ﷺ ربطًا وثيقًا محكمًا ، لا يحلّه العتاب و العقاب، ولا يضعفه إقبال الملوك عليه و توددهم إليه و تصوير ذلك السرور الّذى غمره على إثر قبول توبته، ما أصعب هذا الموضوع ، و ما أكثر تعقداً و رقة ، و لكنه ببلاغته العربية يتغلب على هذه المشاكل النفسية و الأدبية ، يترك لنا ثروة نعتز بها"١٥

نظراً إلى هذا كله نعتقد أن كعبا الخزرجى هو أديب بارع ماهر سرد الأحداث فأحسن السرد، له مكانة عالية مرموقة فى الأدب العربى، هذا ماشعرنا به عندما عشنا نثره و تذوّقناه.

١. المعجم المفصل فى اللغة والأدب الجزء الثاني - د/ميشال عاصى و د/أميل بديع يعقوب ص: ٩٧٩ - دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٧ الطبعة الأولى.

٢. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثاني - د/محمد التونجى ص: ٧٠٧ - دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م.

٣. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثاني - د/محمد التونجى ص: ٧٠٧ - دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م

٤. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثاني - د/محمد التونجى ص: ٧٠٧ - دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م

٥. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثاني - د/محمد التونجى ص: ٧٠٧ - دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م

٦. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثاني - د/محمد التونجى ص: ٧٠٨ - دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م

٧. المعجم المفصل فى اللغة و الأدب الجزء الثاني - د/ميشال عاصى و د/أميل بديع يعقوب ص: ٩٨١ - دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٧ الطبعة الأولى

٨. المعجم المفصل فى اللغة و الأدب الجزء الثاني - د/ميشال عاصى و د/أميل بديع يعقوب ص: ٩٨١ - دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٧ الطبعة الأولى

٩. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثاني - د/محمد التونجى ص: ٧٠٧ - دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م

قصة العقبة الثانية أوردها معظم كتب التأريخ والسير فى ثناياها مثل البداية والنهاية وسيرة بن هشام و غيرهما و قد سقنا هذه القصة من قبل فى كتابنا هذا فليراجع

١٠. أصول النقد الأدبى - د/أحمد الشائب ص: ١٨٠ - طبعه مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة الطبعة الثامنة مزيدة منقحة

١١. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الشاعر الأديب - د/محمد على الهاشمى ص: ٣٧٩ - الطبعة الأولى ١٩٨٥ لم تذكر المطبعة

١٢. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الشاعر الأديب - د/محمد على الهاشمى ص: ٢٢٢ - الطبعة الأولى ١٩٨٥ لم تذكر المطبعة

١٣. طبقات فحول الشعراء الجزء الأول - محمد بن سلّام الجمحى ص: ٢٢٣ - مطبعة المدنى القاهرة ص: ٢٢١

١٤. المختارات الجزء الأول - أبوالحسن على الحسني الندوى ص: ٩ - مكتبة دار العلم ندوة العلماء لكناؤ الهند سنة ١٩٨١م

ما هو الشعر

إنّ صاحب معجم "لسان العرب" العلاّمة اللغوى ابن منظور استعرض كلمة "شعر" استعراضاً دقيقًا و عميقا نودّ هنا أن نفيد القارئ بشيئ من ذلك الاستعراض كى نتمكّن بعد من تحديد معناه ليتحقق لنا به ما نريد من تفريعاته، و إن كانت هذه التفريعات كلّها تدور حول معنًى واحد أو يتعدّى إلى آخر. ذكر العلامة المذكور:

شعَر به و شعُر يشعر، شعراً و شَعراً و شِعرة و مشعورة و شعوراً و شعورة و شِعرى و مشعوراء و مشعوراً . . . كلّه بمعنى علِمَ. و حكى اللحيانى عن الكسائى: ما شعرتُ بمشعورة حتى جاءه فلان. . . . ليت شعرى أى ليت علمى أو ليتنى علمت.

تستعمل هذه الكلمة ـ شعر ـ بصلة "اللام" و "عن" و بدون صلة، حكى اللحيانى عن الكسائى النحوى هذه الاستعمالات الثلاثة بالأمثلة إلاّ أن اللحيانى أنشد شعراً عن هذه الاستعمالات و هو:

يا ليت شعرى عن حمارى ما صنع
وعن أبى زيدٍ وكم كان اضطجع

ليت شعرى مسافر بن أبى عمـ
رو، و ليتٌ يقالها المحزون

يا ليت شعرى عنكم حنيفا
و قد جذعنا منكم الأنوفا ٢

و المزيد الثلاثى من فعل "شعر" هو "أشعر" بمعنى أعلم ، استعمله القرآن الحكيم - وَمَاْ يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَاْ جَآءَتْ لَاْ يُؤْمِنُوْنَ.٣

و هنالك فرق يسير بين أن نستعمل صلة "با" و "على " مع المزيد الثلاثى إذا استعملناه مَع "با" فمعناه اطّلعت عليه وإذا استعملناه بصلة على فمعناه أطْلَعْتُ عليه. و شعر لِكذا معناه: فطن له، و بكسر العين شعِر فمعناه ملك عبيداً و إذا حملنا "شعر" على باب الاستفعال فيعطينا معنى آخر مع ذلك المعنى الّذى نعرفه و هو أخذ شعاراً. يقول ابن منظور:

"تقول للرجل استشعر خشية الله أي اجعله شِعار قلبك"٤

و ممّا يتعلق من كلامه على كلمة "الشّعَر" مباشرة هو قوله:

"الشِّعر :منظوم القول غلب عليه لشرفه بالوزن و القافية وإن كان كلّ علم شعراً من حيث غلب الفقه على علم الشرع، والعود على المندل ، والنجم على الثّريا. . . و ربمّا سموا البيت الواحد شِعراً حكاه الأخفش"٥

هذا ، و قد حكى هذا اللّغوى نفسه قول الأزهرى اللُّغوى و هو:

"الشِّعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها، والجمع أشعار وقائله شاعر لأنّه يشعر ما لا يشعره غيره، أى يعلم"٦

و ذكر الفرق بين "شعَر" بفتح العين "و شعُر" بضمّ العين، و هو : شعَر قال الشِّعر و شعُر أجاد الشعر، لم يذكر هذا الفرق بتحقيقه بل نسبه إلى من لم يذكر اسمه ، لأنّه استعمل فعلا مجهولاً و هو: قيل. نظراً إلى هذا البحث نستطيع أن نخوض فى شعر كعب مع إضافة أقوال الأدباء.

فالشعر لغة العلم و الإحساس بشئ منه الشعور، و اصطلاحًا كلام موزون،

يقول الدكتور محمّد التونجى فى كتابه المعجم المفصل فى الأدب:

"قال خليل: هو ما وافق أوزان العرب، و قال غيره: هو الكلام الموزون المقصود به الوزن المرتبط بمعنى و قافية: و لا يكفى أن يكون الشعر موزون الكلام بل يجب أن يضم معنى متميّزاً عن معنى العامة، موافقاً للذوق العام"٧

و الشعر هو موهبة فطرية يهبها الفاطر أحداً، فيرسل كلامًا ذا إيقاع و جرس و يحتوى على صُور و خيال رائع و معنى و أفكار لا تخطر على بال الناس، و الناس لا يقدرون على الملكة التعبيرية التى يقدر عليها الشعراء قد وصفه الدكتور ميشال عاصى و الدكتور اميل بديع يعقوب فى كتابهما "المعجم المفصل فى اللغة و الأدب" بما يأتى:

"و الشعر بوصفه تعبيراً إبداعياً بلغة اللسان عن معاناة، إنسانية، هو أحد أنواع الفنون الجميلة الخمسة: الرسم و الرقص، و الموسيقى و النحت، و الشعر، وهو مثلها جميعًا صناعة فنية يعبّر بها التعبير الجميل عن حالات النفس البشرية."٨

ينقسم الشعر فى الاصطلاح المتداول إلى الشعر الغنائي و الشعر القصصي و الشعر التمثيلي و هذه الأقسام هي رئيسية عند الدكتور أحمد الشائب و أضاف إليها الدكتوران السابقان قسمين آخرين الشعر الملحمى و الشعر الحكمي و التعليمي و أفادا بأنّ هذه الأقسام الخمسة عندهما هي فى مقابل الأنواع النثرية:

"و ذلك فى مقابل الأنواع النثرية ، كالمقالة و المقامة و القصة و النقد و الأبحـــاث الفكريـــة و العلميـــة، و المناظرات و الرسائل و الأمثال الخرافية و الحكم"١٠

تقسيم الشعر إلى هذه الأقسام الثلاثة هو تقسيم غربى يقول الدكاتير الأربعة أحمد أمين ، طه حسين، عبد الوهاب عزّام و محمد عوض محمد فى كتابهم "التوجيه الأدبي"

"يقسم أدباء الغرب الشعر عامة إلـــى ثلاثـــة : شـعر قصصي أو شعر الملاحم و شعر غنائي أو إنشـــادي، وشعر تمثيلي أو مسرحي"١١

نظراً إلى هذه العبارة المقتبسة من "التوجيه الأدبى" يدخل الشعر الملحمى فى الشعر القصصى ، فما أضاف صاحبا كتاب "المعجم المفصل" إلاّ الشعر الحكمىّ و التعليمى إلى هذه الأصناف ، و أصحاب " التوجيه الأدبى " قد ذكروا ما هو معروف لدى كل إنسان من له إلمام ما بالأدب و تأريخه إلا أن أبا تمام[١٢] قد قسم الشعر إلى عشرة أبواب و هى: الحماسة، المراثى ، الأدب، النسيب، الهجاء، المديح، الصفات، السير، الملح و ذم النساء. و أودعها الحماسة و لكنهم رأوا أن الأقسام الأخيرة الثلاثة و هى السير و الملح و ذم النساء ليست بذات خطر، فبقيت سبعة أبواب، يقولون:

"و هذا الترتيب بحسب الأهمية قـد يناسـب العصـر الجاهلى و الإسلامي و لكنه لا يناسب العصور التـى جاءت بعد ذلك"١٣

مهما كان الأمر فان الشعر الصحيح ينبعث دائماً عن إحساس قوى عمّا سواه من الاحساسات المألوفة فهو الّذى يستطيع أن يتخذ لغة خاصة متجانسة للتعبير عن

ذلك الإحساس، و إن لكلا الجانبين ـ جانب المعنى و اللفظ أحدهما روح و ثانيهما جسد ـ تأثير قوى فى النفس.

يقول أصحاب "التوجيه الأدبى" عن خلاصة الشعر:

" إنّ الكلام الّذى يسمّى شعراً يجب أن يستوفى أركانًا ثلاثة أنْ تكون المعانى ممّا ولّده الخيال، و أن يكون اللفظ متخيّراً بحيث يلائم طبيعة الشعر الخيالية و الموسيقية، وأن تكون الألفاظ ذات انسجام خاص هو الّذى نسميّه الوزن"١٤

ذكر صاحب العمدة ابن الرشيق المصرى أقوال الأدباء و النقّاد فى كتابه هذا عن الشعر لا مفرّ لنا من ذكرها و لا مناص إذ نحن بصدده منها:

"قال بعضهم، شاعر، شاعر، شويعر و شعرور، و سمّى الشاعر شاعراً لأنّه يشعر بما لا يشعره غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد المعنى و لا اختراعه و لا استظراف لفظ كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة"١٥

قال حسان بن ثابت الأنصارى:

و إنّما الشعر لب المرء يعرضه

على المجالس إن كيسًا و إن حمقا ١٦

و قال عمرو بن عثمان البحر الجاحظ:

"من صنع شعراً أو وضع كتابًا فقد استهدف، فإن أحسن فقد استعطف و إن أساء فقد استقذف"١٧

و قد قيل[١٨] الشعراء أربعة خنديد، مفلق، شاعر فقط و شعرور و أمّا الأول منهم فيجمع إلى جودة شعره رواية، و الثانى هو مجوّد إلاّ أنّه ليست له رواية و هو كالخنديد، و شاعر هو فوق الردى بدرجة و الأخير هو لا شئ و من أقوالهم:

" الشعر شعران: جيد محكك، و ردئ مضحك، و لا شئ أثقل من الشعر[١] الوسط و الغناء الوسط"١٩

حوى نفس الباب" باب فى الشعر و الشعراء" من العمدة قول المفضل الضبي عندما سئل: لم لا تقول الشعر و أنت أعلم الناس به؟ قال: علمى به هو الّذى يمنعنى عن قوله. هذا، و قد قال بعض الأدباء:

" إنّ الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل ، أهول ما يكون على العالم"٢٠

إنّ جوهر الشعر ليس إلاّ التأثير الشديد فى النفس، و هو يتعلق بقلب الإنسان و لا يلجأ إلى المنطق و العقل و الحجة و الدليل،و هو يؤثّر فى الروح فيستفزها و يحثها فى نفس الإنسان ، لا يحرّض العقل. و العاطفة، مركزها قلب الإنسان ليس إلاّ. يفيدنا مؤلّفوا التوجيه الأدبى بما يتعلق بموضوع الشعر:

"ومن العبارات المألوفة فى بعض كتب الأدب، أن موضوعات الشعر ثلاثة: الإله، الطبيعة، و الإنسان ،و لكن هذه العبارة لا تختلف عن قولنا، إن موضوع الشعر هو كل شئ، و مهما كتب الإنسان أو ألّف فى أدب أو علم فإنه لا يستطيع الخروج عن تلك الموضوعات الثلاثة، سواء أ كان ذلك فى العهد الجاهلي، أم فى عهود المدنية و الحضارة"٢١

تكلّم ابن الرشيق و ابن قتيبة الدينورى عن حدّ الشعر و قواعده و بناءه كلامًا لا بأس به و خلاصته هى: الشعر يقوم بعد النيّة من أربعة أشياء و هى: اللفظ و الوزن و المعنى و القافية وكل هذا حدّ الشعر. و قواعده أربع: الرغبة و الرهبة و الطرب و الغضب و بناءه على أربعة كذلك. و هى: المدح و الهجاء و النسيب و الرثاء: فإذا كان الشاعر يرغب فى شئٍ يتولّد منه المدح و الشكر و مع الرهبة يتولّد الاعتذار و الاستعطاف، و إذا كان الشاعر فى حالة طرب فتسبّب الشوق و رقة النسيب، و إذا كان غاضبًا على أحدٍ فلا يكون إلاّ الهجاء و التوعد و العتاب الموجع. دليل هذا كلّه يؤيّد بقول أرطاة بن سُهيّة الشاعر عندما سأله عبد الملك بن مروان: أ تقول الشعر اليوم؟ فقال:

"و الله ما أطرب و لا أغضب، و لا أشرب ، و لا أرغب، و إنما يجئ الشعر عند إحداهن"[٢٣] .

و البيت من الشعر كالبيت من الأبنية قراره الطبع و شمله الرواية و دعائمه العلم و بابه الدُّربة و ساكنه المعنى،و لا خير فى بيت غير مسكون، و صارت الأعاريض و القوافى كالموازين كالأوتاد للأخبية، فأمّا ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنّما هو زينة مستأنفة، و لو لم تكن لاستغنى عنها.٢٤

نعم، لا بدّ للشاعر من أن يكون يتحلّى بالعلم و الرواية ، فإن لم يكن له علم و لا رواية ضلّ و تاه،لأنّهما آلتان مهمّتان له فى صنع الشعر يقول ابن الرشيق:

"ربّما طلب المعنى، فلم يصل إليه وهو مائل بين يديه لضعف آلته كالمقعد يجد فى نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة، لابدّ للشاعر أن يأخذ نفسه بحفظ الشعر و الخبر و معرفة النسيب و الأيام و ضرب الأمثال"٢٥

ضرب لنا ابن الرشيق مثلاً للرواية فقال:

"زهير راوية أوس بن حجر، و الحطيئة راوية زهير، و امرئ القيس راوية أبى داؤد الإيادى، كُثير راوية جميل"٢٦

هذا، و الشاعر أول ما يحتاج إلى حسُن التأنّي و السياسة و علم مقاصد القول و غايته ليس إلا معرفة أغراض المخاطب، فإذا علم أغراض المخاطب دخل عليه من بابه فذلك هو سرّ صناعة الشعر و مغزاه و الشاعر يراعى المخاطب كالخطيب، و لكل مقام مقال أو لكل مقام مثال فيختلف شعره باختلاف الأشخاص.٢٧

يقول ابن قتيبة فى الشعر و الشعراء:

" قيل لحطيئة من أشعر الناس؟ فأخرج لسانًا دقيقاً كأنّه لسان حيّة، فقال: هٰذا إذا طمع . و قال أحمد بن يوسف لأبى يعقوب الخزيمى: مدائحك فى منصور بن زياد يعنى كاتب البرامكة أشعر من مراثيك فيه و أجود. قال: كنُا إذ ذاك نقول على الرجاء، و نحن اليوم نقول على الوفاء، و بينهما بون بعيد". ٢٨

و يقول:

"و هذه عندى قصّة الكميت فى مدحه بنى أمية وآل أبى طالب، فإنهّ يتشيعّ و ينحرف عن بنى أمية بالرأي و الهوى، و شعره فى بنى أمية أجود من شعره فى الطالبيين: و لا أرى علة ذلك إلاّ قوّة أسباب الطمع"٢٩

هذا، و للشعر أوان و أوقات "فلا يفتح مقفل بحار الخواطر مثل مباكرة العمل بالأسحار عند الهبوب من النوم لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسها فى أسباب

اللهو أو المعشية "[30] وفق قول ابن الرشيق، حكى لنا ابن الرشيق و ابن قتيبة قول الفرزدق و اللفظ لابن قتيبة:

"كان الفرزدق يقول : أنا أشعر تميم عن تميم، و ربمّا أتت علىّ ساعة و نزع ضرس أهون علىّ من قول بيت" ٣١

من تلك الأوقات التى يتأتى للشاعر الشعر و يسهل عليه قرضه حسب ما يقول صاحب الشعر و الشعراء:

"أوّل الليل قبل أن تغشى الكرى. و منها صدر النهار قبل الغذاء و منها يوم شرب الدواء، و منها الخلوة فى المجلس و فى المسير"٣٢

خالف ابن الرشيق قول ابن قتيبة بجعله أوّل الليل من أوقات الشعر بالنسبة إلى السحر دون أن يذكر اسمه و قال:

"لأنّ السحر ألطف هواءً، و أرق نسيمًا، و أعدل ميزانًا بين الليل و النهار،[1] ولم يكن العشى كالسحر، وهو عديله فى التوسط بين طرفى الليل و النهار لدخول الظلمة، و لكن النفس فيه كآلة مريضة من تعب النهار و تصرفّه"٣٣

و لسنا بصدد المقارنة بين الرأيين و نحن مع بكر بن النطّاح الحنفي الّذى نسب إليه ابن الرشيق القولة الآتية:

"الشعر مثل عين الماء إن تركتها اندفعت و إن استهنتها هتنت"٣٤

هنالك قسمان للشعراء: متكلف و مطبوع، فالمتكلف يكون شعره جيدا و محكما و لكنه يقع فى شدة العناء و يطيل التفكر و يحذف و يضيف، و قد نسب إلى الحطيئة ـ خير الشعر الحولى المحكك[٣٥] ـ و لكن الشعر فى الحقيقة اندفاع فإذا خولط هذا الاندفاع و التدفق بشيء خرج من أصله. و أما المطبوع فيقول ابن قتيبة عنه:

"و المطبوع من الشعراء من سمح بالشعر و اقتدر على القوافى و تبينت على شعره رونق الطبع، و وشى الغريزة، و إذا امتحن لم يتعلثم ولم يتزجر"٣٦

لذلك نرى أهل الإعراب يتعبون فى طلب علة شاعر مطبوع لأنه لا يبالي بماذا قال، و قد سأل بعض النقاد الفرزدق عن خطأه فى الإعراب فشتمه، و قال:

"على أن أقول و عليكم أن تحتجوا.٣٧

و قد يختلف الشعر عن النثر فى كثير من الأمور منها ما ذكر الدكتور محمد التونجي فى كتابه ملخصه:

١) الموسيقية لاعتماده على العروض، و القافية ، و الروى، و لاختياره الأحرف الموسيقية و الألفاظ الإيقاعية ٣٨

٢) الموهبة، و لهذا لا يمكن لأى أديب أن يصبح شاعرا و قد يكون الشاعر غير أديب أو حتى أميا و هى لا تعلم بل تمنح من الله، و تقوى بالتنمية و مطالعة الشعر و كتب الثقافة. ادعى بعض الشعراء نظرا إلى الموهبة أن لهم شيطانا معهم يوحى إليهم الشعر.

٣) اللغة: تختلف لغة الشاعر عن لغة الناثر لتخييره الألفاظ الموحية المعبرة.

٤) العاطفة لو لا ها لما عبر الشعر عن الاحساسات الداخلية الخاصة بالشاعر أو العامة فى نفوس الناس.

٥) الأغراض : حياة الإنسان كلها أغراض و من الأغراض الأساسية هي:
النسيب، و المديح، و الهجاء و الفخر و الوصف"٣٩

هذا ، و قد حرّض الإسلام على الشّعر، فلقد أخطأ و جهل أو تجاهل من ظنّ أن الإسلام منع عن قرضه . الّلهم إلاّ أن الإسلام و أهله الأوائل قد جعلوا له حدوداً و قيوداً فقد روى عن النبى ﷺ ما نقله صاحب العمدة و هو:

"روى عن النبى ﷺ أنّه قال : إنمّا الشعر كلام مؤلّف فما وافق الحق منه فهو حسن، و ما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه، و قال أيضًا: إنمّا الشعر كلام، فمن الكلام خبيث وطيب".٤٠

لا يدلّ هذا الحديث على أن النبى ﷺ منع عن الشعر بل و هذّبه و ثقّفه،
و قد كتب عمر بن الخطاب إلى موسى الأشعرى وفق صاحب العمدة:

"مُر من قبلك بتعلمّ الشعر، فإنه يدل على معالم الأخلاق و صواب الرأى و معرفة الأنساب"٤١

و هكذا نقل قِيل معاوية رضي الله عنه و هو:

"يجب على الرجل تأديب ولده، و الشعر أعلى مراتب الأدب"٤٢

وقال ـ رضي الله عنه

"إجعلوا الشعر أكبر همّكم وأكثر دأبكم"٤٣

نودّ هنا تلخيص أقوال نقلها ابن الرشيق كى يتبين لنا دور الإسلام الذى لعبه فى ميدان الشعر، وهى أقوال كبار المسلمين

"قيل لسعيد بن المسيب : إنّ قوماً بالعراق يكرهون الشعر، فقال نسكوا نسكًا أعجميًا"٤٤

سئل ابن سيرين عن رواية الشعر فى شهر رمضان ، و قال قوم أنّها تنقض الوضوء : فأنشد:

نبئت أن فتاة كنت أخطبها

عرقوبها مثل شهر الصول فى الطول

ثمّ قام فأمّ الناس، و قيل بل انشد:

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزاً

و لو رضيت رمح أسته لاستقرّت٤٥

و قد سمع الزبير بن بكار عن العمرى كان يقول: روّوا أولادكم الشعر فإنّه يحلّ عقد اللّسان و يشجع قلب الجبان و يطلق يدا البخيل و يحض على الخلق الجميل. وكلام ابن العباس مشهرر الّذى قال:

"إذا قرأتم شيئًا من كتاب الله فلم تعرفوه، فاطلبوه من أشعار العرب فإنّها ديوان العرب"٤٦

أمّا الأقوال التى تدل على عكس هذه الحقائق فليس معناها ما فُهم منها و لابد من استعراضه اليسير:

منها قول الله "الشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُوْنَ" و قوله عليه السلام لأن يتملئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً.

فما فهم من الآية فهو غلط و خطأ فاش و سوء تأويل لأنّ المقصود بهذ النص المشركون الّذين تناولوا رسول الله بالهجاء. و أماّ الحديث الشريف فأنةّ تهديد و تنذير لمن غلب على قلبه الشعر فملك نفسه حتى شغله عن دينه و إقامة فرائضه و منعه عن ذكر الله و تلاوة القرآن.

هذا هو تلخيص ما ذكر ه المدافعون عن الشعر من الإسلاميين فمن أراد المزيد فليراجع تأريخ الأدب العربى لجميع المؤلفين و خاصة العمدة ابن الرّشيق و البيان و التبيين للجاحظ و الشعر و الشعراء لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه و الأمالي للقالي.

كعب بن مالك الشاعر المطبوع

ظهر مما سبق أنّ الإسلام قد حـثّ علـى حفظ الشعر وممارسته و روايتـه، وقضى النبى ﷺ بالجنة للشعراء فى عهده وكان ﷺ ينقد الشعـر، دليـل ذلـك أنّ أبا ليلى لما أنشد:

علونا السماء عفّة و تكرماً

و إنا لنبغى فوق ذلك مظهرا ٤٧

غضب النبى ﷺ عليه و قال : أين المظهر يا أبا ليلى . فقال : الجنّة بك يـا رسول الله ، فقال : أجل إنشاء الله ، و لمّا هجا أبو سفيان بن الحـارث النبـى فأجـاب عنه حسان بقوله:

هجوت محمداً فأجبت عنه   و عند الله فى ذاك الجزاء

أتهجوه و لست له بكفـء   فشرّكما لخير كما الفداء ٤٨

فقال النبى ﷺ جزاك عند الله الجنة يا حسان[٤٩]، فلمّا قال:

فإنّ أبى و والده وعرضى   لعرض محمّد منكم وقاء

قال له النبى ﷺ وقاك الله حرّ النّار، فقضى له بالجنـة مرّتـين فـى سـاعة واحدة [٥٠] ، و ما سبب حسان لدخول الجنّة إلا الشعر. هذه هـى كـانت أسباب تقدم الشعر فى عهد النبى و بعده و كان كعب فارس هذا الميـدان و عملاقـه و قـد شحّذته قريحته الشاعرية قبل الإسلام كما شحذّته بشدّة بعده. يـروى لنـا محمّـد بـن سلاّم الجمحى فى طبقاته أن كعباً كان من فحول الشعراء يقول:

"شعراء القرى العربية وهى خمـس: المدينـة ومكـة والطائف واليمامة والبحرين، وأشعرهنّ قرية المدينـة، شعراء الفحول خمسة ثلاثة من الخزرج واثنـان مـن

الأوس. فمن الخزرج من بنى النجار حسان بن ثابت و من بنى سلمة كعب بن مالك..."٥١

و ذكر أبو الفرج الأصفهاني فى أغانيه:

"إن معاوية قال يوما لجلسائه، أخبرونى بأشجع بيت وصف به رجل قومه، فقال له روح بن زنباع قول كعب:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا
قدما ونلحقها إذا لم تلحق

فقال معاوية: "صدقت"٥٢

الدكتور محمد على الهاشمى يفيدنا ـ ناقلا عن كتاب "المزهر" قول الإمام السيوطى:

"إن السيدة عائشة كانت تقول: الشعر منه حسن ومنه قبيح خذ الحسن و دع القبيح، ولقد روت من شعر كعب بن مالك أشعارا منها القصيدة فيها أربعون بيتا ودون ذلك"٥٣

و يفيدنا بأن العلامة ابن كثير سماه شاعر الإسلام ، و نقل رواية ابن شبة عن الشعبى أنه قال:

"ما سمعت من مراثي عثمان شيئأ أحسن من قول كعب بن مالك"٥٤

ذكر ابن الرشيق فى الجزء الثانى من العمدة قول دعبل بن على عندما تكلم عن الافتخار و المدح:

"قال دعبل بن على: أفخر الشعر قول كعب بن مالك":

"وببئر بدر إذ يرد وجوههم جبريل تحت لوائنا محمد٥٥"

و ذكر أبو على اسماعيل بن القاسم القالى البغدادى صاحب كتاب ذيل الأمالى و النوادر:

وحدثنا (أبو بكر الأنبارى) قال حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله قال: حدثنا أبو عبيد الله بن نطاح قال حدثنا أبو عبيدة عن عبد الأعلى القرشى قال عبد الملك بن مروان لجلسائه أنشدونى أكرم بيت قالته العرب فقال روح بن زنباع:

اليوم نعلم ما يجيى به و مضى بفضل فضل قضائه أمس

فقال له : أحسنت فأنشد نى أكرم بيت وصف به رجل قومه فى حرب. فقال: قول كعب بن مالك يقول:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا
قدما و نلحقها إذا لم تلحق

قال له: أحسنت. (ص: ٢٩-٣٠- مؤسسة عبد الحفيظ البساط بيروت لبنان)

ذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد فى الجزء الخامس و صاحب أسد الغابة فى معرفة الصحابة و صاحب الاستيعاب فى الجزء الأول و صاحب الإصابة وصاحب كتاب كعب بن مالك الصحابى الأديب قول ابن سيرين:

"بلغنى أن دوسا إنما أسلمت فرقا من كعب بن مالك حيث يقول:

قضينا من تهامة كل نحب وخيبر ثم أغمدنا السيوفا
نخبرها ولونطقت لقالت قواضبهن دوسا أوثقيفا"٥٦

و قد عده ابن سلام الجمحي صاحب "طبقات فحول الشعراء" شاعرا مجيدا من المجيدين، لأنه قال يوم أحد فى كلمة:

"فجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش، منهم حاسد ومقنع
ثلاث آلاف ونحن نصية ثلاث مئين إن كثرنا وأربع

و كانوا سبعمائة"٥٧

إن أبا عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى صاحب معجم الشعراء عد بيتا من أشعار كعب أفخر بيت قالته العرب و لفظه هو

"إنه أفخر بيت قالته العرب "والبيت هو:

و ببئر بدر إذ يرد وجوههم جبريل تحت لوائنا محمد٥٨

و روى ابن سلام الجمحى فى طبقاته ما أخبره عمرو بن معاذ التيميى المعمرى و غيره قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لكعب بن مالك

"أ ترى الله نسى لك قولك:

زعمت سخينة أن تغالب ربها وليغلبن مغالب الغلاب."٥٩

لم ينفرد بهذا القول و الرواية ابن سلام عن غيره فقد ذكر المرزباني و الذهبى نفس الرواية و إن كان بين الألفاظ بعض تفاوت. و ذكرا، يا كعب ما نسى ربك، و ما كان نسيا منسيا بيتا قلته.

و يروى لنا أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى و ابن عبد ربه فى العقد الفريد أخبار ذلك المجلس الذى اجتمع إليه الرسول ﷺ و الشاعر العظيم عبد الله بن الرواحة و تلوه فى الشعر كعب بن مالك بعد ما هجا أبو سفيان بن الحارث الرسول ﷺ عن الجوهرى والمهلبى:

"أتى رسول الله ﷺ فقيل: إن أبا سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب يهجوك. فقام ابن الرواحة فقال: يا

رسول الله إئذن لى فيه، فقال له: أنت الذى تقول: فثبت الله؟ قال : نعم: يارسول الله، أنا الذى أقول:

فثبت الله ما أعطاك من حسن
تثبيت موسى و نصرا كالذى نصرا

فقال: و أنت فعل الله بك مثل ذلك. قال: فوثب كعب بن مالك فقال: يا رسول الله: إئذن لى فيه،فقال: أنت الذى تقول: همت؟ قال: نعم، يارسول الله. أنا الذى أقول:

همت سخينة أن تغلب ربها و ليغلبن مغلب الغلاب

فقال: أما أن الله لم ينس لك ذلك. "٦٠

هذه الحقائق و الدلائل التأريخية و الأدبية الموثوق بها و المراجع و المصادر المستندة و المعتمد عليها تنم عن علوكعب كعب و كبر باعه فى الشعر و الأدب، و قد أشاد بذكره النبى المختار أفصح العرب و العجم و النقاد و الأدباء و المؤرخون كما رأينا فى السطور السابقة، وقف الناقدون عند شعره مثل:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا قدما، ونلحقها إذا لم تلحق

فأشادوا بذكره قرظوه و أشادوا بخائله.

نعم و قد استشهد اللغويون و النحويون و الجغرافيون بشعره فى كتبهم المختلفة و جعلوه سندا فى اللغة و الأدب و الشعر، يكفينا هنا أن نشير إلى ما ذكر الدكتور محمد على الهاشمى يقول:

"فقد استشهد بقدر من شعره من اللغويين والنحويين: المبرد فى كتابه " الكامل" وابن دريد فى كتابه جمهرة اللغة، وابن منظور فى "لسان العرب"، و الزبيدى فى تاج العروس"، و ابن خالويه فى كتابه "ليس فى كلام العرب" و أبوبكر محمد بن القاسم الأنبارى فى كتابه

"المذكر و المؤنث وسيبوبه فى " الكتاب" و السـيرافى فى كتابه "شرح أبيات سيبويه" ، والزمخشرى فى كتابه : الفائق فى غريب الحديث" و صاحب كتاب "المقصور والممدود" و ابن فارس فى كتابه " مقاييس اللغـة" و ابن جنى فى "المنصف" و ابن سـيده فـى "المحكـم" والجواليقى فى" المعـرب" والبكـرى فـى" سـمط اللآلى".٦١

و استعان بشعره المؤرخين فى الاستشهاد على الحوادث التى يوردونها يقول الدكتور المذكور آنفا:

"و من هؤلاء المؤرخين: الواقدى فى المغازى ، و ابن هشام فى السيرة النبوية وابن سـعد فـى الطبقـات، والطبرى فى تأريخه، وابن الأثير فى الكامل وابن كثير فى البداية والنهاية"٦٢

كان النبى ـ صلى عليه وسلم ـ خبيرا على شاعرية كعب قبل المقابلة بينـهما بالعقبة، و قد سبق لنا أن ذكرنا فى حادثة العقبة الثانية قول كعب "فوالله ما أنسـى قول رسول الله" الشاعر " ، و إن رسول الله قد ذكر كعبا أن الله مانسى مقاله وقد أثـار أبوعثمان بحـر الجـاحظ هـذا السئوال دون أن يجيـب عنـه فقال فـى كتابـه البيـان والتبيين فى الجزء الأول:

"و لم قال (أى النبى صلى الله عليه وسلم) لكعب مـا نسى الله لك مقالك يدل ذلك علـى أن ذكـره و ذكـر شاعريته هو ببال الله.٦٣

هذا ، وقد كان كعب من كبار العلماء فى عصره يدل على ذلك قول أحمد بن حنبل ـ رحمه الله، نقله إلينا الدكتور الهاشمى:

"وكان كعب من أعلَم الأنصار ممن شهد العقبة وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم"١٥

لذلك لم يرو لنا أحد من العقبيين ما دار فى سفرهم،

نعم، هذه الشوا هد كلما تبدو من خلالها شحضية كعب الزاهرة اللامعة التى تأتلق على قمة العلم و الشعر و النثر، و قلما يجمع الأديب بين الشعر و النثر، و شاهدنا كذلك أثناء دراسته باع كعب فى الشعر، أن شعره أفخر (قول دعبل) و أشجع (قول روح بن زنباع) و أحسن (قول الشعبى) من بين شعر الشعراء و هو من فحول الشعراء (قول ابن سلام الجمحى).

١) لسان العرب	ابن منظور مادة "شعر"	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت ١٩٩٣م
٢) لسان العرب	العلامة اللغوي ابن منظور مادة "شعر"	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت ١٩٩٣م
٣) القرآن الكريم		
٤) لسان العرب	العلامة اللغوي ابن منظور مادة "شعر"	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت ١٩٩٣م
٥) لسان العرب	العلامة اللغوي ابن منظور مادة "شعر"	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت ١٩٩٣م
٦) لسان العرب	العلامة اللغوي ابن منظور مادة "شعر"	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت ١٩٩٣م
٧) المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثانى	د/محمد التونجى ص: ٥٥٠	طبعه دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الاولى ١٩٩٣.
٨) المعجم المفصل فى اللغة والأدب المجلد الثانى	د/ميشال عاصى و د/أميل بديع يعقوب ص: ٧٣٧	دار العلم للملايين بيروت 1987
٩) أصول النقد الأدبى	دكتور أحمد الشائب	الطبعة الثامنة مزيدة منقحة مكتبة النهضة المصرية القاهرة
١٠) المعجم المفصل فى اللغة والأدب المجلد الثانى	د/ميشال عاصى و د/أميل بديع يعقوب ص: ٧٣٧	دار العلم للملايين بيروت 1987
١١) التوجيه الأدبى	دكاتير/أحمد أمين، طه حسين، عبدالوهاب عزام ومحمد عوض محمد	طبع بمصر
١٢) الحماسة(ديوان)	أبو تمام الطائى	طبعها المكتبة الرحيمية ديوبند الهند
١٣) التوجيه الأدبى	دكاتير/أحمد أمين، طه حسين، عبدالوهاب عزام ومحمد عوض محمد	طبع بمصر
١٤) التوجيه الأدبى	دكاتير/أحمد أمين، طه حسين، عبدالوهاب عزا م ومحمد عوض محمد	طبع بمصر
١٥) العمدة في ماحسن الشعر و آدابه الجزء الأول	ابن الرشيق ص: ٩٦	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
١٦) العمدة في ماحسن الشعر و آدابه الجزء الأول	ابن الرشيق ص: ٩٦	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
١٧) العمدة في ماحسن الشعر و آدابه الجزء الأول	ابن الرشيق ص: ٩٦	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م

١٨) العمدة في ماحسن الشعر و آدابه الجزء الأول	ابن الرشيق ص: ٩٦	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
١٩) العمدة في ماحسن الشعر و آدابه الجزء الأول	ابن الرشيق ص: ٩٦	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٢٠) العمدة في ماحسن الشعر و آدابه الجزء الأول	ابن الرشيق ص: ٩٧	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٢١) التوجيه الأدبى	دكاتير/أحمد أمين، طه حسين ، عبدالوهاب عزام ومحمد عوض محمد	طبع بمصر
٢٢) الشعر والشعراء و العمدة	ابن قتيبة الدينورى وابن الرشيق بالترتيب ص: ١٧ وص: ٩٩	مطبعة المعاهد القاهرة ١٩٣٢م الطبعة الثانية.
٢٣) خلاصة ما قال صاحب العمدة	ابن الرشيق المصرى ص: ٩٩ - ١٠١	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٢٤) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	ابن الرشيق المحصرى ص: ١٠١	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٢٥) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	ابن الرشيق باب "آدب الشاعر" ص: ١٧٢	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٢٦) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	ابن الرشيق المصرى ص: ١٧٢	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٢٧) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	ابن الرشيق باب آداب الشاعر ص: ١٧٣	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٢٨) الشعر والشعراء	أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ص: ١٧	مطبعة المعاهد القاهره الطبعة الثانية ١٩٣٢
٢٩) الشعر والشعراء	أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ص: ١٧	مطبعة المعاهد القاهره الطبعة الثانية ١٩٣٢
٣٠) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	ابن الرشيق باب آداب الشاعر ص: ١٨٠	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٣١) الشعر والشعراء	أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ص: ١٨	مطبعة المعاهد القاهره الطبعة الثانية ١٩٣٢
٣٢) الشعر والشعراء	أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ص: ١٧	مطبعة المعاهد القاهره الطبعة الثانية ١٩٣٢
٣٣) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ١٢٩	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م

٣٤) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ١٨٠	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٣٥) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ١٨٥	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٣٦) الشعر و الشعراء	أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ص: ٢٤	مطبعة المعاهد القاهره الطبعة الثانية ١٩٣٢
٣٧) الشعر و الشعراء	أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ص: ٢٣	مطبعة المعاهد القاهره الطبعة الثانية ١٩٣٢
٣٨) المعجم المفصل في الأدب الجزء الثاني	د/ محمد التونجي ص: ٥٥١	دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولي ١٩٩٣م
٣٩) خلاصة كلام الدكتور محمد التونجي في المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثاني لاحظ صفحة :٥٥١		
٤٠) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ١٠	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٤١) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ١٠	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٤٢) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ١٠	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٤٣) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ١٠	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٤٤) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ١١	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٤٥) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ١١	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٤٦) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ١١	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٤٧) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ٣٩ باب "من قضى له الشعر، ومن قضي عليه"	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٤٨) مختار الشعر العربى	الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى ص: ١٣	مكتبة الكلية اللغة العربية و آدابها ندوة العلماء لكنؤ الهند
٤٩) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ٣٩	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٥٠) العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الأول	الحسن بن الرشيق ص: ٣٩	مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م

٥١) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى ص: ٢٢٠ مطبعة المدني القاهرة

٥٢) الأغانى الجزء السادس عشر أبو الفرج الأصبهانى ص: ٢٣٤ دار إحياء التراث الإسلامى بيروت

٥٣) كعب بن مالك الصحابى الأديب الشاعر د/محمد على الهاشمى ص: ٣٢٦ الطبعة الأولى عام ١٩٨٥م نقل هذا القول عن "المزهر" للإمام جلال الدين السيوطى

٥٤) كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر د/محمد على الهاشمى ص: ٣٤٠ الطبعة الأولى عام ١٩٨٥م

٥٥) العمدة الجزء الثانى ابن الرشيق" باب المديح" ص: ١١٥ مطبعة حجازى القاهره الطبعة الأولى ١٩٣٤م

٥٦) العقد الفريد لابن عبد ربه الجزء الخامس ص: ٣٠٦، و أسد الغابة فى معرفة الصحابة لعلى بن محمد الجزرى الجزء الرابع ص: ٢٤٧، و الاستيعاب ليوسف بن عبد الله المعروف بابن البر الجزء الأول ص : ٢٨٦ ،حاشية الإصابة فى تمييز الصحابة الجزء الثالث و الإصابة فى تمييز الصحابة لأحمد بن على ابن حجر العسقلانى ص: ٦١٢

٥٦) طبقات فحول الشعراء الجزء الأول شرحه محمد شاكر محمدبن سلام الجمحي ص: ٢٢٠ مطبعة المدني القاهرة

٥٧) معجم الشعراء أبو عبيد الله محمد بن عمران المرز بانى نقلا عن الهاشمي الطبعة الأولي سنة ١٩٨٥م

٥٩) أنظر هذا القول فى البيان والتبيين لعمرو بن بحر الجاحظ الجزء الأول ص: ١٠٨،و البداية و النهاية لابن كثير الجزء الثالث ص: ١٥٨ و طبقات فحول الشعراء لمحد بن سلام الجمحى ص: ٢٢٠ و الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى الجزء السادس عشر ص: ٢٣١: و العقد الفريد لابن عبد ربه الجزء الخامس ص: ٣٠٦.

٦٠. الأغانى الجزء السادس عشر أبو الفرج الأصبهاني ص: ٢٣١ دار إحياء التراث الإسلامى بيروت لبنان

٦١. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر د/محمد على الهاشمى صفحة : ٣٤٠-٣٤١ الطبعة الأولى ١٩٨٥م

٦٢. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر د/محمد على الهاشمى ص: ٣٤١ الطبعة الأولى ١٩٨٥م

٦٣. البيان والتبيين الجزء الأول حققه و شرحه حسن السندوبي عمرو بن عثمان بحرالجاحظ ص: ١٠٨ الطبعة الثالثة عام ١٩٣٧م مطبعة الإستقامة بالقاهرة

٦٤. .كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر د/محمد على الهاشمى ص: ١٠٩ الطبعة الأولى ١٩٨٥م

تأثير القرآن الكريم فى شعره

عاش شاعرنا خمسا وعشرين سنة فى الجاهلية و بقية حياتـه حـولى ثلاثين على اختلاف الأقوال فى الإسلام، لذلك نخلع عليه اسم مخضرم بفتح الراء أو بكسرها، روى لنا الدكتور محمد إلتونجى قول ابن برى الذى يلقى ضوءا على هذا الاصطلاح:

"قال ابن برى: وأكثر أهل اللغة على أنـه مخضـرم. بكسر الراء- لأن الجاهليين لما دخلوا فـى الإسلام خضرموا آذان إبلهم أى قطعوا أطرافها، وكـان أهـل الجاهلية يخضرمون نعمهم فلما جاء الإسلام أمـروا أن يخضرموا من الموضع االذى يخضرم فيه أهل الجاهلية لتكون علامة لإسلامهم إن أغير عليها أو حوربـوا، و أما من قال مخضرم. بفتح الراء. فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر إلى الإسلام"١

و قد نقل كلام ابن منظور فى هذا الصدد:

"و قال ابن منظور: رجل مخضرم، إذا كـان نصـف عمره فى الجاهلية ونصفه فى الإسلام" ٢

و يقول الدكتور ميشال عاصى و الدكتور أميل بديع يعقوب فى "المعجم المفصل فى اللغة و الأدب" عن هذا الإصطلاح،

"هو، فى الأدب العربى الشاعر أو الأديب الذى عـاش جانبا من عمره فى العصر الجاهلى، و جانبا آخر فى العصر الإسلامى، و يطلق تجـوزا اليـوم على مـن يعايش عصرين أو مرحلتين"٣

قسم مؤرخو الأدب العربى الشعراء إلى أربع طبقات: جاهلى قديم، مخضرم، إسلامى و محدث، وشرحوا مصطلح المخضرم فقالوا هو الشاعر الذى أدرك الجاهلية والإسلام ، ثم عم هذا المصطلح فأصبح يطلق على الشاعرالذى عاش دوليتن فالذى عاش العصر الإسلامى والعباسى هو مخضم كالشاعر الذى عايش العصر الجاهلى والإسلامى،ويقول سعيد بن مسعدة(أبو الحسن الأخفش) تلميذ سيبويه عن هذا المصطلح:

"يقال:ماء خضرم،إذا تناهى فى الكثرة والسعة،فمنه سمى الرجل الذى شهد الجاهلية والإسلام مخضرما كانه استوفى الأمرين"

(العمدة فى محاسن الشعر وآدابه الجزء الأول للإمام ابى على الحسن بن رشيق القيروانى تحقيق الدكتور محمد قرقزان ص: ٢٣٤ طبعه دار المعرفة بيروت لبنان).

ويقال: اذن مخضرمة،إذا كانت مقطوعة، فكأن الشاعر انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام، وقد نسب إلى على بن الحسن كراع أنه قال:

"شاعر محضرم ـ بحاء غير معجمة ـ مأخوذ من الحضرمة وهى الخلط لأنه خلط الجاهلية والإسلام"

(العمدة الأول ص: ٢٣٤)

فانقطع شاعرنا و تخضرم عن الثقافة الجاهلية و اتصل بثقافة الإسلام، و خضرم الحياة من غير الموضع كان يخضرم فيها فى الجاهلية فأصبحت علامة الإسلام إلى الأبد، و ملأ قلبه بتعاليم الإسلام بعد ما نزع عنه دنس الجاهلية فى عمره الذى كاد ينضج، فقد نضج و كان فى الإسلام و حماه و هو أكثر تأثرا به من غيره حتى سبق حسان بن ثابت و ذلك يتضح بما ذكره الدكتور عبد الله الحامد صاحب "الشعر الإسلامى فى صدر الإسلام" يقول:

"و يبدو أن كعبا كثير القرأة للقرآن، و الحفظ لـه، و الامتزاج بروحه و ذلك واضح فى ارتداءه طابع الفكرة الإسلامية و طبعها، و هو يسبق حسان بن ثابت وغيره إلى هذا الميدان، و من تدرب الأسلوب القرآنى فى شعره"٤

و أما ما يتعلق بصلة شعراء صدر الإسلام بالقرآن و تأثرهم بمعانيه و أسلوبه فوجهان مهمان وضحهما الدكتور عمر فروخ فى كتابه تأريخ الأدب العربى يقول:

"بطبيعة الحال شديد التأثر فى أغراضه وأساليبه بالقرآن الكريم من وجهين: كان فى الدرجة الأولى أفصح ألفاظا و أسهل تركيبا وأعذب تعبيرا، من الجهة الثانية: أمتن سبكا و أبرع دلالة، و آنق ديباجة."٥

و أشد تأثرا من هذين الوجهين عندى هو صلته بصاحب القرآن ﷺ. و دعاءه له، و بملازمته به فى السفر و الحضر حتى فى أصعب الأوقات وذلك يظهر بقوله فى حديث تبوك" لم أتخلف عن غزوة غزاها الرسول إلا فى غزوة تبوك الخ" يفيد نا رئيس التحرير لمجلة البعث الإسلامى الأستاذ سعيد الرحمان الأعظمى الندوى بقوله:

"لم يفارق رسول الله وظل معه حتى فى أصعب أوقات الحرب وأشدها بلاءا"٦

و يضيف إلى هذا القول يحيى الجبورى فى كتابه "الشعراء المخضرمون":

"كان كعب مؤمنا قوى الإيمان تقيا شديد التقى، و كان أسيرا عند رسول الله، يحبه و يدعو له بالخير و يشجعه على جيد الشعر، و كانت صلة كعب بالرسول قوية،"٧

كانت العقيدة الإسلامية الصافية قد تسربت فى شعره و كانت تعاليم الإسلام تترقص على قلبه، فما ينزح من الإناء إلا بما يكون فيه يقول الدكتور عبد الله الحامد فى كتابه:

"و هو أشد شعراء الإسلام إنطلا قا عن تلك الروح و سيرا على ذلك المنهج عدا ابن رواحة فهو يسبقه، و كلاهما توأمان ... يمتاز شعره الإسلامى بالسهولة"٨

و من بعض تلك الأشعار نود هنا نقله كنموذج للدراسة و للإطلاع على مدى تأثره بالقرآن الكريم، لم يتوفرلنا ديوانه فنقله أعتمد على كتب المؤرخين و الناقدين مثل الأغانى و غيره. و خاصة سيرة ابن هشام و البداية و النهاية

١. لننصر أحمدا والله حتى — نكون عباد صدق مخلصينا
٢. ويعلم أهل مكة حيث ساروا — و أحزاب أتوا متحز بينا
٣. بأن الله ليس له شريك — و أن الله مولى المؤمنينا ٩
٤. قذفنا فى السوابغ كل صقر — كريم غير معتلث الزناد
٥. لنظهر دينك اللهم إنا — بكفك فاهدنا سبل الرشاد١٠

عارض أبا عمر عبد عمرو بقوله:

٦. معاذ الله من عمل خبيث — كسعيك فى العشيرة عبد عمرو
٧. فإما قلت: لى شرف و نخل — فقدما بعت إيمانا بكفر١١

وقال يوم أحد:

٨. صبرنا لهم والصبر منا سجية إذا طارت الإبرام نسمو و نرتـــق

٩. على عادة،تلكم جرينا فصبرنا و قدماً لدى الغايات نجرى فنسبق١٢

الأبيات الأولى تشير إلى آيات قرآنيـــة كثيرة و أحداث تأريخيـة مـرت بـهـا الدعوة الإسلامية و لسنا هنا بصدد ذكرها بل و نريد الإشارة إلى تلك الآيات التى هى مشار إليها. وهى:

كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِيْنَ(٢٤ : يوسف ١٢)

"وَبَشِّرِ الَّذِيْنَ آمَنُوْا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ"(٢ : يونس ١٠)

قَاْلَ فَبِعِزَّتِكَ لَأغْوِ يَنَّهُمْ أجْمَعِيْنَ إلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِيْنَ(٨٣ :ص :٣٨)

وَلَمَّاْ رَأى الْمُؤْمِنُوْنَ الْأحْزَاْبَ قَاْلُوْا: هَذَاْ مَا وَعَدَ نَــا اللهُ وَ رَسُوْلُه(٢٢ :الأحزاب ٣٣)

وَ إن يَّأتِ الْأحْزَاْبُ يَوَدُّوْ ا لَوْأنَّهُمْ بَاْدُوْنَ فِى الْأَعْرَاْبِ (٢٠: الأحزاب ٣٣)

لَاْشَرِيْكَ لَه، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَ أنَاْ أوَّلُ الْمُسْلِمِيْنَ(١٦٣ : الأنعام ٦)

إنَّ أوْلَى النَّاس بِإبْرَاْهِيْمَ لَلَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُ، وَهَذَا النَّبِىُّ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا وَاللهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِيْنَ (٦٨: آل عمران ٣)

فَإنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاْهُ وَجِبْرِيْلُ وَصَاْلِحُ الْمُؤْمِنِيْنَ (٤: التحريم ٦٦)

و الشعر الخامس يشير على الأقل إلى ألآيات التالية:

هُوَ الَّذِىْ أرْسَلَ رَسُوْلَه بِالْهُدَى وَ دِيْنِ الحَقِّ لِيُظْهِرَه عَلَى الدِّيْنِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُوْنَ (٣٣: التوبة ٩) + (٩: الصف ٢٨)

مَا أُرِيْكُمْ إِلَّاْ مَاْ أَرَى وَمَاْ أَهْدِيكُمْ إِلَّاْ سَبِيْلَ الرَّشَاْدِ(٢٩ : غافر ٤٠)

وَقَالَ الَّذِىْ آمَنَ يَاْ قَوْمِ إِيْتُوْنِ أَهْدِكُمْ سَبِيْلَ الرَّشَاْدِ(٣٨: غافر ٤٠)

أما الشعر السابع فإشارته إلى الآيتين الآتيتين

وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيْمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ (١٠٨: البقرة ٢)

إِنَّ الَّذِيْنَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَبِالإِيْمَانِ لَن يَّضُرُّوْا اللهَ شَيْئاً (١٧٧: آل عمران ٣)

وَ الصَّاْبِرِيْنَ فِى الْبَأْسَآءِ وَ الضَّرَآءِ وَحِيْنَ الْبَأْسِ (١٧٧: البقرة ٢)

هكذا نرى شاعرنا يعيش بيئة القرآن الكريم و ثقافته حتى أصبح همّه، و ألبس شعره لباس القرآن و أسلوبه ليس هذا فحسب، بل أنه يشير خلال تلك الإشارات القرآنية إلى أحداث عظيمة و خطيرة قاومته الأمة المسلمة فى مراحلها المختلفة، و إن شعره ليحتاج إلى دراسة تأريخية كى يتضح منها مدى أبعاده فى التأريخ فمثلا شعره:

لقد خزيت بغدرها الحبور كذلك الدهر ذوصرف يدور
و ذلكم أنهم كفروا برب عزيز، أمره أمر كبير

من هم الحبور؟، متى غدروا؟، أين غدروا؟، لماذا غدروا؟، فما كانت نتائج غدرهم؟، الدهر ذو صرف، "وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ." فهل دار عليهم دور، هل ذاقوا و بال غدرهم و خيانتهم؟، يدور الدهر إشارة إلى تأريخ الملل و النحل و الأقوام البائدة و الحاضرة، يشير هذان الشعران إلى مصير الإنسان الظالم فقد جاء فى القرآن فى سورة الفرقان:

وَ مَن يَّظْلِمْ مِنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيْراً(١٩ الجزء ٢٥)

و الذين يكفرون بأنعم الله و منّه عليهم لهم عذاب جهنم و بئس المصير:

"للذين كفروا بربهم عذاب جهنم و بئس المصير"(١٦ الملك ٦٧)

كذلك نلمح الطابع القرآنى على شعر كعب و فى أسلوبه الذى اختاره لشعره و معانيه التى تسربت فى أبياته.

١. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثاني	د/ محمد التونجي ص: ٧٧٢	طبعه دار الكتب العلمية بيروت – لبنان سنة ١٩٩١
٢. لسان العرب	لابن منظور نقلاً عن المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثانى ص : ٧٧٢ للتونجي	طبعه دار الكتب العلمية بيروت – لبنان سنة ١٩٩١
٣. المعجم المفصل فى اللغة والأدب الجزء الثاني	د/ ميشال عاصى و أميل بديع يعقوب ص : ١١٢٥	دار العلم للملايين بيروت لبنان ١٩٨٧
٤. الشعر الإسلامى فى صدر الإسلام	د/ عبد الله الحامد ص: ٢٦٤	طبع بمطابع الإشعاع التجارية بالرياض الطبعة الأولى ١٩٨٠م
٥. تأريخ الأدب العربى	د/ عمر فرّوخ ص: ٢٥٤	دار العلم للملايين بيروت لبنان
٦. مجلة البعث الإسلامى	مقال الأستاذ سعيد الرحمان الأعظمي الندوي محرم الحرام ١٤٠٤	ندوة العلماء لكنؤ
٧. الشعراء المخضرمون	د/ يحي الجبّوري ص: ٧٢	مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية ١٩٨١م
٨. الشعر الإسلامى فى صدر الإسلام	د/ عبد الله الحامد ص: ٢٦٢	طبع بمطابع الإشعاع التجارية بالرياض الطبعة الأولى ١٩٨٠م
٩. السيرة النبوية الجزء الثالث	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ص: ١٥٧	طبعها دار الجيل بيروت عام ١٩٨٧م
١٠. السيرة النبوية الجزء الثالث	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ص: ١٦٥	طبعها دار الجيل بيروت عام ١٩٨٧م
١١. السيرة النبوية الجزء الثانى	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ص: ١٦٧	طبعها دار الجيل بيروت عام ١٩٨٧م
١٢. السيرة النبوية الجزء الثالث.	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ص: ٧٤	طبعها دار الجيل بيروت عام ١٩٨٧م

النقائض و كعب

قبل أن نتكلم عن نقائض كعب لا مناص من البحث عن هذا الفن تأريخيا ولغويا. فإن ابن منظور صاحب لسان العرب استعرض كلمة النقض و النقيضة أى استعراض يقول:

"النقض، إفساد ما برمت من عهد أو بناء، وفى الصحاح النقض نقض البناء والحبل والعهد... نقضه ينقضه نقضا، و انتقض و تناقض، و النقض اسم البناء المنقوض إذا هدم وفى حديث صوم التطوع، فنلقضني و ناقضته هي مفاعلة من نقض البناء و هدمه، أي ينقض قولي و أنتقض قوله، أراد به المراجعة والمرادة.

والمناقضة في القول: أن يتكلم بما يتناقض معناه، و النقيضة في الشعر ما ينتقض به قول الشاعر:

إنى أرى الدهر ذا نقض و إمرار"١

و المناقضة في الشعر: ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول، نظرا إلى مادة الكلمة، إن الشاعر ليهدم ما بناه الآخر من القول أو الشعر لا بيته الذي يسكن فيه، وفى النقائض يفتخر شاعر بنفسه وبقومه ويهجو خصمه وقومه، يقول مؤلفا المعجم المفصل في اللغة والأدب الدكتور ميشال عاصي والدكتور أميل بديع يعقوب:

"وهى قصيدة ينظمها شاعر في مهاجاة بينه وبين شاعر آخر ناقضا ما هجى هو وقومه به، مفتخرا في الوقت عينه بنفسه و بمآثر قومه"٢

و الحقيقة أن النقائض قوامها هو الفخر و الهجاء، و تحويل فخر شاعر آخر إلى نفسه أو إلى قبيلته، وتقليب فخر خصمه هجاءا وربما يشترك فيها أكثر من شاعرين، وتكون طويلة النفس، وقد يحتاج شاعر فيها إلى القزع و الفخش.

عند ما ازدهر هذا الفن فى العهد الأموي جعلوا له شروطا يقول الدكتور محمد التونجى صاحب معجم المفصل فى الأدب:

"يشترط أن تكون النقيضة من بحر قصيدة الخصم وعلى رويها لكن حركة الروى قد تختلف أحيانا.... وأن تكون القصائد تابعة للقصيدة الأولى فى البحر والروى"٣

فالنقيضة من شاعر تقوم على بناء شعر لآخر قبل أن نحددها بقيود و شروط، لأن شاعرا هو يهدم معانى ذلك الشعر الذى قيل، و إن لم يكن هنالك شعر يناقض فلا نقيضة، هكذا نشأ هذا الفن، أما الهجاء فلا يحتاج إلى أن يكون قبله شعر لشاعر فيتعرض له ويناقضه ، هذا فرق أساسي عندنا بين الهجاء و النقيضة، وإن كان الهجاء هو روح النقيضة نرى الدكتور شوقى ضيف فى كتابه "التطور والتجديد فى الشعر الأموى" يميل إلى أن النقائض التى سبقت جريرا والفرزدق و الأخطل أن لا تسمى نقائض بيد أنه يعترف بأنها كانت بذورا للون الجديد الذى نقرؤه عند هؤلاء الثلاثة يقول:

"أما الهجاء الذى سبقهم فلا نسميه نقائض إلا على ضرب من التجوز أو على أنه كان بذورا لهذا اللون الجديد الذي نقرؤه عند الأخطل والفرزدق وجرير"٤

نعم، رأينا عبد الله الزبعرى و أبو سفيان بن الحارث و ضرار بن الخطاب فى العصر الإسلامى الأول يهجو النبى ﷺ. فيقوم شاعر للنبى ﷺ عبد الله بن رواحة كان أو حسان بن ثابث أو شاعرنا كعب بن مالك يناقض ما قال الهاجى فماذا نسمى هذا الشعر؟ هل هذا هجاء أم نقيض؟ والنقيض وفق قول ابن منظور وغيرهم من اللغويين هو إفساد ما أبرم. فإذا أبرم أبوسفيان بشعره شيئا فأفسده كعب فماذا ياترى نسميه؟ والمناقضة كذلك حسب اللغويين هى: ينقض الشاعر الآخر ماقاله الأول.

هذا، وقد نرى أنما حدث فى العهدى الأموى هو أنه قد أدخلت تحسينات إلى هذا الفن الذى كان فى عهد طفولته لم يكن له نظام مرتب منظم وقد يرى الدكتور السالف الذكر كذلك:

"ونحن نلاحظ فى كل هذه العصور من الهجاء التى سبقت عصر بنى أمية أنها كانت فى أكثرها صورا بسيطة فالشعراء لا يتقيدون دائما بأن يردوا على خصومهم بقصائد من نفس الوزن والقافية أو بعبارة أخرى من نفس الألحان والنغمات التى صاغ فيها الخصوم شعرهم وهجاء هم"٥

يظهر من هذه العبارة أنه كانت صور بسيطة للنقائض فى العهد الجاهلى ومابعد فى العهد الإسلامى الأول، ولكن هذه الصور البسيطة كانت من حيث أنها لم تكن مقيدة بقيود، و أما الناحية المعنوية والمغزى ولا نراها بسيطة.

مهما كان الأمر لا ينكر الدكتور لكون النقائض التى سبقت العهد الأموى "بذورا" وصورا بسيطة لذلك الفن الجديد الذى بلغ ذروته فى العهد الأموى بعد، مع أن أبا الفرج الأصبفهاني "صاحب الأغاني" يفيدنا بقوله:

"كان يهجوهم يعنى قريشا ثلاثة نفر من الأنصار يجيبونهم. حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وكان حسان وكعب يعارضهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرونهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إليه، ويعلم أن ليس فيهم شئ شر من الكفر، فكانوا فى ذلك الزمان أشد شئ عليهم قول حسان وكعب، وأهون شئ عليهم قول ابن رواحة. فلما أسلموا و فقهوا الإسلام، كان أشد شئ عليهم قول ابن رواحة"٦

فما معنى مثل قولهم؟ إذا كان معناه أنهم كانوا يردون عليهم بالوقائع والأيام والماثر و يعيرونهم بالمثالب كفعلهم بهؤلاء الثلاثة وصاحب الدعوة خاصة فلا يجحد أحد أنهم كانوا يحذون حذوهم وينسجون أشعارهم على منوالهم ودليل ذلك ماذكره ابن هشام فى "سيرته" أن أمية بن خلف قد هجا حسان بأبيات ثلاثة عيره فيها بأن أباه كان قينا يمانيا فقال:

ألا من مبلغ حسان عنى
مغلغلة تدب إلى عكاظ
أليس أبوك فينا كان قينا
لدى القينات فسلا فى الحفاظ
يمانيا يظل يشد كيرا
وينفخ دائبا لهب الشواظ

فأجابه حسان بأبيات بنفس القافية والوزن:

أتانى عن أمية ذور قول ... وما هو بالمغيب يذى حفاظ
سأنشر إن بقيت لكم كلاما ... ينشر فى المجامع من عكاظ
قوافى كالسلام إذا استمرت ... من الصم المعجرفة الغلاظ

و قد عرفت المناقضات فى العهد الجاهلى فضلا عن العهد الإسلامى، وكانت لها قواعد وشروط مثلما كانت فى العهد الأموى الذى وصل فيه هذا الفن إلى ذروته، و دليل ذلك أن ابن العجلان الشاعر الجاهلى ينظم قصيدة عقب حرب سمير. و كانت أقدم الحروب التى نشبت بين الأوس والخزرج يقول فيها.

إن سميرا أرى عشيرته ... قد حدبوا دونه وقد أنفوا
إن يكن يظن صادقا ببنى النجار لا يطمعوالذى عطفوا

فأجابه درهم بن يزيد أخوسمير:

يا مال لا تبغين ظلامتنا ... يامال إنا معاشر أنف
يامال والحق أن قنعت به ... فيه و فينا لأمرنا نصف

و إن قمنا بتصفح أوراق الأغانى وسيرة إبن هشام وخزانة الأدب للبغدادى و تأريخ ابن الأثير و غيرها من الكتب أدركنا أن هنالك نقائض بين الشعراء الجاهلين و لسنا هنابصدد أن نذكر جميع تلك المناقضات، لكن لابد من إشارة إلى أن عمرو بن امرى القيس الخزرجى جد عبد الله بن رواحة له أبيات على نفس الوزن و الروى الذى ذكرناه آنفا يخاطب فيها مالك بن العجلان و يلومه و يهجوه يتضح ذلك بخزانة الأدب للبغدادى و علاوة على ذلك يقول الدكتور إحسان النص صاحب كتاب "حسان بن ثابت حياته و شعره"

"و بعد انقضاء حرب سمير بزمن طويل جاء حسان و قيس فجددا ذكرى هذه الحرب و تناقضا بقصيدتين على وزن النقائض السابقة و قافيتها"٧

نقل الدكتور إحسان النص بعض تينك القصيدتين في كتابه، ثم هنالك نقائض بين حسان وقيس بصدد يوم الدرك و يوم الربيع ذكرها الأغاني و ابن الأثير في كتابيهما.

هذا، و المناقضات بين حسان و ابن الزبعرى مشهورة معروفة لا يخلو منها كتب الأدب و تأريخه فابن هشام يروى لنا بعض أشعار ابن الزبعرى يفخرفيها هذا الشاعر بمن قتلوه من المهاجرين و الأنصار بالجر منها

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكت يقباء بركها واستحر القتل فى عبد الأشل[8]

فيجيبه حسان و يقر بأن الحرب دول منها:

ذهبت بابن الزبعرى وقعة كان منا القصل فيها لوعدل
لقد نلتم و نلنا منكم و كذاك الحرب أحيانا دول[9]

يكفينا هذا القدر من الدلائل على أن النقائض كانت تدور بين الشعراء قبل العهد الأموى كثيرا جدا و كانت شروطها طبيعية فطرية ذوقية، و أن الدكتور شوقى ضيف قد أخطأ عندما ادعى فى كتابه "التطور و التجديد فى الشعر الأموى:

"أما الهجاء الذى سبقهم ولا نسميه نقائض إلا على ضرب من التجوز أو على أنه كان بذورا لهذا اللون الجديد الذى نقرؤه عند الأخطل و الفرزدق وجرير"[10]

و ليست قصة زبرقان بن بدر ببعيدة عندما حضر مع قومه إلى مجلس النبى ﷺ للمسابقة الشعرية بشاعر الرسول ﷺ بشروط فلما أنشد قصيدته، قال رسول الله ﷺ لحسان، قم ياحسان فأجب الرجل فيما قال، فقال حسان ما أوله:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع[11]

فلما فرغ من قوله قال الأقرع بن حابس لخطيبه أخطب من خطيبنا و لشاعره أشعر من شاعرنا، و أصوا تهم أعلى من أصواتنا، فأسلموا [12] و كانت قصيدة حسان

في نفس الوزن و القافية التى قال فيها زبرقان. هذا الارتجال يدل على ممارستهم على النقائض، فلا يناسب أن نقول أنها كانت صورة بسيطة قبل العهد الأموى كما عبر عنها شوقى ضيف بقوله:

"و نحن نلاحظ فى كل هذه العصور من الهجاء التى سبقت عصربنى أمية أنها كانت فى أكثرها صورة بسيطة، فالشعراء لا يتقيدون دائما بأن يردوا على خصومهم بقصائد من نفس الوزن والقافية"١٣

فهل الشعراء فى العصر الأموى كلهم كانوا يتقيدون ذلك؟ متى كان ذلك؟ و لم يكن من قبل؟ يتضح مما ذكرنا أن النقائض قد كانت معروفة فى العصر الجاهلى، و مارسها بعد الشعراء المسلمون و خصمهم فى العهد الإسلامى لأسباب كثيرة دعت إليها، إلا أنها قد أصبحت فنا خاصا و تقدمت تقدما هائلا فى العهد الأموى و ما بعده.

لم يصل إلينا كثيرا من نقائض كعب إلا نتفا و ذلك يدل على علو كعبه فى هذا الفن فصاحب الأغانى يخبرنا فى أخبار كعب بن مالك الأنصارى و نسبه من أغانيه:

"أخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجوهرى، و حبيب بن نصر المهلبى قالا:

حدثنا عمر بن شبة١٤ قال: حدثنا أبو عامر، عن ابن جريح، عن هشام بن عروة عن أبيه قال:

رجز راجز من قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:

لم يغزها مد و لا نصيف	و لا تميرات و لا تعجيف
لكن غذاها اللبن الخريف	والمخص والقارص والصريف

قال:فاحتفظت الأنصار حيث ذكر المد و التمر، فقالوا لكعب بن مالك: أنزل، فنزل، فقال:

لم يغذها مد ولا نصيف   لكن إذا الحنظل النقيف
و مذقة كطرة الخنيف   تبيت بين الزرب و الكنيف

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إركبا.١٤

عنون الأغانى هذه القصة بـ "ينا قض راجزا من قريش فى حداء لهما" فسواء كان هذا رجزا أو حداءا فانه يدل على فن النقائض لأنه قد استخدم نفس الوزن و القافية التى استخدمها راجز قريش.

كانت لنقائض كعب سمات بارزة من سمو الموضوعات و الإشادة بنصر المسلمين فى بدر، و التنويه بنصر المسلمين فى أحد و الخندق، و تعدد الموضوعات و تداخلها ،و النقض العام لقصيدة الخصم ،و الطابع الإسلامى.

بارز كعب بنقائضه ضرار بن الخطاب و ابن العاص و هبيرة بن أبى وهب و عبد الله بن الزبعرى و العباس بن مرداس يقول الدكتور محمد على الهاشمى:

"و كان لكعب تسع نقائض، تصدى فيها لضرار بن الخطاب فى يومى بدر و الخندق و لأبى سفيان بن حرب فى غزوة السويق، و لهبيرة بن أبى وهب فى أحد، ولضرار بن الخطاب و ابن العاص في أحد أيضا، ولعبد الله بن الزبعرى فى يوم الخندق ولعباس بن مرداس حين امتدح رجال بنى نضير"١٥

تبدو فى هذه النقائض سمات إسلامية و طابع إيمانى قوى نذكر منها كنماج أوردها الأستاذ الأديب سعيد الرحمن الأعظمى الندوى فى "البعث الإسلامى" و الدكتور محمد على الهاشمى فى كتابه أفرده لكعب بن مالك.

"تصدى ضرار بن الخطاب بن مرداس يوم الخندق بقصيدة مطلعها.

و مثقفة تظن بنا الظنونا و قد قدنا ندسة طحونا"١٦

فناقضه كعب بقصيدة تماثلها فى عدد الأبيات منها:

و سائلة تسائل ما لقينا و لوشهدت أرتنا صابرينا
صبرنا لا نرى الله عدلا على ما نابنا متوكلينا
و كان لنا النبيّ وزير صدق به نعلو البرية أجمعينا
نقاتل معشرا ظلموا و عقوا و كانوا بالعداوة مرصدينا
نعالجهم إذا نهضوا إلينا بضرب يعجل المتسرعينا١٧

ذكر صاحب سيرة ابن هشام سبعة عشر شعرا لضرار و مثله لكعب بن مالك، و نرى هذه القصيدة بنفس الوزن و القافية، و كذلك ناقض كعب عمر و بن العاص يوم الأحد و مطلع قصيدة عمرو هو:

خرجنا من الفينا عليهم كأننا مع الصبح من رضوى الحبيك المنطق
تمنت بنو النجار جهلا لقاء نا لدى جنب سلع و الأمانى تصدق
فما راعهم بالشر إلا فجأة كراديس خيل فى الأزقة تمرق١٨

أجابه كعب بنفس الوزن و القافية:

ألا أبلغا فهرا على نأىٔ دارها و عند هم من علمنا اليوم مصدق
بأنا غداة السفح من بطن يثرب صبرنا، و رأيات المنية تخفق
صبرنا لهم، و الصبر منا سبحية إذا طارت الأبرام نسمو و نرتق
على عادة تلكم جرينا بصبرنا و قدما لدى الغايات نجرى فنسبق
كنا حرمة لا تستطاع يقود ها نبى أتى بالحق عف مصدق
ألا هل أتى أفناء فهربن مالك مقطع أطراف و هام مفلق١٩

نرى مع هذه القصائد قصيدة عبد الله بن الزبعرى أنشدها يوم الخندق، ذكرها ابن هشام و مطلعها:

حتى الديار محا معارف رسمها طول البلى وتراوح الأحقاب
فكأنما كتب اليهود رسومها إلا الكنيف و معقد الأطناب ٢٠

تحتوى هذه القصيدة على خمسة عشر شعرا، فأجابه كعب باثنين و عشرين شعرا بدايته:

أبقى لنا حدث الحروب بقية من خير نحلة ربنا الوهاب
بيضاء مشرفة الذرى و معاطنا حم الجذوع غزيرة الأحلاب
كاللوب يبذل جمها و حفيلها للجار و ابن العم و المنتاب ٢١

و من نقائض كعب تلك القصيدة التى هدد بها ضرار بن الخطاب، و ذاك فى وقعة بدر، انهزم فيها المشركون فهرب الفل، و كان ضرار قد خاطب الأنصار بتهديد و إنذار بقوله:

عجبت لفخر الأوس، والحين دائر عليهم غدا، والدهر فيه بصائر
و فخر بنى النجار، إن كان معشر أصيبوا ببدر كلهم ثم عابر ٢٢

فذكر كعب مصيرهم بقوله:

عجبت لأمر الله، و الله قادر على ما أراد، ليس لله قاهر
قضى يوم بدر إذ تلاقى معشرا بغوا، وسبيل البغى بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم من الناس، حتى جمعهم المتكاثر ٢٣

نعم، هذه هى بعض النماذج النقائضية لشاعرنا المتنوع الجوانب و الأطراف التى حارب بها عن الإسلام و عن الداعى إليه، يلمح من خلالها تصويره للحروب وما دار فيها من أحوال و أهوال فى أسلوب جزل و سهل معا، و الأساليب إنما تتغير إذا تغيرت الموضوعات و العناوين، ففى شعره الذي يتعلق بالمعارك و الحروب نرى أسلوبا متينا جزلا كجلمود صخر، و رغم ذلك يمسك شاعرنا بطابع إسلامى.

كل هذه النقائض لكعب و حسان و عبد الله بن رواحة التي ذكرها مؤلفوا التأريخ عن الأدب العربى و التاريخ الإسلامى لكافية لدحض القائل مثل الدكتور شوقى ضيف الذي يقول:

"أما الهجاء الذي سبقهم فلا نسميه نقـــائض إلا علـــى
ضرب من التجور، أو على أنه كان بذورا لهذا اللـــون
الجديد الذى نقرؤه عند الأخطل والفرزدق و جرير"٢٤

هذه نقائض منضوجة مارسها أصحابها تحت رأية الدعـوة الإسلامية اللهم إلا أنها لا تثلب الأعراض و لا تخرج عن الحدود التى عينها صاحب الدعوة و سيطر عليها غـرض دينـى و طـابع إسلامى و بالإضافـة مـا أفـاد لنـا الدكتـور محمـد علـى الهاشمى،

"إن كعبا كان شاعر الفخر و الفروسية و الحـــرب، و
عدته الأولى فى هذه الأغراض: الوصف وصف الخيل
و وصف عدة الحرب والسلاح" يقول:

و نعد للاعداء كل مقلـص
ورد ومحجول القوائم أبلـق
تردى بفرسان كأن كما تهم
عند الهياج أسود طل ملثق

فمن ثم قال له النبى صلى الله عليه وسلم : أنت تحسن
صفة الحرب"٢٥

١. لسان العرب	العلامة ابن منظور مادة "نقض"	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت ١٩٩٣م
٢. المعجم المفصل في اللغة والأدب الجزء الثاني	د/ميشال عاصي و أميل بديع يعقوب ص: ١٢٦٠	دار العلم للملايين بيروت
٣. المعجم المفصل في الأدب الجزء الثاني	د/ محمد التونجي ص: ٨٦٣	دار الكتب العلمية بيروت
٤. التطور و التجديد في الشعر الأموي	د/ شوقي ضيف ص: ١٦٥	طبعته دار المعارف عام ١٩٥٩ الطبعة السابعة
٥. التطور و التجديد في الشعر الأموي	د/ شوقي ضيف ص: ١٦٣	طبعته دار المعارف عام ١٩٥٩ الطبعة السابعة
٦. الأغاني الجزء السادس عشر	د/ أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٣١ "في أخبار كعب بن مالك الأنصاري و نسبه"	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت
٧. حسان بن ثابت حياته و شعره	د/ إحسان النص	
٨. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام ص: ٦٩	دار الجيل بيروت طبعة جديدة ١٩٨٧م
٩. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام ص: ٦٩	دار الجيل بيروت طبعة جديدة ١٩٨٧م
١٠. التطور و التجديد في الشعر الأموي	د/ شوقي ضيف ص: ١٦٥	طبعته دار المعارف عام ١٩٥٩ الطبعة السابعة
١١. مختار الشعر العربي	الأستاذ محمد الرابع الندوي ص: ٢١	مكتبة دار العلوم ندوة العلماء
١٢. مختار الشعر العربي	الأستاذ محمد الرابع الندوي ص: ٢١	مكتبة دار العلوم ندوة العلماء
١٣. التطور و التجديد في الشعر الأموي	د/ شوقي ضيف ص: ١٦٣	طبعته دار المعارف عام ١٩٥٩ الطبعة السابعة
١٤. الأغاني الجزء السادس عشر	د/ أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٣١ "في أخبار كعب بن مالك الأنصاري و نسبه"	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت
١٥. كعب بن مالك الأنصاري الأديب الشاعر	د/ محمد علي الهاشمي ص: ٢٤٧	الطبعة الأولي ١٩٨٥ لم تذكر المطبعة
١٦. مجلة البحث الإسلامي	الأستاذ سعيد الرحمان الأعظمي الندوي	جمادي الأولي فبرائر ١٩٨٤ العدد الثامن ١٤٠٤

١٧. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام المعافري ص: ١٥٧	دار الجيل ١٩٨٧ طبعة جديدة بيروت لبنان
١٨. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام المعافري ص: ٧٤	دار الجيل ١٩٨٧ طبعة جديدة بيروت لبنان
١٩. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام المعافري ص: ٧٤	دار الجيل ١٩٨٧ طبعة جديدة بيروت لبنان
٢٠. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام المعافري ص: ١٥٨	دار الجيل ١٩٨٧ طبعة جديدة بيروت لبنان
٢١. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام المعافري ص: ١٦٠	دار الجيل ١٩٨٧ طبعة جديدة بيروت لبنان
٢٢. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام المعافري ص: ٢٦٣	دار الجيل ١٩٨٧ طبعة جديدة بيروت لبنان
٢٣. السيرة النبوية الجزء الثاني	ابن هشام المعافري ص: ٢٦٤	دار الجيل ١٩٨٧ طبعة جديدة بيروت لبنان
٢٤. التطور و التجديد فى الشعر الأموى	د/شوقي ضيف ص: ١٦٥	دار المعارف الطبعة السابعة ١٩٥٩م
٢٥. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر	د/محمد على الهاشمى ص: ٢٧٨	الطبعة الأولي ١٩٨٥م لم تذكر المطبعة

رثاء كعب وهجاءه

أفادنا ابن منظور صاحب "لسان العرب" بأن ابن سيدة اللغوي قال عن "الرثا": هو الخلط و لفظه هو:

"و ليس على لفظه فى حكم التصريف لأن الرثيئة مهموزة بدليل قولهم رثأت اللبن خلطته"١

و مصدر رثى هو ترثية، رثاية، رثيا، رثاء، مرثية و مرثاة، و معناه "بكى" رثى فلان فلانا يرثيه رثيا و آخرها من المصادر إذا بكاه بعد موته، و قد يستعمل هذا الفعل بالواو، رثوت الميت إذا بكيته و عددت محاسنه، و كذلك إذا نظمت فيه شعرا، و رثيت له معناه "رحمته"بصله : "لام"

و إذا استعملنا هذه الكلمة بصلة" عن" فيتغير معناها لأنها تؤدي إذا معنى حفظته" مع هذه الإفادات ذكر قول صاحب الصحاح:

"رثيت عنه حديثا رثاية إذا ذكرته عنه"١

و ذكر ما حكى عن العقيلى و هو قوله:

"رثونا بيننا حديثا و رثيناه و تناثيناه مثله، الرثية بالفتح وجع فى الركبتين و المفاصل"١

أضاف إلى هذا المعنى ابن سيده قائلا:

وجع المفاصل، و اليدين و الرجلين

جملة القول إن الرثاء تستعمل لهذه المعانى كلها وبالإضافة معناه "الضعف" و الحمق" و كل ما منعك عن الابنعاث،١

بعد هذا البحث اللغوي لامناص من الرجوع إلى الأدباء و النقاد لأنهم هم أهلها، فالدكتور محمد التونجي يقول فى كتابه "المعجم المفصل فى الأدب"

"شعر الرثاء أساسه الوفاء أو السجية، إذ يقضى الشاعر بقوله حقوقا سلفت، أو يرسل تعدادا لمآثر الأهل، أما أن يقال على الرغبة فلا و هم يجمعون فى رثائهم بين التفجع و الحسرة و الأسف و التلهف و الاستعظام، ثم يعددون مآثر الميت مبللة بالدموع"،٢

فالفرق بين الرثاء والمدح هو أن المقصود بالمدح يكون إنسانا حيا وبالرثاء إنسانا ميتا، فلابد للشاعر ان يخلط بالرثاء شيئا يدل على ان المقصود به ميت مثل "كان"أو "عدمنا به كيت وكيت "ليعلم أنه ميت فيكون ظاهر التفجع،بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف، إذا من عادة الشعراء أن لا يقدموا قبل الرثاء نسيبا كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء، لأن الأخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب.

ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى طفلا أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما وقلة الصفات و الجمع بين تعزية و تهنئة فى موضع و ذلك بأن يموت خليفة و يتولى ابنه، فابنه يستحق التعزية كما يستحق النهنئة.

إذا كان الميت ملكا أو رئيسا فيزداد التلهف حتى يعم الثقلان مثل قول أبى العتاهية:

مات الخليفة أيها الثقلان

يقول ابن الرشيق فى الجزء الثانى من العمدة بعد ما نقل قول أبى العتاهية:

"فرفع الناس رؤسهم، وفتحوا عيونهم، وقالوا: نعاه إلى الجن والإنس ثم أدركه اللبن والفترة فقال:

فكأنى أفطرت فى رمضان

يريد: إنى بمجاهرتى بهذا القول كأنما جاهرت بالإفطار فى رمضان نهارا"(ص:٨٠٦)

و يفرق الدكتور بين المديح و الرثاء بقوله:

"فالمديح تعداد لمآثر الحى، و الرثـــاء تعـداد لمـآثر الميت"٣

و يذكر عادات العرب متى كانوا يرثون و على من؟ بقوله،

"و هم لا يرثون قتلى الحروب لأنهم مـا خرجـوا إلا ليقتلوا، فإذا بكوهم كان ذلك هجاء أو فى حكمه، و لكن الرثاء لمن يموت حتف أنفه، أو يقتل بغير حرب، كأن هذا الموت غير الطبيعى هو الذى يستدعى الرثـــاء لا غيره"٤

و يقول: "كانت العرب تقدم المراثى و تقدر الراثى"٥

الرثاء أو المرثية فن قديم عريق فى القدم، كلما كان يموت لشاعر من هو أقرب إليه قلبا رثى عليه و كان يعبر خلال رثاءه عليه عن صفاته و أخلاقه و أعماله الحسنة و شجاعته فى الحروب و سخاءه و من العجيب كل العجب أنه إذا رزق أحد ولدا استبشر و لكن هذا السرور و الاستبشار قلما يثير فيه العاطفة الشعرية الجياشة المتدفقة مثلما يثيرها إذا نفض يده عن حياته، فتتفتح قريحته الشاعرية و تجيش بواطنه، و يجعل العى يتكلم و الأعرج يتقدم.

يتميز العرب بعاطفتهم و شعورهم و إحساسهم عن الأمم الأخرى قلما توجد قريحتهم الشعرية فى أمة سواهم، و قد يخطر ببالنا أن الشعر لابد أن يكون قد تولد من هذه العاطفة الرثائية هى التى حثتهم و شجعتهم بل و حرضتهم على قرض ما فى قلوبهم من أحزان و شجون و آلام ثم جعلوا يمارسونه و قد أظهر هذا الرأى العلامة شبلي النعماني فى كتابه "الموازنة بين أنيس و دبير" بالأردية نذكره هنا مترجما:

" إن الشعر قد بدأ أول ما بـــدأ عـــن الانطباعـــات و
العواطف الجياشة، و للرثاء أثر عميق في العواطـــف
فلابد أن يكون الرثاء قد بدأ منه الشعر"٦

و الرثاء شعر غنائى و أرق غرض مـن أغـراض الشعر، مارسـه حتـى أولئك الشعراء الذين عرفوا برحابة الجأش و صلابة الجلـد كـالمتبني، و أثـرت أبيـات عـن هؤلاء الشعراء الذين عرفوا بخبث الهجاء و لذاعة اللسان مثـل جريـر و مـن سـواه. يقول الدكتور ميشال عاصى و الدكتور أميل بديع يعقوب:

"و يندر أن يخلو ديوان شاعر عربى منذ الجاهلية إلـي
اليوم من مرثيات متداولة، فى فقد حبيب أو صديق، أو
من ذوى الشأن و المقام، أو فى نكبة جماعية، أو كارثة
حلت فى مدينة أو فى شعب"٧

إن العـاملين المـهمين فـى الأدب همـا: المـوت أو العشـق همـا اللـذان يرقـقان الشعر، و يبدى فيهما الشاعر قلبه القريح الجريح للآخرين، و شعر هما يستمد مـن دماء الشاعر. لذلك نرى الراثى يخلع على شعر الرثاء خلعة العموم. "هـذا كـل قـبر مالك." و يوسع شجونه:

و ما كان قيس هلكه هلك واحد　　　و لـــكن بنـيان قوم تهدما

و قد اشتهر فى الرثاء فى العصر الجاهلى المهلهل بن ربيعـة التغلبـى الـذى تفجع بمقتل أخيه كليب و أعشى باهلة الذى رثى فى المنتشر بـن وهـب البـاهلى، و متمم بن نويرة الذى رثى فى أخيه مالك و غيرهم يقول الدكتور محمد التونجي:

"و من أعلام الرثاء: أبو ذؤيب الهذلى، وعلمقمة بـــن
جدن الحميري ومحمد ابن الغنوى و الأعشى الباهلى و
مالك بن الريب"٨

و لكن من عيون الرثاء رثاء الخنساء لأخيه صخر.

هذا، و ليس من شاعر إلا و رثى، فهذا أعم نوع و فن من فنون الشعر و أنواعه و كان الشعراء يطلبون من أعينهم أن لا تبخل و أن لا تجف، وقد يجيد الراثي الرثاء بالليل لأنها تأتى بالهموم و الأحزان فتطول أعجازها فى تعبير امرئ القيس لذلك نرهم يذكرون الليالى المسهرة. لأن الإنسان ليتعزى بأصحابه و أقرباءه بالنهار، و لكنه ينفرد فى الليل و يذكر الميت فلا يقدر على نوم و يغشى عليه الليل بظلامه كما تغشى عليه بأهواله و أحزانه فيأمر عينيه بأن تجودا بالدموع الحارة نرى هذا التعبير عند كل راث لا يخلومنه أحد منهم، أنظر إلى أكبر شاعرة فى الرثاء فى تأريخ الأدب العربى أنها تستعمل هذا التعبير مرات.

* ياعين جودى بدمع منك مسكوب كلؤلؤ جال فى الأسماط مثقوب
* أعينى جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى
* ألا تبكيان الجرئ الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا٩

فالدموع الغزار الحثيثة و الهاطلة لعلها تشفى الشاعر قليلا و تعزيه، و ثانيا أن شعراء الرثاء هم يذكرون تأوب الليل، و قد عم هذا التعبير كذلك فيهم فهذا حسان رضي الله عنه. يرثى شهداء مؤ ته بقوله:

تأوبنى ليل بيثرب أعسر و هم اذا ما نوم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجت ثم عبرة سفوحا، وأسباب البكاء التذكر١٠

هذا نفس التعبير استعملته الخنساء:

أنى تأوبنى الأحزان و السهر فالعين منى هدودا دمعها درر
يؤرقنى التذكر حين أمسى فأصبح قد بليت بفرط نكس

و من صفات الرثاء أنه يخلو عن البداية بالنسيب و أن لا يذكر جمال الميت و حسنه، لأن فن الرثاء أعلى من أن يبدأ بالتشبيب و النسيب و ذكر الأطلال و الدمن،

و ذلك لأن العواطف تسابق هذه المقدمات جمعاء يقول العلامة شبلى النعماني فى كتابه بالأردو الموازنة بين أنيس و دبير.

"إلا أن هناك مثال واحد، لا يعبأ به، و هو أن دريد بن الصمة لما مات أخوه رثاه فبدأ بالغزل.

أرث جديد الحبل من أم معبد لعاقبة أو اخلفت كل موعد"١١

و قد تحدث ابن الرشيق صاحب العمدة عن رثاء دريد هذا فقال:

"إنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة و حين أخذ ثأره"١٢

و سبق لنا قول حسان- و أسباب البكاء التذكر- فلم ينس دريد أخاه بعد سنة تذكره فرثاه و لكن العواطف تبرد يوما فيوما، لذلك نرى دريدا يذكر أخاه و لكن يبدأ بالنسيب.

و هذا الفن قد وصل إلى الرقى فى الجاهلية و أخذ طريقه إلى عرش التقدم عند الخنساء بلا مراء، ثم جعل المتأخرون يرثون الدواب و الأثاث و الأدوات، يقول الدكتور التونجى:

"و من طرق الرثاء التى أحدثها المتأخرون ما يرثون به الدواب و الأثاث والأدوات و من أشهرها القصيدة الهرية لابن العلاف (ت٣١٨هـ)"١٣

ما سردنا الكلام عن الرثاء إلا ليمهد لنا الطريق للوصول إلى علو كعب فى هذا الفن، و يظهر لنا أن أكثر مرثاة شاعرنا كان فى عثمان لأنه قتل مظلوما. و يذكر لنا التأريخ أنه كان عثمانيا إلى وفاته، اللهم إلا أنه رثي ذلك الرعيل الأول الذى ضحى بنفسه و نفيسه للدعوة الإسلامية، منه هؤلاء الصحابة الذين استشهدوا فى غزوة أحد و مؤتة و بدر و رثى أفرادا و جماعات يقول الدكتور محمد على الهاشمي:

"لقد رثى كعب طائفة من الرعيل الأول، أفرادا و جماعات وكان رثاءه منبعثا من أعماق قلبه، ملفوفا بوهج مشاعره، فيه بكاء و حزن وتشيج، و لكنه لايبلغ حد التهالك و الخور، و فيه تعداد بصفات المرثى الحميدة و إشادة بمآثره و فضله، و فيه تجسيد للمصيبة التى حلت بوفاته، تبلغ أحيانا درجة التهويل و التعظيم و تبيان الخسارة التى حاقت بالحياة و الناس بسبب فقده، و تنويه بالأثر الكبير الذى تركه موته" ١٤

نزيد على هذه العبارة للدكتور أن كعبا كان فى رثايته تعبير كذلك بدليل :إن إمرأة كانت تبكى بعد وفاة النبى ﷺ على حراء فقدته و كانت تلطم و جهها و خدها و تضرب على نحرها و صدرها، فجعلها سفيهة لبكاها على ذلك الحيوان و عيرها لأن كل مصيبة بعد فقد الرسول جلل و تافه، فكيف حق لها بكاها و قد ذكر الدكتور نفسه ذلك الشعر:

و باكية حراء تحزن بالبكا و تلطم فيها خدها و المقلدا
على هالك بعد النبى محمد و لو علمت لم تبك إلا محمدا
فجعنا بخير الناس حيا و ميتا و أدناه من رب البرية مقعدا ١٥

إن الراثي يريد من رثاءه تخفيف الوجع الذى يشعره بقلبه أو إشعال شموع القلوب المنطفئة ليبكى معه الآخرون و من كمال الراثى أن يتأثر به ما حوله و من حوله و سنذكر فيما بعد كيف أبكى شاعرنا المستمعين بشعره .يكفى لنا هنا أن نذكر أنه لما رثى عثمان رضي الله عنه بقصيدة طويلة ذكرها أبو الفرج الأصفهانى ثم قال:

"فجمل القوم يبكون، و يستغفرون الله عز و جل" ١٦

رثى كعب حمزة عم البنى ﷺ رثاءا حارا صدر عن أعماق قلبه :تتكون قصيدتاه من أربعة و خمسين بيتا ذكرهما ابن هشام فى سيرته بدأ إحدهما بالأبيات التالية:

طرقت همومك فالرقاد مسهد — و جزعت أن سلخ الشباب الأغيد
و دعت فؤادك للهوى ضمرية — فهواك غورى، و صحوك منجد
فدع التمادى فى الغواية ساورا — قدكنت فى طلب الغواية تفند
و لقد أنى لك أن تناهى طائعا — أو تستفيق إذا نهاك المرشد
و لقد هددت لفقد حمزه هدة — ظلت بنات الخوف منها ترعد
و لو أنه فجعت حراء بمثله — لرأيت رأسى صخرها يتبدد
قرم تمكن فى ذؤابة هاشم — حيث النبوة و الندى و السؤدد١٧

و ختمها بالأبيات الآتية .

و أمية الجمحى قوم ميله — عضب بأيدى المؤمنين مهند
فأتاك فل المشركين كأنهم — و الخيل تشفنهم نعام شرد
شتان من هو جهنم ثاويا — أبدا و من هو فى الجنان مخلد١٨

و تبدأ القصيدة الثانية بالبكاء و العويل و تنتهى بهما، و هى فى الحقيقة أربعة أبيات فحسب :

صفية : قومى، و لا تعجزى — و بكى النساء على حمزة
و لا تسأمى أن تطيلى البكاء — على أسد الله فى الهزة
فقد كان عزا لأيتامنا — و ليث الملاحم فى البزة
يريد بذاك رضا أحمد — و رضوان ذى العرش و العزة١٩

أما الأبيات التى تركنا ذكرها هنا من القصيدة المرثية الأولى فتلخيصها هو :إن حمزة كان ينحر النوق الجلاد للضيوف عند القر و الصر و حينما ينجمد الماء، و كان يترك الكماة الأبطال مجدلين يوم الكريهة وقت تقاطر الرماح و السهام، و يشاهد حمزة أنه يرفل فى الحديد كأسد ذى لبد متبخترا . و إنه استقى الماء من عيون الموت

فطاب له ذلك المورد و لبى الموت في حضور تلك الجماعة التى نصرت النبى ﷺ ثم توجه إلى "هند" التى مضغت قلب حمزة يوم أحد قائلا :لو بشرت هند أن المسلمين قد أذاقوا قومها مرارة المعركة الدامية تغيب فيها الأسعد، و لو أنها بشرت أن جبريل ومحمدا ﷺ كانا يردان وجوه قومها على أعقابهم و ذلك تحت لوائنا فان داخل غصتها تتبرد بنفسها بيد أنها لا تبرد بشئ ، و طرد النبى ﷺ بعض سراة قريش و قتل البعض الآخر حسب منشأنا ، و أقام بالعطن المعطن منهم سبعين رجلا وكان من بينهم عتبة و أسده الآخرون.

كان كعب عثمانيا لذلك نرى رثاءه عنه أكثر بكثير ، يبكى فيه على الفقيد و يعد محاسنه و يجلى وقع المصيبة على المسلمين بفقده ، و يعير قريشا و يفرعهم و يهددهم ، حكى لنا أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى:

فلما قتل ـ أى عثمان ـ وقف كعب بن مالك على مجلس الأنصار ، فى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنشدهم:

من مبلغ الأنصار عنى آية ... رسلا تقص عليهم التبيانا
أن قد فعلتم فعلة مذكورة ... كست الفضوح و أبدت الشنآنا
بقعودكم فى دوركم و أميركم ... تحشى ضواحى داره النيرانا
بينا يرجى دفعكم عن داره ... ملئت حريقا كابيا و دخانا
حتى إذا خلصوا إلى أبوابه ... دخلوا عليه صائما عطشانا
يعلون قلته السيوف و أنتم ... متلبثون مكانكم رضوانا
الله يعلم أننى لم أرضه ... لكم صنيعا يوم ذاك و شانا
يا لهف نفسى إذ يقول :ألا أرى ... نفرا من الأنصار لى أعوانا
و الله لو شهد ابن قيس ثابت ... و معاشر كانوا له إخوانا ٢٠

نرى في هذه الأشعار أن كعبا يحث الأنصار على أنه كان يفرض عليهم عون عثمان البتة، و يعيرهم بسبب قعودهم في دورهم بيد أن دار عثمان حرقت فاشتعلت اشتعالا، و كان يرجى منهم دفعهم عنه. و يصور لنا حالة عثمان المظلوم ﷺبعد ذكر هذه الأشعار سرد أسماء مثل أبى دجانة و ابن أرقم و رفاعة العمرى و سعد بن معاذ و المنذر ابن عمرو الساعدى الذين لو كانوا أحياء لردوا أعداء عثمان على أعقابهم و ينوه بذكرهم و يشيد بنصرهم أميرهم لأنهم كانوا يرون طاعة أميرهم إيمانا .يقول:

قوم يرون الحق نصر أميرهم — و يرون طاعة أمره إيمانا
إن يتركوا فوضى يروا في دينهم — أمرا يضيق عنهم البلدانا
فليعلين الله كعب وليه — و ليجعلن عدوه الذلانا
إني رأيت محمدا اختاره — صهرا و كان يعده خلصانا
محض الضرائب ماجدا أعراقه — من خير خندف منصبا و مكانا
عرفت له عليا معد كلها — بعد النبي الملك السلطانا
من معشر لا يغدرون بجارهم — كانوا بمكة يرتعون زمانا
يعطون سائلهم و يأمن جارهم — فيهم و يردون كماتهم طعانا
فلو أنكم مع نصركم لنبيكم — يوم اللقاء نصرتم عثمانا
أنسيتم عهد النبي إليكم — و لقد ألظ و ولد الإيمان

فقال الراوى :فجعل القوم يبكون، ويستغفرون الله عز وجل."٢١

إننا نلمح من رثاء كعب أنه كان رقيق العواطف وهج المشاعر، و أنه قد ذاب قلبه و قالبه بفقد عثمان، و نراه يهجو و ينقد شعراء الجاهلية على بكاءهم و عويلهم على الدمن و الطلول لأنهم كانوا يقفون عليها و يستوقفون و يسكبون الدموع الحارة عليها و يذكرون الأثافي و الخنادق حول الخيام، فشاعرنا يتعجب من هؤلاء الشعراء على فعلتهم هذه:

يا للرجال لأمر هاج لى حزنا | لقد عجبت لمن يبكى على الدمن
يا قاتل الله قوما كان أمرهم | قتل الإمام الزكى الطيب الردن
يا كعب لا تنفك تبكى هالكا | ما دمت حيا فى البلاد تطوف
فإنك أبا عمرو عتيقا و اصلا | لرأيه، إذ كان غير سخيف
و ليبكه عند الحفاظ لمعظم | و الخيل بين مقائب و صفوف٢٢

لعل الدكتور الهاشمى قد نقل هذه الأبيات من قصائد مختلفة بدليل اختلاف الروى و القافية بينها و وقوع الإقواء فى البيت الرابع.

و من مرثيته رثاءه على عبيد الله بن الحارث الذى قطعت رجله فى وقعة بدر، و كان كعب كما يتحدث بنفسه عن نفسه أنه لم يشهد بدرا، فحزن كعب على عبيد الله حزنا شديدا فذهب مذهب الرثائيين مثل الخنساء و متمم بن نويرة الذين كان يطلبون من العيون الانهمار و الانسكاب و الجود بالدموع الحارة، أخبرنا عن هذه المرثية ابن هشام فى سيرته:

"أيا عين جودى و لا تبخلى | بدمعك حقا و لا تنزرى
على سيد هدنا هلكه | كريم المشاهد و العنصر
جريئ المقدام شاكى السلاح | كريم الثناء طيب المكسر"٢٣

يتضح لنا بعد دراسة كتب التأريخ و السير و خاصة من دراسة سيرة ابن هشام أن لكعب رثائين :رثاء فردى، و رثاء جماعى، و من الرثاء الفردى رثاءه على عثمان و حمزة و محمد ﷺ و عبيد الله بن الحارث، و من الرثاء الجماعى، رثاءه على شهداء أحد و مؤتة و غيرهم، نود هنا أن نذكر القسم الثانى من مرثيته مستعينا بسيرة ابن هشام قال ابن اسحاق "بلغنى أن كعبا قد رثى حمزة و شهداء أحد بالأشعار الآتية:

نشجت، و هل لك من منشج | و كنت متى تذكر تلجج
تذكر قوم أتانى لهم | أحاديث فى الزمن الأعوج
فقلبك من ذكرهم خافق | من الشوق و الحزن لمنضج

و قتـلاهـم فى جنان النعيم — كرام المداخـل و المخرج
بما صبروا تحت ظـل اللواء — لواء الرسول بذى الأضوج
غـزاة أجابـت بأسيافـها — جميعا بنو الأوس و الخزرج
و أشياع أحمد إذ شايعوا — على الحق ذى النور و المنهج
فما برحوا يضـر بون الكماة — و يمضون فى القسطل المرهج
كذلـك حتى دعاهم مليك — إلى جنة دوحـة المـولج
فكلهم مـات جـر البلاء — عـلى ملـة الله لـم يحرج
كحمزة لـما وفى صادقا — بـذى هبة صـارم سلجج
فـلاقاه عبـد بنى نـوفل — يـبربر كالجمـل الأدعج
فأوجره حربة كالشـهاب — تلهـب فى اللهب الموهج
و نعمـان أوفـى بميثاقه — و حنظـلة الخير لم يحنج
عن الحق حتى غدت روحه — إلى مـنزل فـاخر الزبرج
أولئك لا من ثوى منكـم — من النار فى الدرك المـرتج"٢٤

إن الذى له إلمام بالأدب يحس بما لهذه القصيدة المرثية من إيقاع فى القلوب و الجنان و الوحدة و الاتزان ، و ما عليه من طابع إسلامى و ما لها من تصوير للحرب، و ما لشاعرنا من اختيار لألفاظ كالزمن الأعوج و الحزن المنضج و القسطل المرهج و صارم سلجج و الجمل الأدعج و اللهب الموهج و فاخر الزبرج و الدرك المرتـج بعض هذه التعبيرات بل و جلها تصور لنا المعركة و بعضها تتعلق بالفخر و الفروسية، و بعضها بالمصير.

فرق كعب بين مصير المسلمين و المشركين و بين ملتيهما و هديـهما فـهؤلاء فى جنة دوحة المولج و أولئك فى الدرك المرتج فليست هذه القصيدة رثاء فحسب بل و فيها تصوير للمعركة الحاسمة و ما نتجت عليها مـن عاقبة، و إشارة إلى تـاريخ مراحل الدعوة الإسلامية التى مرت بها أثناء مسيرها الطويـل، و هنـا يـترك كعب المنهج القديم للشعر و هو أن يخاطب الشاعر صاحبيه الخياليين بل يخاطب نفسه و يتكلم بها.

و من المراثى الجماعية لشاعر الرسول كعب بن مالك تلك المرثية التى قالها بعد وقعة مؤتة و هى من عيون الرثاء كأنها تنافس رثاء الخنساء و متمم بن نويرة، ذكرها صاحب سيرة ابن هشام و هى:

نام العيون و دمع عينك يهمل … سحا كما وكف الطباب المخضل
فى ليلة وردت على همومها … طورا أحن و تارة أتململ
و اعتادنى حزن فبت كأننى … ببنات نعش و السماك مؤكل
و كأنما بين الجوانح و الحشى … مما تأوبنى شهاب مدخل
وجدا على النفر الذين تتابعوا … يوما بمؤتة أسندوا لم ينقلوا
صلى الإله عليهم من فتية … و سقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة للإله نفوسهم … حذر الردى و مخافة أن ينكلوا
فمضوا أمام المسلمين كأنهم … فنق عليهن الحديد المرفل
إذ يهتدون بجعفر و لوائه … قدام أولهم فنعم الأول
حتى تفرجت الصفوف وجعفر … حيث التقى وعث الصفوف مجدل
فتغير القمر المنير لفقده … و الشمس قد كسفت و كادت تأفل
قرم على بنيانه من هاشم … فرعا أشم و سؤددا ما ينقل
قرم بهم عصم الإله عباده … و عليهم نزل الكتاب المنزل
و ظلوا لمعاشر عزة و تكرما … و تغمدت أحلامهم من يجهل
لا يطلقون إلى السفاه حباهم … و يرى خطيبهم بحق يفصل
بيض الوجوه ترى بطون أكفهم … تندى إذا اعتذر الزمان الممحل
و بهديهم رضى الإله لخلقه … و بجدهم نصر النبى المرسل[25]

كذا نرى كعبا يتململ كتململ السليم و يذرف من عينيه كوكف الطباب المخضل و يعتاده حزن يتأوبه وجدا على هؤلاء النفر الذين استشهدوا بمؤتة، فيدعولهم أن يسقيهم عظامهم الغمام المنهمر الهاطل المسبل لكونهم صابرين على البلاء و حذرين من النكال إذ لم يفروا من ساحة القتال، و أن القمر المنير قد تغير لونه و خسف و الشمس قد كسفت حتى كادت الغروب لفقد هؤلاء المغامرين.

كان الله قد نزع عن شاعرنا النزعة الجاهلية فيشيد بذكر بنى هاشم و فرعهم الأشم و بالإضافة نزول الكتاب عليهم دون غيرهم و بهم عصم الله عباده، و أحلامهم و أفكارهم قد تغمدت الجهلاء، و لكونهم بيض الوجوه و أصحاب الأعمال السامية و جودهم فى زمن مجدب ممحل، و لكونهم مجتهدين رضى الله عن خلقهم ، و بجدهم نصر الله النبى المرسل والأنصار.

ينقل إلينا شاعرنا عواطفه و مشاعره و يشرح أمامنا قلبه المقروح الجريح وذاك فى ليلة مظلمة طرقته فيها هموم و أحزان متراكمة متجمعة، و فى الليل يشعر الإنسان الشاعر بالمصيبة أكثر بكثير مما يشعر بها فى النهار كما يقول حسان:

فدع هذا ولكن من لطيف يؤرقنى إذا ذهب العشاء. ٢٦

١. هذه الاستعمالات كلها ذكرها أصحاب المعاجم و جعلنا أمامنا لسان العرب، فهذه المعاني هي تلخيص ماذكره العلامة ابن منظور في "لسانه" في مادة : "رثي" فليراجع.

٢. المعجم المفصل في الأدب الجزء الأول — د/محمد التونجي ص: ٤٧٣ — دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣

٣. المعجم المفصل في الأدب الجزء الأول — د/محمد التوبخي ص: ٤٧٣ — دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣

٤. المعجم المفصل في الأدب الجزء الأول — د/محمد التوبخي ص: ٤٧٣ — دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣

٥. المعجم المفصل في الأدب الجزء الأول — د/محمد التوبخي ص: ٤٧٤ — دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣

٦. الموازنة بين أنيس و دبير — العلامة شبلى النعماني ص: ١٠ — طبعه مجمع الارد و في الهند

٧. المعجم المفصل في اللغة والأدب — د/اميل بديع يعقوب و ميشال عاصى ص: ٦٦٣-٦٦٤ — دار العلم للملايين الطبعة الأولى ١٩٨٧م

٨. مختار الشعر العربي الجزء الأول — الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوى ص: ٥٢ — مكتبة دارالعلوم ندوة العلماء

٩. ديوان حسان بن ثابت و سيرة ابن هشام الجزء الرابع — حسان بن ثابت الأنصارى ص: ١٨ — دار الجيل طبعة جديدة ١٩٨٧م

١٠. الموازنة بين أنيس و دبير — العلامة شبلى النعماني ص: ١٥ — طبعه مجمع الارد و في الهند

١١. العمدة في محاسن الشعر و آدابه الجزء الثاني — ابن الرشيق ص: ١٤٤ — مطبعة حجازى القاهرة الطبعة الأولى ١٩٣٤م

١٢. المعجم المفصل في الأدب الجزء الأول — د/محمد التونجي ص: ٤٧٤ — دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٣م

١٣. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر — د/محمد على الهاشمي ص: ٢٧٣ — الطبعة الأولى ١٩٨٥م لم تذكر المطبعة.

١٤. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر — د/محمد على الهاشمي ص: ٢٧٣ — الطبعة الأولى ١٩٨٥م لم تذكر المطبعة.

١٥. الأغاني الجزء السادس عشر — أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٣٠ باب "أخبار كعب بن مالك الأنصارى و نسبه" — دار إحياء التراث الإسلامي بيروت.

١٦. السيرة النبوية الجزء الثالث — أبو محمد عبد الملك بن هشام ص: ٨٤ — دار الجيل طبعة جديدة ١٩٨٧م

١٧. السيرة النبوية الجزاء الثالث — ابن هشام ص: ٨٥ — دار الجيل طبعة جديدة ١٩٨٧م

١٨. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام ص: ٨٥	دار الجيل ١٩٨٧م
١٩. الأغاني الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٢٨– ٢٢٩ -أخبار كعب-	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت لبنان
٢٠. الأغاني الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٣٠ -أخبار كعب-	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت لبنان
٢١. كعب بن مالك الأنصاري الصحابي الأديب الشاعر	د/محمد علي الهاشمي ص :٢٦٨	الطبعة الأولى ١٩٨٥م لم تذكر المطبعة.
٢٢. السيرة النبوية الجزء الثالث	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ص: ٢٧٢	دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٢٣. السيرة النبوية الجزء الثالث	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ص: ٧٠	دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٢٤. السيرة النبوية الجزء الرابع	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ص: ١٨	دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٢٥. مختار الشعر العربي الجزء الأول	ص: ١١ الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي	مكتبة ندوة العلماء لكناؤ الهند

الرجز و كعب

استعرض اللغويون معنى الرجز و أوغلوا فيه واستوعب صاحب لسان العرب معنى هذه الكلمة استيعابا ننقله ملخصا للوصول إلى نيتجة ما ، لأن معنى اللغوى هو الذى يمهد الطريق للمعنى الإصطلاحى.

"الرجز مرض يصيب الإبل فى أعجازها، أو هو اضطراب رجل البعير أو فخذيه إذا أراد القيام، أو ثار ساعة ثم تنبسط مصدره "الرجز" من رجز يرجز، ويؤنث فيصبع رجزاء، و قال بعض اللغويين الرجزاء هى الناقة ضعيفة العجز إذا أرادت النهوض من مبركها فلا تقدر عليه إلا بعد نهضتين أو ثلاث وقيل للريح إذا دامت أنها رجزاء"١

فمن ثم قيل للشعر الرجز لتقارب أجزائه و قلة حروفه، و قد ذكر صاحب اللسان قول ابن سيدة أن الرجز عنده هو:

"الرجز شعر إبتداء أجزائه سببان ثم وتد، و هو وزن يسهل فى السمع، ويقع فى النفس، و لذلك جاز أن يقع فيه المشطور وهو الذى ذهب شطره، والمنهوك، وهو الذى ذهب أربعة أجزائه"٢

خالف ابن الرشيق هؤلاء الأدباء والنقاد الذين يرون أن الرجز هو المشطور والمنهوك ما جرى مجراهما قائلا:

"وليس كذلك لأن الجز ثلاثة أنواع غير المشطور والمنهوك والمقطع"(ص:٣٣٩)

و ضرب مثلا لتلك الأنواع التى أضافها إلى هذه الأنواع الثلاثة مستدلا بأرجوزة عبدة بن الطيب و شاعرين آخرين لم يذكر اسمهما، يظهر من استدلاله أن تام العروض قد يدخل فى الرجز سواء كان الضرب سواءا بسواء أومقطوعا كما يدخل فى اسم الرجز مجزوء الرجز.

نعم، المجزوء من الأبيات ما حذف منه جزآن: العروض والضرب والمشطور: ما حذف نصفه. والمنهوك : ما حذف ثلثا شطريه. والمقطع: ما جاء على جزء واحد.

و قد اضطربت أقوال الخليل بن أحمد عن "الرجز" لأنه ذكر فى موضع أنه شعر صحيح و فى موضع آخر أنه ليس بشعر بل هو أنصاف أبيات أو أثلاث ذكر ابن منظور استدلال الخليل على ذلك.

و الحق أن الرجز قد تولد من السجع و الشعر بنت من الرجز نستدل على ذلك بشعر المعرى.

و من لم ينل فى القول رتبة شاعر ... تقنع فى نظم برتبة راجز[٣]

و إن كان فى هذا الشعر استهانة بمكانة الرجز ولكنه دليل على أن الرجز مرحلة من مراحل الشعر و أما من الناحية التأريخية فيقول صاحب المعجم المفصل فى الأدب:

"و أول من طول الرجز و جعله كالقصيدة الأغلب العجلى وكان على عهد النبى ﷺ ثم أتى العجاج بعد فافتن به، فالأغلب والعجاج فى الرجز كامرئ القيس ومهلهل فى القصيد"[٤]

هذا و قد ذكر صاحب هذا الكتاب أن بروكلمان صاحب "تأريخ الأدب العربى قال: إن الرجز عبارة أسجاع و قول ابن الرشيق صاحب العمدة: زعم الرواة أن

الشعر كله إنما كان رجزا و قطعا و إنما قصد على عهد هاشم بن عبد مناف و زعم الدكتور محمد التونجي كذلك:

"و نرجح أن الشعر العروضى المعروف تطور عن الرجز تطورا مرحليا وأن الرجز أصله النثر المسجوع الموزون الجمل، ودليل ذلك تشابه روى كل شطر فيه، صدرا وعجزا"٥

الأرجوزة تسمى قصيدة سواء طالت أو قصرت و بالعكس لا تسمى القصيدة أرجوزة و لو كانت مصرعة الشطور. يقول ابن رشيق في عمدته:

"أول من طول الرجز و جعله كالقصيد الأغلب العجلي

و جاء بعد العجاج (أنظر العمدة الجزء الأول ص: ١٢٦.)

هذا، و قد أخبرنا ابن هشام بعد ما ذكر الأسناد الطويلة عن ابن اسحاق أنه خرج مرحب اليهودى من حصنه يوم خيبر وكان جمع سلاحه يرتجز وهو يقول:

قد علمت خيبر أنى مرحب — شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحيانا وحينا أضرب — إذا الليوث أقبلت تحرب٦

وكان يبارز قائلا هذا الرجز فأجابه كعب بن مالك بنفس سلاحه مرتجزا:

قد علمت خيبر أنى كعب — مفرج الغمى جرى صلب
إذا شبت الحرب تلتها الحرب — معى حسام كالعقيق عضب
نطؤكم حتى يذل الصعب — نعطى الجزاء أو يضئ النهب٧

و لكن أبا زيد الأنصاري الراوية قد أنشد الرجز التالي لابن هشام عن كعب حسبما ذكر لنا ابن هشام:

قد علمت خيبر أنى كعب — وأنني متى تشب الحرب
ماض على الهول جرئ صلب — معى حسام كالعقيق عضب
بكف ماض ليس فيه عتب — تدككم حتى يذل الصعب ٨

١. لسان العرب	العلامة ابن منظور باب :"رجز"	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت ١٩٩٣ء
٢. لسان العرب	العلامة ابن منظور مادة "رجز"	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت ١٩٩٣ء
٣. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثانى	الدكتور محمد التونجى: ٤٧٤	دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣ء الطبعة الأولى
٤. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثانى	د/محمد التونجى ص: ٤٧٤	دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣ء الطبعة الأولى
٥. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثانى	د/محمد التنجى ص: ٤٧٥	دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣ء الطبعة الأولى
٦. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام ص: ٢١٥ -٢١٤	دار الجيل بيروت 1987
٧. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام ص: ٢١٥	دار الجيل بيروت 1987
٨. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام ص: ٢١٥	دار الجيل بيروت 1987

هجاء كعب رضي الله عنه

تفيدنا المعاجم والقواميس العربية المختلفة وخاصة "لسان العرب" لعلاّمة اللغة ابن منظور بأن كلمة "هجا"، "يهجو" لها ثلاثة مصادر: "هجو"و "هجاء" و"تهجآء" و قد تأتى بشدّ الجيم وبعدها "ياء" مثل هجية و مصدرها تهجية، و معانى هذا الكلمة هى: الشتم بالشعر يقول ابن منظور:

"شتمه بالشعر و هو خلاف المدح، قال الليث : هو الوقيعة فى الأشعار وروى عن النبى ﷺ أنه قال: اللّهم إنّ فلانا هجانى فاهجه اللهم مكان ما هجانى معنى قوله: أهجه: أى جازه على هجائه إيّاى جزاء هجاءه"[١]

وقد تستعمل مزيداً ثلاثياً مثل تهاجا يتهاجا فالشاعران يتهاجيان، منها المهاجاة، والشعراء يتهاجوَن فتكون بينهم أهجوّة أو أهجيّة: وقد نقل ابن منظور قول أبى زيد و هو:

"الهجاء: القرأة :قال: و قلت لرجل من بنى قيس أ تقرأ من القرآن شيئًا ؟ فقال: والله ، ما أهجو منه حرفًا، يريد : ما أقرأ منه حرفاً : قال: و رويت قصيدة فما أهجو منها بيتين ، أى ما أروى"[٢]

كذلك ذكر قول ابن سيدة و هو:

"و الهجاء تقطيع اللفظة بحروفها : و هجوت الحروف و تهجّيتها هجوًا وهجاءاً، هجّيتها تهجية وتهّجيت كله بمعنى"[٣]

و فعل "هجُوَ" معناه اشتدّ الحَر ، فهجو يومنا يعطينا معنى اشتّد حرّه ، و الهجاة : الضفدع، و هكذا، هذه هي تصريفات كلمة هجو و معاينها المختلفة. التقطتها من لسان العرب لغةً. و أمّا معناها الإصطلاحى أو معناها فى الأدب فيحدّثنا الدكتوران الجليلان : ميشال عاصى وأميل بديع يعقوب فى مؤلَّفهما : "المعجم المفصّل فى اللّغة و الأدب"

"الهجاء أو الهجو هو غرض من أغراض الشعر : يقوم على تقبيح صورة فردٍ أوجماعة، أوعادة من العادات ، أومظهر من مظاهر الحياة و الوجود، وهو تعبير عن احتقار الشاعرللمهجو و الرغبة فى الحطّ من شأنه و الهزء به و مسخه ما أمكن إلى ذلك سبيلاً "٤

و للهجاء هجاءان متفقان فى المعنى و مختلفان فى الموضوع وهذان القسمان ذكرهما الدكتور محمد التونجى فى مؤلّفه "المعجم المفصّل فى الأدب" يقول:

"وهو قسمان : قسم يسمّونه هجو الأشراف : وهو مالم يبلغ أن يكون سبابا مقذعًا، بل هو التضريب بين الأحساب ، وقسم هو: السّباب ولايجنح الشاعر إليه إلاّ إذا عجز عن إصابة المغمز الّذى يكمن فيه الألم من الموضع الصحيح"٥

يستعمل الهجاء فى مقابل المدح و الفخر و هو جزء هامّ قديم وجديد للشعر العربى ، فكان الشاعر يعارض قبيلة عدوّه بالوقائع و المآثر و الأيّام فى الجاهلية و لم يبلغ إلى سباب أو إفحاش إلاّ أنـّه كان يستخدم لسلب الخلق أو النفس، و كان بسيطًا فى معانيه و مفاهيمه، و لكون الشاعر لسان قومه و عشيرته و المدافع القدير المرموق عن رهطه و بطنه كان ينبرى ملزمًا إلى هجاء أعداءه بذكر مخازيهم و رزائلهم و

سقطاتهم ، فكما كان يهجو مجتمعهم من حيث المجموع كان يهجو أفرادا و أشخاصا معينين.

و من البديهى الفطرى أن الهجو أحب إلى الناس أجمعين بالنسبة إلى المدح الشاعر مولود بيئته ومجتمعه فلا يخلو من تأثيرهما، وللهجاء فائدة وهى أنه يحفظ فى ثناياه الشخصيات لذلك قال يونس بن حبيب:

"لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس"٦

و قد اتسع نطاق شعر الهجو فى العهد الإسلامى لسبب المخاصمات بين الدعوة الجديدة والفكر القديم ولأجل تحريض النبى ﷺ شعراء على هجو من هجا، يقول صاحب الأغانى:

"كان يهجوهم يعنى قريشا، ثلاثة نفر من الأنصار يجيبونهم : حسان بن ثابت وكعب بن مالك ،وعبد الله بن رواحة ، و كان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم، بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر، وينسبهم إليه"٧

و كان يهجو الدعوة الجديدة كثير من قريش منهم عبد الله الزبعرى، و الحارث بن هشام و أبو سفيان بن حرب و عمرو بن العاص ، و ضرار بن الخطاب وغيرهم. فمن تلك الأخبار الهجائية التى تناقلتها الكتب التأريخية وفق قول أبى الفرج الأصفهانى:

"أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك، فقام ابن رواحة، فقال: يارسول الله إئذن لى فيه، فقال له: أنت الذى

تقول: فثبت الله؟ قال : نعم يا رسول الله، أنـــا الـــذى

أقول:

فثبت الله ما أعطاك من حســن   تثبيت موسى، ونصرا كالذى نصرا

فقال: وأنت فعل الله بك مثل ذلك، قال فوثب كعب بـن

مالك فقال:

يارسول الله، ائذن لى فيه. فقال: أنــت الــذى تقـول:

همت؟ قال: نعم يا رسول الله، أنا الذى أقول:

همت سخينة أن تغالب ربها   وليغلبن مغالب الغـلاب

فقال: أما إن الله لم ينس لك ذلك."٨

هكذا نرى الرسول ﷺ يحض حسانا على إجابة مـن هجا الدعـوة الجديـدة وصاحبها بقوله: أهجهم و روح القدس معك. فـهؤلاء الثلاثـة كـانوا يـهجون أعـداء النبى ﷺ نقل إلينا ابـن حجـر العسقلانى فـى تـهذيب التـهذيب و ابـن الـبر فـى الاستيعاب قول ابن سيرين أنه قال:

"و قال ابن سيرين كان ثلاثة من الأنصار يهاجون عـن رسول الله ﷺ حسان ، وابن رواحة وكعب"٩

لقد ازدهر الهجاء ازدهارا فـى العـهد الأمـوى ، لأن الخـلاف اتخذ أبعـادا سياسية واجتماعية وعنصرية بالإضافة إلى الهجاء الفردى المقذى و كـان فـى مقدمـة الهجائيين جرير والفرزدق والأخطل وسبقهم الحطيئة الذى لم يتورع عن هجاء أمـه ونفسه هو، و من هجاء نفسه قوله:

أرى لى وجها شوه الله خلقه   فقبح من وجه، وقبح حامله١٠

لسنا هنا بصدد ذكر ما كان بين هؤلاء الهجـائيين الثلاثـة مـن خصـام كلامـى مقذى فدواوينهم دليل قاطع على ذلك. وكان للشعوبيين يد أطول فى هذا المجال

حتى نرى كثيرا من الشعراء فى العصرين الأموى والعباسى يتكسبون بالهجاء فلم يجتنبوا عن السباب و النيل من الأعراض والحرمات و قد أمعنوا فى الهذء والتهكم، و قد دعتهم أسباب وعوامل كثيرة إلى ذلك: منها: إن الجزيرة العربية أصبحت فى هذين العصرين مسرح العناصر المختلفة و الثقافات المتنوعة: جعل الأعاجم يفتخرون بعجميتهم وخاصة فى العصر العباسي و بدأوا يعيبون العرب فى أسلحتهم الحربية وتنظيم المحاربين، وجعلوا يؤلفون الكتب فى مناقب العجم و مثالب العرب و وصلوا إلى أن قال الدكتور أحمد أمين فى ضحاه:

"فقد ألف علان الشعوبى كتابا فى مثالب العرب، فأجازه طاهر بن الحسين بثلاثين ألفا"١١

وللأحزاب السياسية يد أهم كذلك فى ازدهار الهجاء وللمذاهب المختلفة كذلك سهم في ترقيها، حتى أصبح فنا مستقلا. يقول الدكتور محمد التونجي:

"ولما كان الشعراء ألسنة قبائلهم ونوابها فى السياسة العامة كان هجاء بعضهم بعضا لايزال عاما، حتى إذا ذهبت عصبية القبائل ووهنت عقدة الجاهلية، وسكنت فائرة الأحزاب صار الهجاء كسائر أغراض الشعر فاتخذ لحك الحزازات وشق المرائر، وتحول إلى كذب وسخف وإفحاش"١٢

هذا، و من مشاهير فن الهجاء فى الجاهلية كان : الأعشى و طرفة و زهير، و الذين اشتهروا فى العهد الإسلامى الشاعر المخضرم الحطيئة ، و جرير و الأخطل و الفرزدق و فى العهد العباسى اشتهر بشاربن برد الخراسانى و دعبل بن على الخزاعى و ابن الرومى وغيرهم.

لابد لشاعر الهجو أن يكـون عالما بالأنساب والأيام لأنـه يجعلـها موضوعا لهجاءه :

فجرير مثلا لم يبلـغ إلى مكانـة العليـا مـن الهجـاء إلا لمكان علمـه بالنسب والمثالب من جد الفرزدق الخطفى. وكذلك كـان النبـى ﷺ يـأمر شعراءه أن يلحقـوا بأبى بكر لعلمه بالأنساب.

فالهجاء سلاح هام للمدافعة ، استعمله كعـب فـى شعره لا لنيـل الأعـراض والحرمات بل وللدفاع عن الإسلام والداعى إليه، فسنرى فـى السطور الآ تيـة أبعـاد هجاءه و معانيه و مفاهيمه تحدثنا من قبل عند التكلم عـن الرثـاء أنـه كـان لمرثيتـه جزءان مرثية فردية ومرثية جماعية، كذلـك نـرى أن لـه هجاءين هجاءا فرديا و جماعيا يقول الدكتور محمد علي الهاشمي :

"لقد هجا اليهود، وهجا المشركين من العرب، فتنـاول فى هجاءه بنى النضير، وبنى قريظـة مـن اليـهـود، وتناول قبائل العرب المشركين قريشا وبنى جعفر بـن كلاب، وبنى لحيان، وهجا من أفراد عبد الله الزبعرى، وعامر بن مالك وأبى عامر عبد الله بن عمروبن صفى بن النعمان، وأبى بن خلف"١٣

و من أسباب نجاحه فى الهجاء أنه استحذم سلاحا مثل سلاحهم، وعارضهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، و عيرهم بالمثالب، فكان قول حسان وكعب أشد شئ عليهم: لأن الهجاء لايغنى شيئا حتى لا يهز قلوب المغاضبين، وذلك يحتاج إلى فطنة وذكاء مفرط وعلم بالأنساب وسقطات العدو، والبسـالة لا تظـهر حتـى لايكون السلاح مماثلا مشابها، فلا يهجى مشرك بشئ لا يتعلق بعقلـه، فكـان شاعرنا عالما

بنفسيتهم و سيكولوجيتهم فلا يـهجوهم بـالكفر الـذى هـو أعلـق شئ بـهم: يقـول الدكتور شوقى ضيف فى كتابه "تأريخ الأدب العربي" العصر الإسلامى:

"و من المؤكد أن حسانا وكعبا كانا يرميان قريشا على بصيرة حين غلبت على هجاءهما صورة الهجاء القديمة، لأنها هى التى تؤذى نفوس القرشيين المكيين، ولو أنهما رمياهم بالشرك وبمادة الأوثان لما نالا منهم.....ومن ثم اتجه كعب وحسان هذه الوجهة، فطعنا فى الأحساب والأنساب، وعيرا سادتهم وفرسانهم بالفرار من الحرب، وتواعداهم بالبلاء المستطير، ولشعراء المدينة القدح المعلى فى هذا الميدان"١٤

وقد شجع الشعراء المسلمين على الهجاء قول البنى ﷺ لحسان رضي الله عنه الذى ذكره لنا فواد أفرام البستانى صاحب كتاب "شاعر النبى صلى الله عليه وسلم" :

"أذهب إلى أبى بكر ليدلك على الأشخاص وليدلك على معايبهم ومثالبهم"، ذلك لأن أبابكر علامة العرب فى الأنساب"١٥

و قوله عليه السلام لحسان ذكره فؤاد نفسه

"إذهب وروح القدس معك" (أى هجائهم) وفى رواية: "اذهب وجبريل معك"١٦

و قوله عليه السلام:

"ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم"١٧

و حسان لم يكن صاحب سلاح حربى، فيصدق هذا القول على كعب و ابن رواحة رضى الله عنهما. فهذا تحريض لهما على الهجاء.

هذا، ولدينا براهين أخرى التى تؤيدنا على أن النبى ﷺ شجع كعبا على الهجاء منها ما ذكره لنا صاحب الأغانى عن ابن سيرين رضى الله عنه قال:

"وقف رسول الله بباب كعب بن مالك ، فخرج فقال له: رسول الله صلى الله عليه وسلم إيه، فأنشده، ثم قال: إيه فأنشده، ثم قال: إيه، فأنشده (ثلاث مرات). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لهذا أشد عليهم من مواقع النبل"١٨

وذكر لنا صاحب " حاشية دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني حديثا عن جابر ابن جرير أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب عندما انهزم المشركون:

"من يحمى أعراض المؤمنين؟ قال كعب: أنا يا رسول الله فقال: إنك محسن الشعر، فقال حسان: أنا يا رسول الله. قال: نعم، أهجم أنت سيعينك روح القدس."

أما صاحب الأغانى فروى هذا الحديث على النحو التالى:

"لما انهزم المشركون يوم الأحزاب، قال رسول الله ﷺ: إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم، ولكنكم تغزونهم، وتسمعون منهم أذى ويهجونكم، فمن يحمى أعراض المسلمين؟ فقام عبد الله بن رواحة، فقال: أنا، فقال: إنك لحسن الشعر، ثم قام كعب ، فقال: أنا، فقال: و إنك لحسن الشعر"٢٠

كان كعب قد مارس الهجاء بسبب الحروب المستعرة بين الأوس والخزرج فى الأيام الجاهلية ممارسة حسنة كبيرة، و بسبب الحروب بينهم وبين اليهود، لقد سرد فؤاد أفرام البستاني أسماء تلك المعارك التى دارت بين الأوس والخزرج نقلا عن كتاب" أيام العرب فى الجاهلية"، قال:

"كانت بين الأوس والخزرج أيام شديدة كالحة عابسة وقع فيها كثير من القتال، ولعل أشدها شؤما وأشهرها:

حرب سمير: كانت للأوس على الخزرج.

حرب كعب: وكانت للخزرج على الأوس،

حرب حاطب: وكانت للخزرج على الأوس و

حرب يوم بعاث: وكانت للأوس على الخزرج ولبث الأوس والخزرج متحاربين عشرين سنة فى أمر سمير"[٢١]

ولد كعب ونشأ فى أحضان هذه الحروب، وكان الهجاء يتناقل فى مجتمعات المدينة فأخذ منه حظه ، لذلك نراه فيما بعد فى العهد الإسلامى يرتجل الهجاء ارتجالا ، حتى أن الله لم ينس قوله:

همت سخينة أن تغالب ربها   وليغلبن مغالب الغلاب[٢٢]

ذكر لنا الجاحظ صاحب البيان والتبيين أن الرسول قال لكعب عند ما انشد هذا البيت: ما نسي الله لك مقالك، كما ذكرلنا الأ غانى: أما أن الله لم ينس ذلك لك[٢٣] و صاحب الطبقات: أترى الله نسى لك قولك[٢٤]؟ و ذكر صاحب الاستيعاب أن الرسول قال له: لقد شكرك الله ياكعب على قولك هذا.[٢٥]

كذلك نرى أن الرسول ﷺ غير كلمة من شعرله : ذكر أبو الفرج بعد كلام طويل أن كعبا أنشد:

"مُقاتلنا عن جذمنا كلّ فخمةٍ"

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا تقل عن جذمنا،

ولكن قل مقاتلنا عن ديننا"٢٦

كلّ هذا يدل أن هجاء كعب وشعره كان يهتمّ به الرّسول ﷺ اهتمامًا بالغًا، وأنّه وصل إلى ما وصل إليه بتشجيع النبى ﷺ نبدأ هجو كعب بالهجاء الجماعى وكان هدفه فيه بني النضير الّذين أجلوا من المدينة لأ نّهم شاقّوا الله ورسوله وكعب بن أشرف اليهودى الّذى قتل. ذكره فى ضمن هذا الهجاء، واللفظ لابن هشام:

لقد خزيت بغدرها الحبور	كذلك الدّهر ذو صرف يدور
وذلك أنّهم كفروا برب	عزيز أمره أمر كبير
و قد أوتوا معًا فهمًا وعلمًا	وجاء هم من الله النذير
نذير صادق أدّى كتابًا	وآيات مبيّنة تنير
فقالوا ما أتيت بأمرٍ صدق	وأنت بمنكر منّا جدير
فقال: بلى لقد أدّيت حقًّا	يصدّقنى به الفهم الخبير
فمن يتبعه يهد لكلّ رشد	ومن يكفر به يُجز الكفور
فلمّا أشربوا غدرًا وكفراً	و حارهم عن الحق النفور
أرى الله النبى برأى صدق	و كان الله يحكم لا يجور
فأيدّه و سلّطه عليهم	و كان نصيرَه نعم النصير
فغودر منهم كعب صريعًا	فذلّت بعد مصرعه النضير
على الكفّين ثم وقد علته	بأيدينا مشهّرة ذكور
بأمر محمّد إذ دسّ ليلا	إلى كعب أخا كعب يسير
فماكرَه، فأنزله بمكر	ومحمود أخو ثقة جسور
فتلك بنو النضير بدار سوء	أبارهم بما اجترموا المبير
غداة أتاهم فى الزحف رهواً	رسول الله و هو بهم بصير
وغسّان الحماة موازروه	على الأعداء وهو لهم وزير
فقال: السلم ويحكم فصدّوا	و حالف أمرهم كذب و زور

فذاقوا غبّ أمرهم وبالاً لكلّ ثلاثة منهم بعير
و أجلو عامدين لقينقاعٍ و غودر منهم نخل و دور٢٧

هذه القصيدة الهجائية ليس فيها هجو الأشراف ولا سباب، فهي كمثل سرد تأريخ فى ظلال طابع إسلامى عيّرهم كعب فيها كابن رواحة بالكفر وهذا سلاح ضعيف يستخدمه كعب بعض الأحيان إذا كان العدوّ قد أصبح ضعيفًا وليس هذا أسلوبه و سلاحه العام فى هجاءه، وعيرّهم بالغدر ونفورهم عن الصواب، و الكذب والزور. تناول كعبُ فى هذه القصيدة الأحبار، لكونهم علماء اليهود و رؤساءهم و محرّضى الحروب و محرّكيها و خصّ من بين اليهود قبيلة النضير بسبب غدرها، و ذكر كعب بن أشرف خاصّة و مصرعه الوخيم. ومدح النبى و ما سوعد به من الله. كذلك نرى هنالك بعض الأمثال مثلاً : الدّهر ذوصرف يدور، : أشربوا غدرًا وكفراً. وجّه كعب ثلاثة أبيات هجائية جماعية إلى بنى لحيان، ذكرها صاحب سيرة ابن هشام فى كتابه وهى:

لو أنّ بنى لحيان كانوا تناظروا لقوا عصبا فى دارهم ذات مصدَق
لقوا سرعاً يملأ السّرب روعه أمام طحون كالمجرّة فيلق
ولكنّهم كانوا وباراً تتبّعت شعاب حجاز غير ذى متنفَق٢٨

ساق ابن هشام شعر كعبْ هجائي آخر يتعلّق بقريش وجّهه إليهم بعد غزوة أحد، إنّ البيتين الأوّلين هما هجائيان ثمّ نرى شاعرنا يمدح النبى بعدهما، يفتخر فى البيت الثالث و ينثال المدح انثيالاً على النبى ﷺ فى خمسة أبيات و فى البيتين الأخيرين يفتخر بأنصار النبى ﷺ وهو منهم وإليكم هذه القصيدة:

سائل قريشا غداة السفح من أحد ماذا لقينا وما لاقوا من الهرب
كنّا الأسود وكانوا النمّر إذا زحفوا ما إن نراقب من آلٍ و لا نسب
فكم تركنا بها من سيّد بطل حامى الذّمار كريم الجدّ و الحسب
فينا الرسول شهاب ثمّ يتبعه نور مضئ له فضل على الشهب
الحقّ منطقه، و العدل سيرته فمن يجبه إليه ينجُ من تلب
نجدُ المقدّم ، ماضى الهمّ معتزم حين القلوب على رجف من الرُعب

يمضى و يذمرنا عن غير معصية كأنه البدر لم يطبع على الكذب
بدا لنا فاتبعناه نصدّقه و كذّبوه، فكنا أسعد العرب
جالوا، وجُلنا فما فاءوا ما رجعوا و نحن نشفنهم لم نأل فى الطلب
ليسا سواء و شتى بين أمرهما حزب الإله و أهل الشرك و النُّصب٢٩

ذكر الدكتور محمد على الهاشمى قصيدة أخرى هجائية ونسبها إلى كعب ولكنّ ابن هشام نسبها إلى حسان بن ثابت بدايتها هى:

لقد لقيت قريظة مآساتها و حلّ بدارها ذلّ ذليل٣٠

والحقيقة أن الهاشمى مخطئ فى نسبها إلى كعب، لأنّ هذه القصيدة قد وردت تحت عنوان "شعركعب" ولم ترد تحت عنوان صريح ولكن ابن هشام صرّح أنهّا لحسان.[٣١] لذلك لا نستعرضها.

ونرى كعبا يهجو بنى جعفر بن كلاب أو يعيّرهم بعد حادثة بئر معونة و هذه الأبيات لا تزيد على ثلاثة وهى:

تركتم جاركم بنى سليم مخافة حربكم عجزاً وهونا
فلو حبلاً تناول من عُقيل لمدّ بحبلها حبلاً متينا
أو القرطاء ما إن أسلموا و قدمًا ما وفوا إذ لا تفونا٣٢

أمّا القصائد الأخرى الهجائية وهى فردية، لابّد من استعراضها استعراضًا، فنقف عندما يجب الوقف وشاهدنا خلال دراسة قصائدها الهجائية أنّ الطابع الإسلامى هو السائد على جميعها.

تناول شاعرنا عبدَ الله الزبعرى بالهجاء المقلع المسخط و رماه بخبيث الكلام و اللؤم و الهُجن قاله بعد وقعة أحد المعروفة يقول:

نشب وتملك آباءنا وبينا نربىّ بنينا فنينا
سألت بك ابن الزبعري فلم أنباءك فى القوم إلاّ هجينا
خبيثًا تطيف بك المنديات مقيمًا على اللؤم حينا فحينا
تبجسّت تهجو رسول المليك قاتلك الله جلفا لعينا
تقول الخنا ثم ترمى به نقى َالثياب تقيَّا أمينا٣٣

و وجّه هجاءاً إليه آخر بعد إجابة هبيرة بن أبى وهب فى قصيدة طويلة قائلا له:

فخرت على ابن الزبعرى وقد سرى   لكم طلب من آخر الليل متبع
فسل عنك فى عليا معدّ وغيرها   من الناس من أخرى مقامًا وأشنع
ومن هولم يترك له الحرب مفخراً   ومن خدّه يوم الكريهة أضرع ٣٤

هذا، و قد نشاهد خلال قصائده الفخرية بعض الأبيات الهجائية خاطب بها الأفراد والجماعات فعمرو بن العاصى عندما قال قصيدته يبدأها بالبيت التالى:

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا   مع الصبح من رضوى الحبيك المنطق ٣٥

أجابه كعب بعدد ألفاظها وأبياتها بدأها بالبيت الآتى:

ألا أبلغا فهراً على نأى دارها   و عندهم من علمنا اليوم مصدق ٣٦

وخلال أبياته الستة رماه باللئوم و وصف نفسه وجماعته بالصبر يقول:

صبرنا لهم ، والصبر منا سجية   إذا طارت الأبرام نسمو ونرتق
على عادة تلكم جرينا بصبرنا   و قدمًا لدى الغايات نجرى فلنسبق ٣٧

هكذا نرى كعبا يهجو أفراداً وجماعات وكان هجاءه حقًا على الأعداء أشدّ من مواقع النبل، كذلك نرى رسول الله ﷺ بباب كعب يستنشده الشعر يقول أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى بعد ذكر الأسناد:

"وقف رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بباب كعب بن مالك، فخرج فقال له رسول الله- صلى الله عليه وسلم: إيه، فانشده ثم قال: إيه فأنشده، ثم قال إيه فأنشد (ثلاث مرّات). فقال رسول الله ﷺ : لهذا أشد عليهم من مواقع النبل"٣٨

و يحكم الرسول ﷺ بحسن شعره ويغير كلمة من شعر له، ونعتقد أن شاعرنا هو شاعر فخر، نرى هذه الصفة فى جميع أشعاره، ولا مناص لنا من ذكر قصائده الفخرية. نذكرها بعد الهجاء لان الفخر فى الأصل قرن الهجاء أو شبيه له.

١.	لسان العرب	العلاّمة ابن منظور باب "هجا"	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت لبنان الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٣
٢.	لسان العرب	العلاّمة ابن منظور باب" هجاء"	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت لبنان الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٣
٣.	لسان العرب	العلاّمة ابن منظور باب" هجاء"	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت لبنان الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٣
٤.	المعجم المفصّل فى اللغة والأدب الجزء الثانى	د/مشال عاصى و د/أميل بديع يعقوب ص: ١٢٨١	دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٧ الطبعة الأولى
٥.	المعجم المفصّل فى الأدب الجزء الثانى	د/محمد التونجى ص: ٨٧٢	دار الكتب العلمية بيروت١٩٩٣الطبعة الأولى
٦.	المعجم المفصّل فى الأدب الجزء الثانى	د/محمد التونجى ص: ٨٧٢	دار الكتب العلمية بيروت١٩٩٣الطبعة الأولى
٧.	الأغانى الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصبهانى ص: ٢٣١ باب أخبار كعب بن مالك الأنصارى و نسبه	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت لبنان.
٨.	الأغانى الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصبهانى ص: ٢٣١ باب أخبار كعب بن مالك الأنصارى و نسبه	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت لبنان.
٩.	تهذيب التهذيب	ابن حجر العسقلانى ص: ٤٤١	دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة الطبعة الأولى عام ١٩٩٢م
١٠.	المعجم المفصّل فى اللغة والأدب الجزء الثانى	د/ميشال عاص و د/أميل بديع يعقوب ص: ١٢٨٦	دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٧م
١١.	ضحى الإسلام الجزء الأوّل	الدكتور أحمد أمين ص: ٢٣	دار الكتب العربى بيروت ـ لبنان الطبعة العاشرة
١٢.	المعجم المفصّل فى الأدب الجزء الثاني	د/محمّد التونجى ص: ٨٧٢	دار. الكتب العلمة بيروت الطبعة الاولى ١٩٩٣م
١٣.	كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر	د/محمد على الهاشمى ص: ٣٠٢	الطبعة الأولي عام ١٩٨٥م
١٤.	تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى	الدكتور شوقى ضيف ص: ٥٠	دار المعارف الطبعة العاشرة
١٥.	شاعر النبى صلى الله عليه وسلم	فؤاد أفرام البستانى	

١٦.	شاعر النبى صلى الله عليه وسلم	فؤاد أفرام البستانى	
١٧.	نفس المصدر	نفس المؤلف	
١٨.	الأغانى الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصبهانى ص: ٢٣٣ باب "أخبار كعب بن الأنصارى ونسبه"	دار إحياد التراث الإسلامى بيروت
١٩.	دلا ئل الإعجاز	عبد القاهر الجرجانى ص: ١٣	أنظر حاشية هذه الصفحة
٢٠.	الأغانى الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصبهانى ص: ٢٣٢	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت لبيان
٢١.	أيّام العرب فى الجاهلية	نقلا عن شاعر النبى صلى الله عليه وسلّم" لفؤاد أفرام البستانى ص: ٦٢	
٢٢.	البيان والتبيين الجزء الأوّل	عمر وبن عثمان البحر الجاحظ ص: ٢٦٨	الطبعة الثالثة عام ١٩٣٧م مطبعة الاستقامة بالقاهرة
٢٣.	الأغانى الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصبهانى ص: ٢٣١	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت لبنان
٢٤.	طبقات فحول الشعراء	محمد بن سلاّم الجمحى ص : ٢٢٢	مطبعة المدنى القاهرة مصر.
٢٥.	الاستيعاب	يوسف بن عبد الله المعروف بابن البرّ ص: ٢٨٧ على حاشية الإصابة الجزء الثالث	مطبعة السعادة مصر ١٣٢٨هـ
٢٦.	الأغانى الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصبهانى ص: ٢٣٢ - ٢٣٣ وأنظر اليسرة البنوية الجزء الثالث ص: ٢٨	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت - لبنان
٢٧.	السيرة النبوية الجزء الثالث	إبن هشام ص: ١١٥ - ١١٦	دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٢٨.	السيرة النبوية الجزء الثالث	إبن هشام ص: ١٧٥	طبعة جديدة دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٢٩.	السيرة النبوية الجزء الثالث	إبن هشام ص: ٨٧	طبعة جديدة دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٣٠.	كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر	د/محمّد على الهاشمى ص: ٣٠٢	الطبعة الأولي ١٩٨٥ لم تذكر المطبعة
٣١.	السيرة النبوية الجزء الثالث	إبن هشام ص: ١٦٩	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧
٣٢.	السيرة النبوية الجزء الثالث	إبن هشام ص: ١٠٧ - ١٠٨	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧

٣٣.	السيرة النبوية الجزء الثالث	إبن هشام ص: ٨٧	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧
٣٤.	السيرة النبوية الجزء الثالث	المؤلف عينه ص: ٢٨	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧
٣٥.	االسيرة النبوية الجزء الثالث	عين المؤلف ص: ٧٤	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧
٣٦.	السيرة النبوية الجزء الثالث	نفس المؤلّف ص: ٧٤	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧
٣٧.	السيرة النبوية الجزء الثالث	نفس المؤلّف ص: ٧٤	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧
٣٨.	الأغانى الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصبهانى ص: ٢٣٣	دار إحياء التراث الإسلامى ببيروت.

شعر الفخر و كعب

إنّ إسماعيل بن حماد الجوهري صاحب "الصحـاح" والحسين بـن محمّد بـن أبى الفضل الراغب الأصفهاني صاحب "المفردات فى غريب القـرآن"، و العلاّمـة ابـن منظور صاحب لسان العرب قد اتفقوا علي المعاني الـتي يحتـوي عليـها هـذه الكلمـة اللهم إلا أنّ ابن منظور قد استوعب جميع ما تصل إليه هذه اللفظة. يقول الراغب:

"الفخر المباهاة فى الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه"١

و يقول صاحب اللسان:

(هو) "التمدح بالخصال والافتخار وعدّ القديم"٢

و تلخيص ما قال هؤلاء الثلاثة هو:

إنّ كلمة الفخر بجزم الخاء وفتحها وقد يأتى علـى وزن "افتعـل" و "تفـاعل" فنقول افتخر وتفاخر القوم فمعناه فخر بعضهم على بعض، و التفـاخر هـو التعـاظم كما أن التفخّر هو التعظّم و التكبّر وقد يقال: فلان متفخّر متفجّـس، و إذا جعلناهـا على وزن "فاعل" و قلنا فاخره فمعناها عارضه بالفخر ففخر به و الفخور هو المتكبّر و الفخور من الإبل العظيمة الضرع والقليلة اللبن و من النخلة عظيمة الجذى غليطـة السّعف.

وقد تعبّر هذه الكلمة عن كل نفيس، والفخار: الجرّار، و الفاخور ضرب من الرياحين و لانوى له و الفاخر من البسر الّذى يعظم ولا نوى له.٣

قد نصل بهذه التفاصيل اللغوية لهذه الكلمة إلى كثير من النتـائج لأنّ الكلمـة تدل على مسمّاه أخبرنا ابن الرشيق فى العمدة أن قدامة بن جعفر قد ذكر فـى كتابـه نقد الشعر أن أهل الألباب قد اتفقوا على أن القاصد للمدح يكون مصيبًا إذا كانت فيه

الحضال الأربع: العقل والعفة والعدل والشجاعة وإلاّ لكان مخطئاً. و يقول صاحب العمدة نفسه:

"الإفتخار هو المدح نفسه ، إلاّ أنّ الشاعر يخصّ به نفسه و قومه وكل ماحسن في المدح حسن في الافتخار"٤

فإذا كان الافتخار هو المدح فلا بدّ من أن يراعى الشاعر تلك الخصال الأربع التى ذكرها قدامة فى كتابه وقد فصّل الدكتور محمّد التونجى فى اصطلاح هذه الكلمة يقول:

"الفخر هو المديح نفسه ، إلاّ أنّ الشاعر فيه يخصّ نفسه وقومه بالثناء، كما قد يكون هجاءً إذا أريد به التفضيل والترجيح . والفخر تعداد لمآثر وخصال، فهو نوع من التأريخ، وشبيه به الهجاء من هذه الناحية، ولهذا كان الفخر فطرة فى العرب"٥

و هو عند الدكتور ميشال عاصى والدكتور أميل بديع يعقوب:

"وذلك لأنّ الفخر تعبير عن اعتزاز الإنسان بفضائله واعتداده بمآثر قومه ، وشمائل مجتمعه ، وتأريخ وطنه"٦

فالفخر غرض هامّ من أغراض الشعر، وليس من الشعراء شاعر لم يعتن بهذا الغرض المهمّ، و ذلك يدلّ على خطورة هذا الصنف.

كان العرب يتفاخرون فى الجاهلية وما بعد لدوافع ذاتية و عوامل موضوعية خارجية مؤاتية فى طبيعة حياتهم الخاصّة و تلك النزعات قد أدّتهم إلى الافتخار بالشجاعة والكرم والمروءة ، فالصراعات القبيلة و استعار المنافسة قد جعلهم

يتمارسون هذا الفن من قديم الزمن ، فكان الشاعر يخلع على نفسه و قبيلته جميع الفضائل و يعدّ سقطات منافسه ، فيفضل به نفسه و قومه على الآخرين. و كما أن الكماة كانوا يرمون أعداءهم و يطعنونهم بالرماح و يضربونهم بالسيوف كان الشعراء يستخدمون الفخر والاعتزاز بالنفس و القوم لمثل ذلك السلاح. فنبغ شعراء فى هذا الفن نبوغًا كمثل عمرو ابن كلثوم و عنترة و الأعشى وطرفة وامرئ القيس مع اختلافات موضوعاتهم فى العهد الجاهلى. فالأعشى وطرفة بن العبد كانا يفخران بالفخر القبلىّ فحسب، وعمرو ابن كلثوم وعنترة قد استخداماه لأنفسهما ولقبيلتهما، والأعشى يساهم امرئ القيس فى الافتخار بكثرة المحبوبات و العشيقات و هكذا.

و لمّا دار دور الإسلام نجد الشعراء مثل عبد الله بن الزبعرى و أبي سفيان وعباس بن مرداس و ضرار و غيرهم فى صف المشركين يفخرون بقديمهم ويبارزههم حسان وعبد الله بن رواحه و كعب شاعرنا بهجاء هم و الإفتخار بجديدهم، ثم زادت الخلافات عند الصراع السياسى فى عهد بنى أميّة وبنى العباس فيما بعد ، ثم كانت هنالك مذاهب مختلفة وأحزاب منوعة مثل الخوارج والمعتزلة والمرجئة و الشيعة و أهل السنة، و لكلّ شاعر، وكل حزب بما لديهم فرحون، وذلك الفرح قد أدّاهم إلي عدّ مآثرهم و مفاخراتهم، فبهذا كلّه ازدهر هذا الفن ازدهاراً عظيماً. و أصبح مجالاً خصبًا للجميع. يقول صاحبا "المعجم المفصّل فى اللغة والأدب".

"ومن أبرز شعراء الفخر الحزبىّ السياسى فى صدر الإسلام ، قطرى بن الفُجاءة، شاعر الخوارج ، و الكميت بن زيد، شاعر الشيعة ، وعبد الله قيس الرقيات، شاعر الزبيريين ، والأخطل، شاعر بنى أميّة، و كذلك الفرزدق وجرير اللّذان خاضا معترك الشعر

السياسى مفتخرين و هاجيين بقصائد تتضمن الفخر على أنواعه الشخصية والقبلية والاجتماعية والسياسية"٧

ثم تغيّرت المقاييس فى العهد العباسى خاصّة و تحولت العادات والمراسم من طور إلى طور آخر فتطوّر الفخر إلى روعة وجلال فنبغ المتنبى والشريف الرضى و أبوالفراس الحمدانى و غيرهم بشئ كثير من جديد.

هكذا لعب شعر الفخر دوراً رائعًا فى القديم كما لعبه فيما بعد، به قد انضبط بعض التأريخ و فيه ذكر الأحاديث و الأيّام وهو يحتوى على مفاخر عاداتهم وتقاليدهم، ولكن لابد أن يكون الشاعر الفاخر بعيداً عن المغالاة والخسّة ، وأن لا يكون كالناقة الفخور العظيمة الضرع والقليلة اللبن. يفخر بما عنده وبما عند قومه و رهطه. وأن يراعى تلك الخصال الأربعة التى ذكرها صاحب نقد الشعر.

جاعلاً نصب أعيننا التفاصيل التى ذكرناها ندرس كعبًا في شعر فَخَرَ فيه بنفسه و بما كان يدين به. إنّ الّذى يدرس شعركعب دارسة متأنية مستوعبة مستفيضة ليتيقن كما أتيقن أنهّ كان يغلب على شعره الفخرُ كأنهّ كان لايتمكّن من قرض شعر إلاّ بهذا الصنف، سواء رثى أحداً أو ارتجز أو هجا أحداً، فطابع الفخر الإسلامى هو الخصلة السائدة على شعره دومًا. حتى قال دعبل بن على إنّ أفخر الشعر قول كعب بن مالك:

وببئر بدر إذ يرد وجوههم　　　جبريل تحت لوائنامحمّد٨

و هذا الخبرحكاه ابن الرشيق فى العمدة وأخبرنا صاحب الأغانى: إن رسول الله قال لكعب على قوله:

همّت سخينة أن تغالب ربّها　　　و ليغلبنّ مغالب الغلاّب

إنّ الله لم ينس لك ذلك٩ ،

وقال ابن هشام:

"حدثنى من أثق به، قال: حدثنى عبد الملك بن يحى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، قال كعب بن مالك:

جاءت سخينة كى تغالب ربّها فليغلبن معالب الغلاّب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: لقد شكرك الله ياكعب على قولك هذا"١٠

و أفادنا صاحب الأغانى بروايته:

"قال معاوية يوماً لجسائه: أخبرونى بأشجع بيت وصف به رجل قومه، فقال له روح بن زنباع: قول كعب بن مالك:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا قدما ونُلحقها إذا لم تلحق"١١

هذه الشواهد والدلائل تنمّ عن علو كعب و رفعته فى الفخر و الشجاعة، ففى يوم الخندق قد تدفّقت قريحته الشعرية فتولدت قصائد مختلفة تتكوّن من ثلاثة و تسعين بيتًا، و أجاب ببعضها ضراراً و ببعضها عبد الله بن الزبعرى و يبلغ عدد أبيات الإجابة تسعة وثلاثين شدراً من تلك القصائد. و مما أجاب به ابن الزبعرى بدأه:

أبقى لنا حدث الحروب بقيّة من خير نحلة ربنا الوهاب

بيضاء مشرفة الذرى ومعاطنًا حمّ الجذوع عزيزة الأحلاب

كاللّوب يبذل جمّها و حفيلها للجار و ابن العمّ المنتاب١٢

و أنهاه بالأبيات الآتية:

"و مواعظ من ربنا نهدى بها بلسان أزهر طيب الأثواب

عرضت علينا فاشتهينا ذكرها من بعد ما عرضت على الأحزاب

حكيماً يراها المجرمون بزعمهم حرجا و يفهمهما ذووا الألباب

جاءت سخينة كي تغالب ربها فليغلبن مغالب الغلاب"١٣

و مما أجاب به ضراراً بدأه ب.

و سائلة تسائل ما لقينا　　و لوشهدت أرتنا صابرينا
صبرنا لانرى لله عِدلا　　علـى ما نابنا متوَكليا
وكان لنا النبى وزير صدق　　به تعلو البريّة أجمعينا ١٤

و أنهاه بالأبيات التالية:

كما قد ردّكم فلّا شريداً　　بغيظكم خزايا خائبينا
خزاياكم تنالوا ثم خيراً　　و كدتم أن تكونوا دامرينا
بريح عاصف هبّت عليكم　　فكنتم تحتها متكمّهينا ١٥

و القصيدة الأخرى التى قالها شاعرنا فى غزوة الخندق حسب ابن هشام و الحافظ ابن كثير وهي كما تلى:

من سرّه ضرب يمعمع بعضه　　بعضا كمعمعة الإباء المحرق
فليأت مأسدة تسن سيوفها　　بين المذاد وبين جزع الخندق
دربوا بضرب المعلمين و أسلموا　　مهجات أنفسهم لرب المشرق
فى عصبة نصر الإله نبيه　　بهم، وكان بعبده ذا مرفق
فى كل سابغة تخطّ فضولها　　كالنهى هبت ريحه المترقرق
بيضاء محكمة كأن قتيرها　　حدق الجنادب ذات شك موثق
جدلاء يحفزها نجاد مهنّد　　صافى الحديدة صارم ذى رونق
تلكم مع التقوى تكون لباسنا　　يوم الهياج وكل ساعة مصدق
نصل السيوف إذا قصرن بخطونا　　قدما ونلحقها إذا لم تلحق
فترى الجماجم ضاحيا هاماتها　　بله الأكف كأنها لم تخلق
نلقى العدو بفخمة ملمومة　　تنفى الجموع كفصد رأس المشرق
ونعد للأعداء كل مقلص　　ورد و محجول القوائمِ أبلق
تردى بفرسان كأنّ كما تهم　　عند الهياج أسود ظل ملثق
صدق يعاطون الكماة حتوفهم　　تحت العماية بالوشيج المزهق
أمر الإله بربطها لعدوه　　فى الحرب إن الله خير موفق
لتكون غيظاً للعدو وحيّطاً　　للدّار إن دلفت خيول النّزق
ويعيننا الله العزيز بقوة　　منه وصدق الصبر ساعة نلتقي

و نـطـيع أمـر نبـينا و نجيبه | و إذا دعـا لـكريهة لم نسبق
و مـتى ينـاد إلى الشدائد نأتها | و متى نر الحومـات فيها نعتق
مـن يتبع قـول النبـى فـإنه | فينـا مـطاع الأمرحق مصدق
فـبـذاك ينصرنا ويـظهر عزنا | ويصيبنا مـن نيل ذاك بمرفق
إن الـذيـن يـكذبون محمداً | كفـروا وضلوا عن سبيل المتقى١٦

و من تلك القصائد الخندقية المججلة قصيدته العينية ذكرها ابن اسحاق فى سيرته و الحافظ ابن كثير فى البداية و النهاية. و هى تتكون من ستة أبيات، و ذكر ابن هشام أنّ هذه الأبيات هى من قصيدة له، يشعر مـن عبارة ابـن هشام أنـها تكون طويلة ذكر منها البعض استهلّ كعب هذه القصيدة المرموقة بالأبيات التالية:

لقد علم الأحزاب حيـن تـألّبوا | علينا و رامـوا ديـنـنا ما نوادع
أضاميم من قيس بن عيلا ن أصفقت | و خـنـدف لم يدروا بما هو واقع
يذودوننا عـن ديـنـنا ونـذودهم | عن الكفر والرحمن راء وسـامع
إذا غايظـونـا فى مـقـام أعاننا | على غيظهم نصر من الله واسـع
وذلك حـفـظ الله فيـنا و فـضله | علينا ومن لم يـحفظ الله ضـائع
هـدانـا لـدين الحق و اختاره لنا | ولله فـوق الصـانعين صنائع١٧

و نراه فى قصيدته الدالية التى قالها فى نفس المعركة يخاطب قريشا بجلمود الخطاب ويذكر تلك الأمكنة الكثيرة التى أصبحت مسرح المعارك و الحروب. ويقـول لهـم أن قومـه ليس تـاجراً للحمير كقبيلـة دوس ومـراد. و لكنـه قـوم ذارع يتسم بالجلادة، ثم يذكر صفات تلك البساتين التي ذرعها قومه ثم يقول:

قصرنا كـل ذي حضـر وطـول | علـى الغـايات مـقتدر جـواد١٨

ثم يخاطب مرة أخرى قريشا و يطلب منهم الإجابة، فْان لم يجيبوا ما سألهم فعليهم أن يصبروا و يستعدّوا لجْلاد يوم فى موضع مذاد، و صفة تلـك المعركـة التـى أنذرهم بها هى:

نصبّحكم بكل أخى حروب | وكل مطهم سـلس القياد
وكل طمرّة خفق حشاهـا | تدف دفيف صفراء الجراد

وكل مقلّص الآراب نــهد تميم الخلق من أخرٍ و هادى١٩

ثم يصف خيول قومه ويقول:

خيول لا تضاع إذا اضيعت خيول الناس فى السنة الجماد
ينازعن الأعنة مصغيات إذا نـادى إلى الفزع المنادى٢٠

و يقول إن نذرهم إذا قالوا لهم استعدوا للحرب فنتوكل على الله ولا نبالى بالعواقب، وأن الفرج لا يمكن إلا بضرب القوالس والجهاد حتى يصل إلى قوله:

فلم تر عصبة فيمن لقينا من الأقوام من قار و بـادى
أشـد بسالة منا إذا ما أردنـاه و ألـين فى الـوداد
إذا ما أشرجنـا عليهـا جياد الجدل فى الأرب الشّداد
قذفنا فى السوابغ كل صقر كـريـم غير معتلث الزناد
أشم كـأنه أسد عبوس غداة بدا ببطن الجزع غادى
يغشى هامة البطل المذكى صبّى السيف مسترخى النجاد
لنظهر دينك الـلهم أنـا بكفك فاهدنا سبـل الرشـاد٢١

لابدّ هنا من أن نلاحظ أن كعباً قال هذه الأشعار فى غزوة الخندق أو الأحزاب و كان وقوعها بالاتفاق بين المؤرخين فى ذى القعدة عام خمس بعد الهجرة وصف فيها الخيول و قال:

خيول لا تضاع إذا اضيعت خيول الناس فى السنة الجماد
ينازعن الأعنة مصـغيـات إذا نادى إلى الفزع المنـادى

كما اتفق المؤرخون على أن فتح مكة كان فى رمضان فى السنة الثامنة بعد الهجرة المصادف الشهر الينائر عام ٦٣٠م، فبين هذين الحادثين بون ثلاث سنوات، إن ابن هشام قد أخبرنا أن حسان قرض قصيدة هامة و ذاك قبل فتح مكة بقليل أو فى نفس اليوم يصف فيها الخيول ويقول:

عدمنا خيلنا إن لم تروهـا تـثير النقع موعدها كداء
يبارين الأعنة مصـعدات على أكتافها الأسل الظماء٢٣

فهل استخدم حسان بيت كعب. ينازعن الأعنة. وحلاها بأسلوب آخر؟ نجيب بالضبط أنه كان كذا إنه اتخذ فكرته وصاغها صياغة أخرى.

هذا، و قد نشاهد كعباً يرثى يوم أحد على الشهداء كما نراه يفتخر، فمن شعره الفخرى يقع نظرنا على خمس قصائد له تحتوى على ١٢٦ بيتاً و ذلك خلال دراسة سيرة ابن هشام الموثوق به لا مفر من تلخيض بعضها و ذكر بعض كى نتمكن من الوصول إلى مكانته الفنية فى شعر الفخر و أسلوبه الجزل، المتين، الرصين، أجاب كعب يوم أحد هبيرة بن أبى وهب إجابة مسكتة مقنعة بشعر وخاطب غسان و ما دونهم و دون المسلمين من صحار و أعلام و سير متنعنع بدأ بالأبيات التالية:

ألا هل أتى غسان عنّا ودونهم ... من الأرض خرق سيرة متنعنع
صحار و أعلام كان قتامها ... من البعد نقع هامد متقطع
تظل به البزل العراميس رزّحاً ... ويخلو به الغيث السنين فيمرع
به جيف الحسرى يلوح صليبها ... كما لاح كتان النجار الموضّح
به العين والآرام يمشين خلفة ... وبيض نعام قيضه يتقلّع
مجالدنا عن ديننا كل فخمة ... مذربة فيها القوانس تلمع
وكل صموت فى صفوان كأنها ... إذا لمست نهى من الماء مترع٢٣

ثم يستعرض بدراً و يسأل المناولين ماذا لقوا فيها ويذكر الوحى الذى كان ينزل على النبى بأخبار الغيب، وأنه لو كان مكانه قوم آخر لاقشعوا بليل من خوف ذلك المكان، ولكن راكباً كان ينادى أعدّوا للعدو فرأيتمونا أوسع من سائر الناس لأبى سفيان بن حرب الذي كان يزجى الأفواج و يجمعهم لحربنا و يقول:

فلوغيرنا كانت جميعاً تكيده الـ ... ـبرية قد أعطوا يداً و توزّعوا
نجالد لا تبقى علينا قبيلة من ... الناس إلا أن يها بوا و يفظعوا٢٥١

فإن سراتنا قد جمعوا قوتنا بقولهم-علام إذا لم نمنع العرض نزرع- و كنا نتبع الرسول أمره ولم نكن نتطلع إليه احتراماً و عظمة و يذكر نزول روح القدس إلى الرسول ﷺ وإننا لا نقطع أمراً غير مشورتنا الرسول، فنطيع قوله ونستمع إليه،

فلما تألّبتم شجّعنا النبى ﷺ على اشتراء الحياة الآخرة بالحياة الدنيا، و ترك هول المنيات، و أمرنا بأخذ الأسياف و التوكل على الله.

و أخذ كعب يصور لنا المعركة والخوض فيها بعد تشجيع الرسول وسراة الإسلام يقول:

فسرنا إليهم جهرة فى رحالهم ضحّيا علينا البيض لا نتخشع
بملمومة فيها السنوّر والقنا إذا ضربوا أقدامها لا تورع
فجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف و نحن نصيّة ثلاث مئين إن كثرنا و أربع
نغادرهم تجرى المنية بيننا نشارعهم حوض المنايا ونشرع
تهادى قسىّ النبع فينا وفيهم و ما هو إلا اليثربى المقطع
ومنجوفة حرميّة صاعديّة يذر عليها السم ساعة تصنع
تصوب بأبدان الرجال وتارة تمر بأعراض البصار تقعقع
و خيل تراها بالفضاء كأنها جراد صباً فى قرّة يتربع٢٦

هكذا نرى كعبا يفتخر. و الافتخار هو المدح نفسه كما ذكرنا من قبل قول قدامة. ولكنه يراعى العدل، يذكر بطولة العدو كما يذكر بسالة المسلمين، فكلا الجماعتين يشرع حوض المنايا، والمنية تجرى بين الكلتين، وقسى النبع تهادى فيهما.

يخلع كعب النتائج النجاحية على الله لأنه هو جدير بها لا العدة والعتاد. "وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُم أذِلَّة"٢٧ و يعترف بأن رحى الحرب قد دارت بالمسلمين.

فلما تلا قينا ودارت بنا الرحى وليس لأمر حمه الله مدفع

و حظى المسلمون بالنصر. و ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.٢٨

فضرب المسلمون قريشا كأنهم خشب مصرّع.

ضربنا هم حتى تركنا سراتهم كأنهم بالقاع خشب مصرع
لدن غدوة حتى استفقنا عشية كأنّ ذكانا حرّ نار تلفّع

وراحوا سراعاً موجعين كانهم جهام هراقت ماء ها الريح المقلع
ورحنا و أخرانا بطاء كـأننا أسود على لحم بـبيشـة ظلّع٢٩

ثم يقول نحن نلنا ونال القوم منا ولكن ربما فعلنا وأظهرنا المساعى الجليلة والبطولة العظيمة وفضلها يرجع إلى الله، ويقرّ أن الحرب كـانت سجالاً من قبل أن فزنا بها.

و دارت رحانا واستدارت رحاهم وقد جعلوا كل من الشر يشبع ٣٠

إن كعبا لسان قومه يقول نحن أناس لا نرى ذلك القتل سبة الذى يحمى الذمار و يمنع العدو من الإفساد و نحن جلاد على ريب الحوادث:

جلاد على ريب الحوادث لا نرى على هالك عينا لنا الدهر تدمع
بنو الحرب لا نعيا بشئ نـقـوله و لا نحن مما جرت الحرب نجزع
بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحش ولا نحن من أظفارها نتوجع٣١

تترشح العفة والعدل والشجاعة معاً من شعره، كأن قدامة بن جعفر وضع أصول الافتخار والمدح جاعلاً هذه الأبيات نصب عينية. و هـى- العقل، والعفـة، و العدل، والشجاعة. تستحق هذه الأبيات أن تعد من عيون الفخر افتخر بها شاعر من العرب،

يشبه كعب قومه بشهاب النار وحرارتها التى تسفع من يليها، لذلك يتقى النـاس حره ويفرجون عنه.

وكنا شهاباً يتقى الناس حـره ويفرج عنه من يليه و يسفع ٣٢

و يتّجه بالخطاب إلى عبد الله بـن الزبعرى الذى كـان افتخر على كعب و يذكره بأنه لا يحق له ذلك لأنه و قومه قد كـانوا تولّوا عن ساحة القتال فتبعهم المسلمون طلباً لهم و النيل منهم، و ينصح له أن يسأل عُليا معَد و غيرها من الناس من هو أخزى منا و أشنع و إن الحرب الدامية التى دارت بيننا لم تترك له مفخـراً و

كان أضرع خد خد ابن الزبعري يومئذٍ. وذكره ذلك الهجوم الهائل الذى جرّه المسلمون إلى قوم ابن الزبعري :

شددنا بحول الله و النصر شدة عليكم و أطراف الأسنة شُرّع
تكر القنا فيكم كأن فروغها عزالى مزاد ماء ها يتهرّع٣٤

و يختم هذه القصيدة الطويلة بذكر أهل اللواء و المصطفين منهم، و على هذا المشهد الأخير تتم المعركة الحاسمة الدامية بين المسلمين و المشركين:

عمدنا إلى أهل اللواء و من يطر بذكر اللواء فهو فى الحمد أسرع
فخانوا و أعطوا يداً و تخاذلوا أبى الله إلا أمره و هو أصنع

ذكر ابن هشام: و كان كعب بن مالك قد قال:

"مجالدنا عن جذمنا كل فخمة"

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيصلح أن تقول: مجادلنا عن ديننا؟ فقال كعب: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فهو أحسن، فقال كعب: مجالدنا عن ديننا"٣٥

و أما القصيدة الثانية الفخرية من تلك القصائد الخمس الأحدية هى القصيدة اللامية التي تتكون من ثلاثة وعشرين بيتاً أجاب بها شاعرين من حزب المخالف هما ضرار بن الخطاب و عمرو بن العاصى يخاطب بها قريشاً أجمعين:

أبلغ قريشاً و خير القول أصدقه و الصدق عند ذوى الألباب مقبول
أن قد قتلنا بقتلانا سراتكم أهل اللواء ففيما يكثر القيل٣٦

و يفتخر بذلك المدد الذى ساقهم إليه خالق الكون، و يصوغ كلام الله فى صياغة الشعر. "إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ رَبُّكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَآئِكَةِ مُرْدِفِيْنَ."٣٧ كذلك يفخر بدين الحق الذى أصبح له فطرة و أن القتل فى سبيل ذلك مفضّل، و يسفّه أحلام مشركى قريش و يقول لهم إن كنتم ترون أمرنا سفها فالذى يخالف الإسلام فهو ضال مضل، و يهددهم:

فلا تمنوا لقاء الحرب و اقتعدوا ... إن أخا الحرب أصدي اللون مشغول
إن لكم عندنا ضرباً تراح له ... عرج الضباع له خذم رعابيل
إنا بنو الحرب نمريها و ننتجها ... و عندنا لذوى الأضغان، تنكيل
إن ينج ابن حرب بعد ما بلغت ... منه للتراقى و أمر الله مفعول
فقد أفادت له حلما و موعظة ... لمن يكون له لب و معقول٣٨

هكذا تقع جلاميد صخر كعب فى صورة ألفاظ ضخمة متينة رصينة على من يخالفه، و نعتقد أنَه كان مطلعا على أشعار العرب الجاهلية، فيرفض رأي بعض أصحابها عن الحرب و مطلعاً على أسلوب القرآن فيأخذ منه كما توضّح لنا هذه الأبيات.

ينذر شاعرنا قريشا مشركين و يمدح قبيلة غسان و كماتهم و يشبّههم تارة بالمصاعبة الأدم و أخرى بالأسود نودّ أن نذكر هنا هذه الأبيات لأنها آيات فى الفخر يقول:

ولو هبطتم ببطن السيل كافحكم ... ضرب بشاكلة البطحاء ترعيل
تلقاكم عصب حول النبّى لهم ... مما يعدّون للهيجاء سرابيل
من جزم غسان مسترخ حمائلهم ... لا جبناء و لا ميل معازيل
يمشيون تحت عمايات القتال كما ... تمشى المصاعبة الأدم المراسيل
أو مثل مشى أسود الظل ألثقها ... يوم رذاذ من الجوزاء مشمول
فى كل سابغة كالنهى محكمة ... قيامها فلج كالسيف بهلول
ترد حد قرام النبل خاسئة ... ويرجع السيف عنها وهو مفلول
و لو قذفتم بسلع عن ظهوركم ... وللحياة و دفع الموت تأجيل
ما زال فى القوم وتر منكم أبدا ... تعفو السّلام عليه و هو مطلول
عبد و حر كريم موثق قنصاً ... شطر المدينة مأسور و مقتول
كنا نؤمّل أخرى كم فأعجلكم ... منّا فوارس لا عزل و لا ميل
إذا جنى فيهم الجانى فقد علموا ... حقا بأن الذي قد جرّ محمول
ما نحن، لا نحن من إثم مجاهرة ... و لا ملوم و لا فى الغرم مخذول٣٩

و القصيدة، الثالثة النونية تشمل تسعة وعشرين بيتاً يستهلها بما يجود من مال على السائلين، و ذلك فى أسلوب التوكيد و الحصر، و جعل مخاطبه إمرأة و يقسم بأبيها أن لا تكذب إذا سألت الناس عن الجوّاد فإنهم جميعاً يشيرون ببنانهم إلى شاعرنا و قومه فأنّه و هم ثمال للمعترين و اللاجئين، يقول:

إنك عمر أبيك الكريم أن تسألى عنك من يجتدينا
فإن تسألى ثم لا تكذبى يخبرك من قد سألت اليقينا
بأنا ليالى ذات العظا مِ كنا ثمالاً لمن يعترينا
تلوذ البُجود بأذرائنا من الضرِّ فى أزمات السنينا ٤٠

ثم يقول إن الناس المعدمين يلوذون بجدوى فضول أولى وُجدنا، و أنّ الحرب التى دامت بيننا و بين من يوازوننا منذ برينا و خلقنا تركت لنا جلمات و قطعات من المال و هى معاطن فيها حقوق الناس و أن من يرى تلك المعاطن و النوق يحسبها الفتين و الحجارة السوداء ثم يقول عن تلك المعاطن:

يخيّس فيها عتاق الجما ل صحما دواجن حمراً و جونا
و دَفاع رجل كموج الفرا ت جأواء جولاً طحونا
ترى لونها مثل لون النجو م رَجراجة تبرق الناظرينا
فإن كنت عن شأننا جاهلاً فسلِ عنه ذا العلم ممن يلينا
بنا كيف نفعل إن قلصت عواناً ضروساً عضوضاً حجونا
ألسنا نشدّ عليها العصا ب حتى تدر و حتى تلينا
ويوم له وهجٌ دائم شديد التهاول حامى الأرينا
طويل شديد آوار القتا ل تنفى قواحزه المقرفينا
تخال الكماة بأعراضه ثمالاً على لذة مترفينا ٤١

يصف شاعرنا هذه المعركة بعد هذه الأبيات بأن أيمان المشركين كانت تعاور بينهم كؤس المنايا بحدّ السيوف و كنا أولى بأس شديد فيها و أن كعباً و جماعته المسلمة قد خاضت هذه المعركة حاملين السيوف الصامتة التى كانت تملّ بالإغماد فما انفلّت

و ما انحنت وما انهنت بنهينا، و هذا الضرب قد علمناه لنا آباء نا و سنعلّمه بنينا و سنعلّمهم بذل التلاد كما ثقفناه آباء نـا و هكذا تتعود عليـها أجيالنـا القادمـة. و تنتهى هذه القصيدة الرائعة الفخرية بالأبيات الآتية:

نشـــب وتملك آباء نا و بينا نـــربى بنينـا فنينا
سألت بك ابن الزبعري فلم أنبأك فى القـوم إلا هجينا
خبيثاً تطـيف بك المنديات مقيماً على اللؤم حيناً فحينا
تبجّست تهجو رسول المليـــك قاتلك الله جلفا لعينا
تقول الخــنا ثم ترمى به نقى الثـياب تقياً أمينا٤٢

سقنا الأبيات الأربعة الأخيرة فـى صدد الكلام عـن هجاء كعب، و ذكرناهـا هنا لكونها اختتام هذه القصيدة.

هذا، والقصيدة الرابعة البائية الفخرية من تلك القصائد التـى يخاطب بـها قريشاً من حيث القوم المتألّب على القضاء على الدعوة الإسلامية و صاحبها، ثم نـراه يمدح الرسول و يصفـه وصفاً، و يذكـر اتّباع المسلمين الرسول فـى ساعة العسرة الحرجة نالوا بذلك سعادة و جولهم و فيئهم و إقدام الأعداء و يذكـر الفرق بـين الجولين، ثم يعيّرهم لكونهم عبيد الأصنام و الأوثان، تبدأ القصيدة بهذه الأبيات

سائل قريشاً غداة السفح من أحد ماذا لقينا وما لا قوا من الهـرب
كنا الأسود وكانوا النمر إذ زحفوا ما إن نراقب من آل ولا نـــسب
فكم تركنا بها من ســـيد بطل حامى الذمار كريم المجد والحسب٤٣

و يختمها بهذين البيتين:

جالوا و جلنا فما فاءوا و ما رجعوا ونحن نشفنهم لم نأل فى الطـلب
ليسا سواء، و شـــتى بين أمرهما حزب الإله وأهل الشرك والنصب٤٤

و القصيدة الأخيرة الرثائية الفخرية التى قالها فى غزوة أحد شاعرنا كعب نسبها ابن إسحاق إلى عبد الله بن رواحة، و لكن ابن هشام أخبرنا أن أبا زيد الأنصارى قـد

ذكرها في ضمن شعر كعب ،كذلك نرى صاحب البداية والنهايـة الحـافظ ابـن كيـثر ينسبها إلى كعب ، ذكرنا بعضها فى الكلام عن الرثاء، لأنا نـرى كعبـا فيـها يبكـى على حمزة، ثم نراه يهدد قبيلة لؤى و ينذرها و يعدها بحرب أخرى و يذكّرهـا مـا ذا قوا من قبل مرارة الحرب:

و هذا البيت الثامن من القصيدة يقول فيها،

ألا من مبـــلغ عنى لؤيا
فبعد اليوم دائله تـدول
و قبل اليـوم ما عرفوا و ذاقوا
وقائعنا بها يشفى الغـليل٤٤

و ذلك اليوم كان يوم بدر عندما أتاها الموت العجيل فثوى أبـو جـهل صريعـاً كـانت الطيور تجول عليه حائمة، كما خر عتبة و ابنه صريعين و قد عضّ شيبة السيف الصقيل، و ترك أمية مجلعباً على الأرض عند طعـن فى حيزومـه بـاللّدن النبيـل و الرمح العظيم، و يختم هذه القصيدة بهذه الأبيات:

و هام بنى ربعية سـائلوها
ففى أسيافنا منـــها فلول
ألا يا هند فابـكى لا تملى
فأنت الواله العـبرى الهبول
ألا يا هند لا تـبدى شماتاً
بحمزة إن عـــزّكم ذليل٤٥

لعل الفخر أصبح لشاعرنا كعب سلاحه القاطع الصارم للعدو لذلك لا ندرس له شـعراً إلا و ندرك هنالك فخراً، حتى رأينا من قبل يرثى حمـزة يـوم أحـد، و يبكـى عليـه بكاءاً شديداً و لم يلبث أن أخذ يفتخر مباشرة، فما ترى عن تلك القصائد التى قيلـت

فى أيام الانتصار و بكل مناسبة تحث على الفخر فسار به الركبان، و بالإضافة كان فارسا شجاعا و ملاذا للعائذين اللاجئين.

يروى لنا ابن هشام و ابن كثير قصيدة له أخرى قالها بمناسبة يوم خبير الذى ارتجز فيه كمحارب و فارس باسل يقول فاخرا:

و نحن وردنا خيبرا وفروضه ... بكل فتى عارى الأشاجع مذود
جواد لدى الغايات لا واهن القوى ... جرئ على الأعداء فى كل مشهد
عظيم رماد القدر فى كل شتوة ... ضروب بنصل المشرفى المهند
يرى القتل مدحا إن أصاب شهادة ... من الله يرجوها و فوزا بأحمد
يذود و يحمى عن ذمار محمد ... و يدفع عنه باللسان و باليد
و ينصره من كل أمر يريبه ... يجود بنفس دون نفس محمد
يصدق بالأنباء بالغيب مخلصا ... يريد بذاك الفوز و العز فى غد٤٦

نود أن ننهى هذا الفصل بذكر تلك القصيدة الطويلة التى تحوى خمسة و عشرين بيتا قالها عند ما فرغ رسول الله- صلى الله عليه وسلم. من حنين و جعل يسير إلى الطائف، ذكرها ابن هشام فى "سيرته" و أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى فى "البداية و النهاية"، نلخص بعضها و نذكر بعضا:

قضينا من تهامة كل ريب ... و خيبر ثم أجمعنا السيوفا
نخبرها ولو نطقت لقالت ... قوا طعهن: دوسا أو ثقيفا
فلست لحاضن إن لم تروها ... بساحة داركم منا ألوفا
وتنتزع العروش ببطن وج ... و تصبح دوركم منكم خلوفا
و يأتيكم لنا سرعان خيل
يغادر خلقه جمعا كثيفا
إذا نزلوا بساحتكم سمعتم
لها مما أناخ بها رجيفا
بأيديهم قواضب مرهفات
يزرن المصطلين بها الحتوفا

كأمثال العـقائق أخلصتها

قيون الهند لم تضـرب كثيفا

تخال جذية الأبطال فيهم

غداة الزحـف جاديا مـدوفا ٤٧

ثم يقول أ ليس من بينهم ناصح ينصحهم و يخبرهم عن بطولتنا و عن جمعنا عتاق الخيل و النجب الطروف لاستيصالهم؟ و أننا قد قدمنا إليهم بزحف يحيط بسور قلعتهم صفا، يرأسه النبى الصلب نقى القلب العزوف المصطبر الحليم، رشيد الأمر، و أننا نطيع نبينا و ربنا هو الرحمن الرؤف،

و يخاطبهم قائلا: نقبل السلم منكم إن ألقيتموه إلينا و نجعلكم عضدا لنا و ريفا، و إن جاحدتم فنكر عليكم كرة و نصبر و لا يك أمرنا رعشا ضعيفا، و نجالد ما بقيت لنا الحياة أو حتى لا تذعنوا للإسلام خاشعين خاضعين، و نجاهدكم مهما كلفنا ذلك من هلك التلاد و الطريف،

و يذكر أنه تجمع قبائل و شعوب جزمهم صميم و الحلفاء، نجدع مسامعهم و أنوفهم إن ظنوا أنه لا كفاء لهم، و يختم القصيدة بالأبيات التالية:

بكـل مهند لين صقيل

يسوقهم بها سـوقا عـنيفا

لأمر الله والإسـلام حتى

يقوم الدين معتدلا حنـيفا

و تنسى اللات والعزى و ود

و نسلبها القـلائد و الشنوفا

فامسوا قد أقروا و اطـمأنوا

و من لا يمتنـع يقبل خـسوفا٤٨

هذا قليل من كثير وافر، و غيض من فيض، يتضح به مكان كعب، احتله من بين الشعراء، و لو سقنا جميع تلك القصائد الفخرية لطال بنا الكلام، و نتاكد إذ

نقول إن شعر كعب كله هو شعر فخر، منه تلك القصائد التى ذكرناها خلال الكلام عن نقائضه الفردية و الجماعية، و سيظهر عند ما نتكلم عن دفاعه عن الإسلام بعض شعر من الفخر و الهجو،

هذا، و لابد لنا هنا من أن نذكر أن كعبا لم يترك زمام المجد و الشرف و الكرم عند الهجاء و الفخر، و لم يغل عند ما رثى أحدا بل و عنى بالعدل و الإنصاف فى كل مجال من مجالات الشعر والأدب و رواية الحديث و سوقه، فكثيرا ما ينحرف الشعراء و الأدباء عن العدل عند التعبير عن مشاعرهم القريحة و وجداناتهم المجروحة، و كثيرا ما يهجون فينالون من أعراض مخالفيهم، و يفخرون فحدث عن بحر الكذب و لا حرج.

هذا، و قد يكون الأديب ناثرا فنيا ليس إلا، أو يكون شاعرا مفلقا فحسب، و لكن كعبا قد مارس كلا القسمين فهو أشعر الشعراء و هو أديب بارع و راو ثقة، ليس هذا فحسب بل و كان فارسا شجاعا، جمع الله فى كعب هذه الخصال المختلفة بمعنى الكلمة، حتى و نراه يفوق فى بعض على أقرانه، فحسان شاعر و ليس فارسا و لا ناثرا، و عبد الله بن رواحة شاعر و فارس و ليس ناثرا و هكذا.

١. المفردات فى غريب القرآن	الشيخ أبو القاسم الحسين بن محمد بن أبي الفضل الراغب الأصفهاني ص : ٣٨٠	طبعة مصر
٢. لسان العرب	العلامة ابن منظور باب "فخر"	دار إحياء التراث الإسلامى ١٩٩٣م
٣. تاج اللغة و صحاح العربية الجزء الثانى	إسماعيل بن حماد الجوهرى باب "فخر"	دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٦م الطبعة الثانية
العمدة الجزء الثانى	ابن الرشيق ص : ١١٥	مطبعة حجازى القاهرة الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٥. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثانى	د/محمد التونجي ص : ٦٨٢	دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٣م
٦. المعجم المفصل فى اللغة والأدب الجزء الثانى	د/ميشال عاصي و د/ أميل بديع يعقوب ص: ٩٢٠	دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٧م
المعجم المفصل فى اللغة والأدب الجزء الثانى	د/ميشال عاصي و د/ أميل بديع يعقوب ص: ٩٢٠	دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٧م
٨. العمدة الجزء الثانى	ابن الرشيق ص : ١١٥	مطبعة حجازى القاهرة الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٩. الأغانى الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصبهانى ص: ٢٣١	دار احياء التراث الإسلامى بيروت
١٠. السيرة النبوية الجزء الثالث	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ١٦٢ ـــ ١٦١	دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
١١. الأغانى الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصبهانى ص: ٢٣١	دار احياء التراث الإسلامى بيروت
١٢. السيرة النبوية الجزء الثالث	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ١٦٠	دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
١٣. السيرة النبوية الجزء الثالث	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ٢٦١	دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
١٤. السيرة النبوية الجزء الثالث	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ١٥٧	دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
١٥. السيرة النبوية الجزء الثالث	أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ١٥٨	دار الجيل بيروت ١٩٩٣م

١٦. لاحظ البداية والنهاية الجز الثالث لأبى الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى طبعه دار الكتب العلمية بيروت ص: ١٣٧ دققه وحققه د/ أحمد أبوملحم و د/ على نجيب عطوى و أصحابهما. وانظر السيرة النبوية لابن هشام المعافرى ص: ١٦٢ الجزء الثالث طبعه دار الجيل بيروت ١٩٨٧م

١٧. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
ص: ١٦٣ و لاحظ البداية و النهاية
الجزء الثالث لأبى الفداء الحافظ اب
ن كثير الدمشقى طبعه دار الكتب
العلمية بيروت ص: ١٣٨ دقته وحققه
د/ أحمد أبوملحم و د/ على نجيب
عطول و أصحابهما.

١٨. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
ص: ١٦٤

١٩. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
ص: ١٦٤

٢٠. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
ص: ١٦٤

٢١. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
ص: ١٦٥

٢٢. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
ص: ١٦٤

٢٣. نفس المرجع الجزء الرابع أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
ص: ٤٨

٢٤. نفس المرجع الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
ص: ٦٦ــــــ٦٥

٢٥. نفس المرجع الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
ص: ٦٦

٢٦. نفس المرجع الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
ص: ٦٧

٢٧. القرآن الحكيم آل عمران ١٢٣:٤

٢٨. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص:٦٧ دار الجيل بيروت ١٩٩٣م

٢٩. القرآن الكريم آل عمران ١٢٦:٤

٣٠. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
ص: ٦٧

٣١. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م
ص: ٦٧

٣٢. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م ص: ٦٧ ــــــ ٦٨

٣٣. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م ص: ٦٨

٣٤. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م ص: ٦٦

٣٥. نفس المرجع ص: ٦٨ وانظر الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني الجزء السادس عشر "أخبار كعب ونسبه" ذكر الحافظ ابن كثير هذه القصيدة العينية فى الجزء الثالث من تأريخه البداية و النهاية فليراجع، و لكن راعينا عند نقل القصيدة ابن هشام لأنه كان بمتناول اليد.

٣٦. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م ص: ٧٧

٣٧. القرآن المجيد سورة الأنفال ٩:٩

٣٨. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ٧٧ دار الجيل بيروت ١٩٩٣م

٣٩. نفس المرجع الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ٧٧ دار الجيل بيروت ١٩٩٣م

٤٠. نفس المصدر الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ٨٥ دار الجيل بيروت ١٩٩٣م

٤١. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ٨٦ ــــ ٨٧ دار الجيل بيروت ١٩٩٣م

٤٢. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ٨٧ دار الجيل بيروت ١٩٩٣م

٤٣. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ٨٧ دار الجيل بيروت ١٩٩٣م

٤٤. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى ص: ٨٨ دار الجيل بيروت ١٩٩٣م

٤٥. السيرة النبوية الجزء الثالث أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى دار الجيل بيروت ١٩٩٣م ص: ٨٩

٤٦. البداية والنهاية الجزء الثالث الحافظ ابن كثير ص: ٢١٨ وانظر سيرة ابن هشام الجزء الثالث ص: ٢٢٥ دار الكتب العلمية بيروت

٤٧. البداية والنهاية الجزء الثالث الحافظ ابن كثير "غزوة الطائف" ص: ٣٤٤ الجزء الثالث، والسيرة النبوية الجزء الرابع ص: ٩١ دار الكتب العلمية بيروت

٤٨. البداية والنهاية الجزء الثالث السيرة النبوية الجزء الثالث الحافظ ابن كثير "غزوة الطائف" ص: ٣٤٤ الجزء الثالث، والسيرة النبوية الجزء الرابع ص: ٩١ دار الكتب العلمية بيروت و دار الجيل بيروت ١٩٩٣م

دفاع كعب عن الإسلام وذودك عنه

شعر كعب و نثره شاهدان عادلان على دفاعه عن الإسلام، و نراه حاملاً هذين سلاحين مهمين للكفاح والمقاومة حينا وللإقدام حينا آخر بيد أنه كان ابن حرب وفارسها، فإذا قصرت السيوف من اللحوق إلى صدور الأعداء و فيلحقها بخطوه وقدمه:

"نصل السيوف إذا قصرن بخطونا　　قدما، و نلحقها إذا لم تلحق[1]"

و قد علمنا من قبل أن روح بن زنباع شهد أمام معاوية أن هذا أشجع بيت قالته العرب فاتفق معاوية[2] به، و نزيد هنا أنه صدر عن أشجع شاعر عرفه العرب، و مما يمتاز صاحبنا هذا هو أنه لبس لأمة النبى يوم أحد و لبس النبى ﷺ لأمته:

يقول يحيى الجبورى صاحب "الشعراء المخضرون":

"و لم يكن كعب ورعاً مؤمناً فحسب بل كان فارساً من فرسان المسلمين، فما كان كصاحبه حسان بن ثابت يشارك المسلمين باللسان، ثم إذا قامت الحرب التجأ إلى أطمة مع الصبيان و النسوة، بل كان شجاعاً مقداماً يقرن القول بالفعل، فقد كان له صبر و بلاء عظيم يوم أحد ، حتى أنه جرح أحد عشر جرحاً، وكان من إكرام رسول الله له، أن لبس لأمته، ولبس كعب لأمة الرسول -صلى الله عليه وسلم - وكانت صفراء"[3]

و قدتدل قصة تخلّفة عن غزوة تبوك، وما وردت فيها من أحداث و وقائع بكعب على إيمانه الصادق برسول الله ﷺ دلا لة واضحة و لا سيما إحراقه الكتاب

أو البلاغ من قبل ملك غسان بلهب النار، يقول أحمد بن على بن حجر العسقلانى فى كتابه. "فتح البارى بشرح صحيح البخارى":

"و دل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه، ومحبته لله ولرسوله، وإلا فمن صار فى مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك، وتحمله الرغبة فى الجاه والمال على هجران من هجره، و لاسيما مع أمنه من الملك، الذى استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن الإفتتان حسم المادة، و أحرق الكتاب ومنع الجواب، هذا مع كونه من الشعراء الذين طبعت نفوسهم على الرغبة، ولا سيما بعد الاستدعاء و الحث على الوصول إلى المقصود من الجاه والمال، ولا سيما الذى استدعا قريبه ونسيبه، مع ذلك فغلب عليه دينه، وقوى عنده يقينه، ورجع ماهو فيه من النكد والتعذيب على ما دعى إليه من الراحة والنعيم حباً فى الله ورسوله كما قال - صلى الله عليه وسلم. أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما"[٤]

هذه المحبة هى التى أدت كعباً إلى المغامرات الحربية والدفاع عن الإسلام بما يمتلك من مال و عقار و نفس. هى التى حملته على تحمل أحد عشر جرحاً يوم أحدٍ وأن ينصر الرسول ببيض اليمانى:

نصرنا رسول الله إذ حلّ بيننا
ببيض اليمانى المثقفة السمر

وعلى أن يفدى بماله و أهله لرسول الله وأن يتجشم التعنيف من قبل المشركين يقول فى غزوة بدر الآخرة:

فإنى و ان عنّفتموني لقائل فدى لرسول الله أهلى و ماليا
أطعناه لم نعدل له فينا بغيره شهابا لنا فى ظلمة الليل هاديا ٥

وكلما دعاه الرسول لكريهة فهو يجيب دعاءه و يسبق إليه قال فى غزوة الخندق:

و نطيع أمر نبينا و نجيبه و إذا دعا لكريهة لم نسبق.٦

يقول الدكتور محمد بن سعد بن حسين صاحب "من شعراء الإسلام"،

"و تدرّب على فنون الحرب و منازلة الأقران، و حين قدم النبى-صلّى الله عليه وسلّم. المدينة أقبل عليه و سخر نفسه و شعره و ماله فى سبيل الإسلام و المسلمين"٧

كان سريع الامتثال لأمر النبى -صلى الله عليه وسلم، فمتى نادى إلى الشدائد والحروب كان يسرع إليها دون أن ينهنه يقول فى يوم الخندق:

ومتى يناد إلى الشدائد نأتها ومتى نرى الحومات فيها نعنق
من يتبع قول النبى فإنه فينا مطاع الأمرحق مصدق٨

و مما يدل على شجاعته و دفاعه عن الإسلام و المسلمين جوابه لرجز مرحب اليهودى الذى خرج من حصنه يوم خيبر مرتجزاً خيلاء و متكبراً:

قد علمت خيبر أنى مرحّب شاكى السلاح بطل مجرّب

فأجابه كعب راجزاً بمثل قوله:

قد علمت خيبر أنى كعب و أنى متى تشب الحرب
ماض على الهول جرئ صلب معى حسام كالعقيق عضب
بكف ماض ليس فيه عيب تدركم حتى يذل الصعب٩

هكذا نرى كعبا ماضياً على الأهوال مهما كانت الأحوال، ومغامراً فى الحروب الطاحنة الدامية حاملاً حساماً لامعاً يبرق، فكما له سيف ماض، له كف ماض لأن السيف بالساعد وليس الساعد بالسيف، وقد نراه أنه لا يجزع من الحروب مهما جرّت بالخسائر، بل و هو جرئ صلب، ثابت الجأش قوى الجنان، يدل على ذلك ما حكى لنا المؤرخون و أصحاب السير واللفظ لابن هشام:

"قال ابن اسحاق: وكان أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر لى ابن شهاب الزهرى - كعب بن مالك، قال: عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتى يامعشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأشار إلىّ رسول الله ﷺ أن أنصت."١٠

ففى تلك الساعة المحرجة الفوضوية عندما كان الموت يترقص بين الصحابة حتى استشهد سبعون صحابيا فى تلك المعركة الحامية الّتى كسرت رباعية النبى- ﷺ و شج فى وجهه وجعل الدم يسيل على وجهه و يمسحه، استعاد كعب حماستهم إلى الإسلام والدفاع عنه من جديد، فدارت دورتهم.

و إذ نقول شاعر الإسلام فإننا لا نعنى به إلا ذلك الشاعر الذى دافع عن الإسلام و صاحبه، و إذا قلنا شاعر الرسول فنعنى الذى دافع عن الرسول والإسلام فكعب يحتل مكانة عليا بين شعراء الدعوة الإسلامية يخبرنا الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن البر النمرى صاحب "الاستيعاب":

"أخبرنا عبد الوارث بن سفيان نا قاسم بن أصبغ نا محمد بن السلام نا الرياشى نا عبيد بن عقيل قال:

حدثنا جرير بن حازم عن ابن سيرين، قال كان شعراء المسلمين حسان بن ثابت، و عبد الله بن رواحه، وكعب بن مالك فكان كعب يخوّفهم الحرب و عبد الله يعيّرهم بالكفر، وكان حسان يقبل على الأنساب، قال ابن سيرين: فبلغنى أن دوساً إنما أسلمت فرقا من قول كعب بن مالك- رضى الله عنه:

قضينا من تهامة كل وتر … و خيبر ثم أغمدنا السيوفا
نخبرها، و لو نطقت لقالت … قوا طعهن: دوساً أو ثقيفا ١١ ــ ١٢

و فى رواية ابن اسحاق:

"قضينا من تهامة كل ريب … وخيبر ثم أجمعنا السيوفا

فقالت دوس: انطلقوا فخذوا لأنفسكم، لا ينزل بكم ما نزل بثقيف"١٣

فإذا صحت هذه الرواية، و ما شك أحد فيها، فإن قبيلة دوس أسلمت بشعر كعب، و ما كان يخوّف مناضلى الدعوة فحسب، بل كان يقوم بالمغامرات رجاء الجنان قال يوم بدر:

بأن قد رمتنا عن قسى عداوة … معد معاً جهالها و حليمها
لأنا عبدنا الله لم نرج غيره … رجاء الجنان إذ أتانا زعيمها
نبى له فى قومه إرث عزة … و أعراق صدق هذبتها أرومها
فساروا و سرنا فالتقينا كأننا … أسود لقاء لا يرجى كليمها
ضربنا هم حتى هوى فى مكرّنا … لمنحر سوء من لؤى عظيمها ١٤

نظراً إلى شعره و منافحته عن الإسلام به أحس بعض الأدباء أن شعره كان أكثر إزعاجاً للمشركين لتخويفه إياهم و تهديده و إنذاره، يقول صاحب كتاب "من شعراء الإسلام".

"وكان شعر كعب أكثر إزعاجاً لقريش و إثارة للقلق و الاضطراب في صفوفها، لأنه كان يخوّفهم و يهددهم بالحرب، فيهد عزائم بعضهم، و تغلى مراجل آخرين، و من دلائل إرهاب شعره الأعداء، أن دوساً أسلمت حين بلغها:

قضينا من تهامة كل ريب   و خيبر ثم أجمعنا السيوفا"١٥

و يقول صاحب هذا الكتاب أن النبى ﷺ كان يذكر شعره، ويثنى بشجاعته و يحسن فيه الظن و لذا:

"ولّاه أعمال الزكاة فى بعض القبائل، كما أسند إليه وضع حدود الميقات بما يلى المدينة"١٦

و يقول إنه كان أسرع الإمتثال لأمر النبى -صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك:

" إنه أسقط نصف حقه على أحد الصحابة حين فهم من إشارة النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه يريد ذلك"١٧

و قد علمنا من قبل من أخباره عن "سيرة ابن هشام" و "البداية و النهاية" أن الأنصار كانوا قد بايعوا النبى على أن يمنعوه مما كانوا يمنعون أزرهم.

فهجو كعب و نقائضه و فخره كله كان نوراً عن الإسلام، و قد صوغ تعاليم القرآن و السنة تصويغ الشعر و قد أورد نا من قبل قول الدكتور عبد الله الحامد صاحب كتاب "الشعر الإسلامى فى صدر الإسلام"

"و هو أشد شعراء الإسلام إنطلاقاً عن تلك الروح، و سيراً على ذلك المنهج عدا ابن رواحة، فهو يسبقه،

وكلاهما فى الشعر تؤمان... و يمتاز شعره الإسلامي بالسهولة"١٨

و قول الدكتور عمر فروخ صاحب "تأريخ الأدب العربى " و هو تحدث عن التأثير بالقرآن الكريم فى صدر الإسلام :

" بطبيعة الحال شديد التأثير فى أغراضه و أساليبه بالقرآن الكريم من وجهين، كان فى الدرجة الأولى أفصح ألفاظا، و أسهل تركيباً و أعذب تعبيراً، من الجهة الثانية أمتن سبكاً، و أبرع دلالة و آنق ديباجة"١٩

و قد رأينا كذلك أن أبا الفرج الأصفهانى قد ذكر فى "الأغانى" وقوف النبى- صلى الله عليه وسلم- بباب كعب و طلب منه قرض شعر فأنشده فشهد الرسول ﷺ أنه أشد عليهم من مواقع النبل وألفاظ الأغانى هى:

" وقف رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بباب كعب بن مالك، فخرج فقال له: رسول الله صلى الله عليه وسلم: ايه، فأنشده، ثم قال: ايه، فأنشده، ثم قال: ايه، فأنشده، ثم قال: ايه، فأنشد (ثلاث مرّات). فقال النبى - صلى الله عليه وسلم: لهذا أشد عليهم من مواقع النبل"٢٠

و يفيدنا الدكتور محمد على الهاشمى قائلاً عن سيرة أعلام النبلاء ما يؤيد هذا الحديث أن النبى قد كرّر قوله هذا مرات يقول الهاشمى:

"يروى الذهبى عن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه أنـــه
قال: يا رسول الله، قد أنزل الله فى الشعراء ما أنـــزل،
قال: إن المجاهد مجاهد بسيفه و لسانه و الذى نفســـى
بيده لكأنّ ما ترمونهم به نضج النبل"٢١

إن التأريخ الإسلامى وكتب أسماء الرجال الصحابة قد تتفق على أن كعبا قد شهد الغزوات كلها مع النبي-ﷺ دون بدر و تبوك إلا أن هنالك اختلاف بين أصحاب السير و التأريخ فى شهوده بدراً،, و شعره يدل على أنه شهده. سنذكر هذا الإختلاف علاحدة فشهوده المعارك كلها مع النبى يدل على دفاعه عن الإسلام بمهجته و روحه و بالإضافه يقول التأريخ أنه كان يتقن الكتابة و الحساب، يقول الدكتور عبد الله الحامد فى كتابه " الشعر الإسلامى فى صدر الإسلام"

"كان كعب من القلائل الذين يتقنون الكتابة و الحســـاب
... كما كان معدوداً من فرسان المسلمين و أبطالهم"٢٢

ننهى هذا الفصل ببيتيه اللذين يدلان على خوضه فى المعارك الهائلة المخيفة دفاعاً عن الإسلام و أهله:

فجئنا إلى موج من البحر وسطه
أحابيش: منهم حاسر، و مقنّع٢٣

و يقول:

و رحنـــا و أخـــرانا بطاء كأنّنا
أسود على لحم ببيشـــة ظُلّع٢٤

١. هذا البيت من قصيدة قافية قالها يوم الخندق ذكر ها صاحب البداية و النهاية فى الجزء الثالث ص: ١٣٧ وابن هشام في سيرته ص: ١٦٢ في الجزء الثالث.

٢.	الأغاني الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٣٤	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت لبنان
٣.	الشعراء المخضرمون	يحي الجبوري ص: ٧٣	مؤ سسة الرسالة بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨١م
٤.	فتح الباري بشرح صحيح البخاري الجزء الثامن	الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى "كتاب المغازى" رقم الحديث : ٤٤١٨ ص: ٤٦٢	طبعته دار الفكر بيروت عام ١٩٩٧م
٥.	السيرة النبوية الجزء الثالث البداية و النهاية الجزء الثالث المجلد الثالث	ابن هشام المعافري ص: ١٢٤ و ص: ٨٩ بالترتيب	دار الجيل بيروت
٦.	البداية و النهاية الجزء الثالث المجلد الثالث السيرة النبوية الجزء الثالث	الحافظ ابن كثير ص: ١٣٧ و ص: ١٦٣ بالترتيب	دار الكتب العلمية بيروت
٧.	من شعراء الإسلام	د/ محمد بن سعد بن حسين ص: ٢٦	الطبعة الأولي ١٩٨٤
٨.	البداية و النهاية الجزء الثالث و السيرة النبوية الجزء الثالث	الحافظ ابن كثير ص: ١٣٧ و ص: ١٦٣ بالترتيب	دار الكتب العلمية بيروت
٩.	السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام المعافري ص: ٢١٥	دار الجيل بيروت
١٠.	السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام المعافري ص: ٣١	دار الجيل بيروت
١١.	الاستيعاب	يوسف بن عبد الله المعروف بابن البر ص: ٢٨٨ على حاشية الإصابة الجزء الثالث	مطبعته سعاده مصر ١٣٢٨ه
١٢.	البداية و النهاية الجزء الثالث و العقد الفريد الجزء الخامس	الحافظ ابن كثير ص: ٢٢٤ و ابن عبد ربه ص: ٢٧٨ بالترتيب	دار الكتب العلمية بيروت
١٣.	الاستيعاب و السيرة النبوية الجزء الرابع ص: ٩١	يوسف بن عبد الله المعروف بابن البر ص:٢٨٦ على حاشية الإصابة الجزء الثالث	مطبعته سعاده مصر ١٣٢٨ه
١٤.	البداية و النهاية الجزء الثاني و السيرة النبوية الجزء الثاني	الحافظ ابن كثير ص: ٣٣٦ و ص: ٢٧٢ بالترتيبسس	دار الكتب العلمية بيروت

١٥.	من شعراء الإسلام	الدكتور محمد بن سعد بن حسين ص: ٢٧	الطبعة الأولى ١٩٨٤ م
١٦.	من شعراء الإسلام	الدكتور محمد بن سعد بن حسين ص: ٢٦	الطبعة الأولى ١٩٨٤ م
١٧.	من شعراء الإسلام	الدكتور محمد بن سعد بن حسين ص: ٢٦	الطبعة الأولى١٩٨٤ م
١٨.	الشعر الإسلامي فى صدر الإسلام	د/ عبد الله الحامد ص: ٢٦٢	طبع بمطابع الإشعاع بالرياض ١٩٨٠م الطبعة الأولي
١٩.	تأريخ الأدب العربي	د/ عمر فرّوخ ص: ٢٥٤	دار العلم للملايين بيروت الطبعة الخامسة ١٩٨٤م
٢٠.	الأغاني الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٣٣	دار إحياء التراث الإسلامي بيروت لبنان
٢١.	سيرة أعلام النبلاء	الإمام شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبى الجزء الأول ص:٢٦٧ نقلاً عن كتاب كعب بن مالك الأنصاري الصحابي الأديب الشعر للدكتور محمد علي الهاشمي ص: ٧١	مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة السادسة ١٩٩٣م
٢٢.	الشعر الإسلامي فى صدر الإسلام	د/ عبد الله الحامد ص: ٢٦٢	طبع بمطابع الإشعاع بالرياض ١٩٨٠م الطبعة الأولي
٢٣.	البداية و النهاية الجزء الثالث المجلد الثاني و السيرة النبوية الجزء الثالث	الحافظ ابن كثير ص: ٥٥ و ابن هشام المعافري ص : ٦٧ بالترتيب	دار الكتب العلمية بيروت و دار الجيل بيروت بالترتيب
٢٤.	البداية و النهاية الجزء الثالث المجلد الثاني و السيرة النبوية الجزء الثالث	الحافظ ابن كثير ص: ٥٥ و ابن هشام المعافري ص : ٦٧ بالترتيب	دار الكتب العلمية بيروت و دار الجيل بيروت بالترتيب

شعر كعب الغزلي

الغزل لغة حديث الفتيات و الفتيان و اللهو مع النساء و ذكر مفاتنهنّ الجسدية، كذلك المغزل وفق قول ابن سيده اللغوي ذكره العلامة ابن منظور و ساق شعراً استشهاداً له و هو:

تنزل لى العبرى المصاب حليلها
يا مالك! هل فى الظعائن مغزل١

و التغزل التكلف للغزل: يقول ابن منظور فى "لسان العرب"

"و قد غزِل غزلاً، و قد تغزّل بها، و غازلها، و غازلته مغازلة، و رجل غزِل: متغزِّل بالنساء على النسب أى ذو غزل"٢

و قد يضرب فى العرب امرئ القيس الشاعر صريع الغزل و صاحب دارة جلجل و أمّ الرباب و الحويرث مثلاً فى الغزل، و قفا نبك فى الشهرة، فيقولون: هو أغزل من أمرئ القيس، أو هذا البيت أشهر من قفا نبك.

كذلك تقول العرب: أغزل من الحُمّى يقول ابن منظور:

" و العرب تقول: أغزل من الحمّى، يريدون أنها معتادة للعليل متكررة عليه، فكأنها عاشقة له متغزلة به"٣

و إذا كان رجل ضعيفاً على الأشياء و فاتراً فيها يقال له: رجل غزِل، و غازل معناه الآخر دنا و قرب، هذا قول ابن الأعرابى، فغازل الأربعين معناه دنا منها.

فى المصطلح الأدبى الغزل هو غرض هامّ من أغراض الشعر الغنائى، و موضوعه هو الحب و الهيام و قوامه ذكر المرأة و وصف محاسنها الخلقية و مفاتنها

الجمالية، فيقوم العاشق أو الغازل بالتعبير عما يختلج فى صدره من الهوى و الوله و يذكر تلك الأحداث و المفاجآت من وصل حيناً و حرمان آخر و الوشاة و العوذال اللاتى يعترين فى طريقه إلى عشيقته. و قد يندرج النسيب و التشبيب فى هذا الصنف الشعرى إلا أنه يذكر فيهما أيام الشباب و ذكريات العشق السابقة و يمهّد بهما الطريق للوصول إلى بغيته من قرض الشعر.

و إذا كانت المرأة النصف الجميل و الجزء الأهمّ للرجل منذ أن برئ فلابدّ من أن يكون الغزل قديماً كقدم الإنسان اللهم إلا أن التعبير عن صفات عنه كان مختلفاً فالذى كان يتسنّى له التعبير عنهٗ بالشعر فبه، و إلا فبتعبيرات أخرى، لا يمكن أن يخلو أدب من الآداب العالمية من هذا الصنف يقول صاحبا" المعجم المفصل فى اللغة و الأدب،

"و الغزل من أقدم فنون الأدب و أعرقها و أبقاها، إذ هو تعبير عن أعمق مشاعر الحب، ابتداءاً بالحب الجنسى العادى، و إنتهاءاً بالحب الصوفى الإلهي مروراً بمختلف مستويات اللهو و العبث، والوله و الشوق و الصبابة، و التلهّف و الوصل و الانتظار و الاستذكار"٤

و قد ذكر صاحب العمدة الغزل ضمن النسيب إشعاراً أنهما مع التشبيب بمعنى واحد، و نقل قول أبى السائب المخزومي عن النسيب:

"قيل لأبى السائب المخزومي: أ ترى أحداً لا يشتهى النسيب؟ فقال: أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا."٥

و قال:

"و النسيب و التغزل و التشبيب كلها بمعنى واحد، أما الغزل فهو إلف النساء و التخلّق بما يوافقهن"٦

فقديماً و حديثاً عرف الأدباء و النقاد الغزل بالنسيب كليهما بالتشبيب فالدكتوران ميشال عاصي و أميل بديع يعقوب صاحبا المعجم المفصّل فى اللغة و الأدب، و صاحب المعجم المفصّل فى الأدب الدكتور محمد التونجى و غيرهم من مؤرّخى الأدب العربى و النقاد متّفقون على استعمال هذه المصطلحات الثلاث مترادفة. يقول الدكتور محمد التونجي:

"الغزل فى كتابات النقاد و العلماء شبيه بالنسيب و التشبيب، تقع اللفظة عندهم محلّ أختها، و يستبدل بها اللغوي مرادفتها حين يريد، فهي تغنى اللغة، و تصور اختلاف القبائل فى تسمية هذا اللون من القول، يطلقونها على من وصف المرأة: أو تحدّث عنها، أو تحدّث إليها، أو لها بها"٧

يفيدنا تأريخ الأدب العربي من ثناياه أنه قد برزت مدرستان غزليتان فى تاريخ الشعر العربى إحداها الغزل البدوي و ثانيهما الغزل الحضري، و المدرسة الأولى تتسم بالعفة و الاحتشام و أخلاق الفروسية، لسانها عنترة العبسي فى الجاهلية، و جميل بن معمر العذري فى بنى أمية، و نسب هذا الغزل إلى بنى عذرة. فكانوا إذا عشقوا ماتوا.

و من الشعراء الذين اشتهروا فى هذا الصنف العفيف قيس لبنى، و مجنون ليلى و عروة بن حزام و عشيقته عفراء ابنة عمه، و ليلى الأخيلية محبوبة

توبة بن حميِّر، فالنوادر لأبى على القالى تنمّ عن حكاياتهم و وفائهم و آلامهم و هزال أجسادهم.٨

أما الغزل الحضري فإباحي ماجن برزت كأخته فى الجاهلية لسانه امرئ القيس و تبعه عمر بن أبى ربيعة فى العصر الأموي، يتسم هذا الصنف بعدم الوفاء لمعشوقة واحدة فهنالك أم الرباب و أم الحويرث و جاراتهما و مجموعات من الفتيات، و استباحة وصف مفاتن الجسد، و ذكر تلك المغامرات التى قاموا بها بالوصول إلى عشيقاتهم مغامرات فاضحة ماجنة صريحة ، و فنون من التهتك فكتاب الأغاني و مصارع العشاق للسراج و نزهة المشتاق فى أخبار العشاق، لداود الإنطاكي، و المختارات للبارودى تنم عن هذا الصنف وتكفى للوصول إلى مجونهم و تهتكهم .

هذا، و قد نطالع فى تاريخ الأدب العربى الغزل الآخر و هو الغزل بالمذكر، حتى أن الذين مارسوا هذا الصنف كانوا يفتخرون بأن محبوبه لا يحيض و لا يتعرض لدم النفاس، فالمذكر من الغلمان معظمهم كانوا من الخصيان المرد وكانوا يتزيون بزي النساء يستخدمون سقاة و ندمان فى الحوانيت و الدور. و نرى بذور هذا الصنف فى العهد القديم نعنى به عهد إبراهيم و لوط - عليهما السلام- و ذكر الله سبحانه فى كتابه الحميد.

"أَ تَأْتُوْنَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِيْنَ، وَ تَذَرُوْنَ مَاْ خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاْجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَاْدُوْنَ"٩

و قال جلّ و علا: "قَاْلَ: يَاْ قَوْمِ هؤُلَاءِ بَنَاْتِيْ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوْا اللهَ وَلَا تُخْزُوْنِ فِىْ ضَيْفِيْ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيْدٌ؟ قَاْلُوْا: لَقَدْ عَلِمْتَ مَاْ لَنَاْ فِىْ بَنَاْتِكَ مِنْ حَقٍ وَ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَاْ نُرِيْدُ."١٠

و لكن الذين اشتهروا بهذا النوع من الغزل هم: والبة بن الحباب فى مطلع العصر العباسى و أبو نواس تلميذه و كان بعض الشعراء يتغزّل بالمذكر دعابة و تحبّباً غير أن يكون وجود للمذكر أصلاً ، يقول الدكتور محمد التونجى:

"بل إنّ بعض أصحاب هذا الغزل كانوا من العلماء والفقهاء، إنما واكبوا العصر تقليداً، فالباخرزي صاحب الدمية يقول: و للشيخ والدى غلام، و الشيخ البهائى له قصائد فى الغزل بالمذكر و هو نقى الحاشية، طاهر الذيل، حتى إن بعض الشعراء المتغزلين يخاطب المذكر وهو يعنى محبوبة له."١١

مهما كان الأمر فإن شعر الغزل يكون أرق من أيّ شعر و أدق، يقول الثعالبي فى يتيمة الدهر"

"فان سلاسة اللفظ تتّبع سلاسة الطبع، و دماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ترى الجفافي فى الحلف منهم كزّ الألفاظ، جهم الكلام، وعر الخطاب، حتى أنك ربّما وجدت الغضاضة فى صوته، و نغمته فى جرسه و لهجته، و ترى رقة الشعر أكثر ما يأتيك من قبل العاشق المتيم، و الغزل المتهالك"١٢،

لعل هذا السرد التأريخى و المعانى اللغوية و الإصطلاحية للغزل يكفينا لتمهيد الطريق للوصول إلى بعض أبيات كعب بن مالك الأنصارى فى الغزل، بيد أنه لم يكن غازلاً و لا متغزلاً بل و كان شاعر الإسلام و الفروسية و الفخر و ربما كان شاعر الرثاء.

ليس من الضروري أن يكون الشاعر مكثراً أو يكون له دواوين من الشعر، فإن ابن الرشيق صاحب العمدة قد عنون باباً من كتابه "باب المقلِّين من الشعراء والمغلبين" و ذكر الشعراء المقلِّين بيد أنهم أشهر شعراء العرب يقول:

"فمن المقلِّين: طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص، وعلقمة بن عبدة الفحل وعدى بن زيد"١٣

و أضاف قائلاً أن طرفة أفضل الناس - أراد به أفضل الشعراء - واحدةً و هى معلقته - "لخولة أطلال" و قتل و هو صغير السن حول العشرين من عمره، و عبيد بن الأبرص عاش ثلاثمائة سنة و كذلك أبو داؤد الذي اتكأ عليه امرئ القيس فى الشعر، و ذكر أن أمرئ القيس مقل كثير المعانى و التصرف لا يصح له إلا نيف و عشرون شعراً.١٤

شاعرنا كعب مقل فى الغزل لم يستعرض هذا الصنف استعراضاً إلا أنّ له أبياتا ذكرها الدكتور الهاشمى١٥ نقلاً عن ديوانه فهى تنم عن أن تكون لها أخوات ضاعت، وإن لم تكن له أبيات أخر فى الغزل، فإنه لا يدل على أنه لا يحسن الغزل فان له شعراً كثيراً فى مدح النبى و أصحابه و هو صنف من الغزل الدينى و قسم الدكتور محمد التونجى الغزل إلى الغزل الصريح و الغزل العذري و الغزل بالمذكر و الغزل الديني و عدّ الغزل الديني نوعاً من المديح الدينى المخصص بالنبي ﷺ يقول:

"هو نوع من المديح الدينى المخصص بالنبي ﷺ إلا أن كثرة العواطف التى بثها الشعراء فى أشعارهم، وسموهم فى المعانى، و صدقهم فى الأداء، أوجب استخدام ألفاظ غزلية و وجدانية مما حول المدح النبوي إلى ما يدعونه بالغزل الدينى، و هو شبيه بالغزل

العذري العفيف من وجوه و شبيه جدا بشـــعر الحـــب الإلهي من وجوه أخرى"١٦

هذا، وإن شاعراً لينال صيتاً ببيت واحد من ديوانه، لذلك يقال، هـذا أفخـر بيت قالته العرب، أو هذا أشجع بيت قالته العرب أو هذا أمدح بيت قالته العـرب، و هكذا، و لا يقولون هذا أفخر ديوان أو أشجعه قالته العرب، لذلك نقول بالضبط أن غزل كعب القليل ليدل على أنه كان شاعر الغزل كما كـان شـاعر المدح إلا أن الطـابع الغزل كان عليه قليلاً و الآن مع أبياته الغزلية يقول:

فلا و أبيك الخير ما بين واسط
إلى ركنِ سلع من عوان و لا بَكر
أحب إلى كعب حديثاً و مجلساً
من أخت بنى النجار لو أنها تدرى
إن الخيال من الحسناء قد طرقا
فبـت مرتفـقاً من حبـها أرقا
و لما رأيت الود ليس بنـافعى
لديه، و لا راث لحـاله موجـع
زجرت الهوى إلى امرؤ لا يقودني
هواى، و لا أرى إلى غير مطـمع١٧

لا نعرف مناسبة هذه الأبيات إلا أننا نرى فيها أنـها قيلت بالمدينـة المنورة بدليل ذكر " واسط" و "سلع" و لا نعرف من هى أخت بنى النجـار وهى قبيلـة من الأنصار غير أنها أحب إليه من كل عـوان بكر تسكن بالمدينـة المنورة من النسـاء، "أحب إلى كعب" تدل على أن الأبيات له لا لغيره.

١.	لسان العرب	العلاّمة ابن منظور باب "غزل"	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت - لبنان الطبعة الثالثة ١٩٩٣
٢.	نفس المصدر	العلاّمة ابن منظور باب "غزل"	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت - لبنان الطبعة الثالثة ١٩٩٣
٣.	المرجع عينه	العلاّمة ابن منظور باب "غزل"	دار إحياء التراث الإسلامى بيروت - لبنان الطبعة الثالثة ١٩٩٣
٤.	المعجم المفصل فى اللغة والأدب الجزء الثانى	د/ميشال عاصى و أميل بديع يعقوب ص:٩٠٢	دار العلم للملايين ١٩٨٧
٥.	العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الثانى	ابن الرشيق ص: ٩٣	مطبعة حجازى القاهرة الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٦.	العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الثانى	ابن الرشيق ص: ٩٣	مطبعة حجازى القاهرة الطبعة الأولى ١٩٣٤م
٧.	المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثانى	د/محمد التونجى ص: ٦٧٠	دار الكتب العلمية ١٩٩٣م
٨.	للإطلاع اقرأ كتاب ذيل الأوالى والنوادر لأبى على اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، و أمامي طبعته التى طبعتها دار الآفاق الجديدة ببيروت		
٩.	القرآن الحكيم	سورة الشعراء، ١٩: ١٦٦-١٦٥	
١٠.	القرآن الحكيم	سورة هود ١١: ٧٨	
١١.	المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثانى	د/محمد التونجى ص: ٦٧٢	دار الكتب العلمية ١٩٩٣م
١٢.	يتيمة الدهر الجزء الرابع	أبو منصور الثعالبى ص: ٢٤١	
١٣.	العمدة فى محاسن الشعر و آدابه الجزء الثانى	ابن الرشيق ص: ٦٥	مطبعة حجازى القاهرة الطبعة الأولى ١٩٣٤م
١٤.	هذا تلخيص ما ذكر صاحب العمدة ص : ٦٥		
١٥.	كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر	د/محمد على الهاشمى ص: ٣٠٢	الطبعة الأول ١٩٨٥ لم تذكر المطبعة
١٦.	المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثانى	د/محمد التونجى ص: ٦٧٢	دار الكتب العلمية ١٩٩٣م الطبعة الأولى
١٧.	كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر	د/محمد على الهاشمى ص: ٣٠٢	الطبعة الأول ١٩٨٥ لم تذكر المطبعة

الحكمة في شعر كعب

الحكمة لغةً الفقه و العلم، و عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، و عند الجوهري: الحكم و الحكمة من العلم ، و الحكيم العالم، و صاحب الحكمة، و فى القرآن الكريم. " وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً "أى علماً و فقهاً، و ورد فى الحديث الشريف. إن من الشعر لحكماً أى كلاماً نافعاً يمنع من الجهل و السفه و ينهى عنهما.١

ذكر صاحب "لسان العرب" أن حكما فى هذا الحديث أريد به المواعظ و الأمثال التى ينتفع الناس بها فى تعبير بعض أهل اللغة،[٢] و روى هذا الحديث إن من الشعر لحكمةً و هى بمعنى الحكم و نقل قول الأصمعي :

" أصل الحكومة رد الرجل عن الظلم، و منه سميت حَكَمة اللجام لأنها ترد الدآبة"٣

هذا، و قد أفادنا صاحب "المفردات فى غريب القرآن الراغب الأصفهاني بأن الحكمة هو إصابة الحق بالعلم يقول:

"الحكمة: إصابة الحق بالعلم و العقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء و إيجادها على غاية الإحكام، و من الإنسان معرفة الموجودات و فعل الخيرات و هو هذا الذى وصف به لقمان فى قوله عز و جل. وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ".٤

و أضاف أن الحكم أعم من الحكمة، فكل حكمة حكمٌ و ليس كل حكم حكمةً، و إن الحكم هو قضاء بشئٍ على شئٍ آخر، و أن الحكمة فى الحديث السالف

الذكر معناه قضية صادقة، و نقل قول ابن عباس فى تفسير آية. وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَةَ،

"هى علم القرآن ناسخه و منسوخه، و محكمه و متشابهه........ و قيل هى فهم حقائق القرآن"٥

أما شعر الحكمة فهو يضم أو يشتمل على جميع معانى الحكمة و هو لا يصدر عن شاعر إلا بعد تجربة دقيقة عميقة للحياة و المجتمع، و يكون عصارة تجاربه الكثيرة، فزهير بن أبى سلمى لم يصدر منه شعر الحكمة إلا بعد ما جرب الحرب تجربة، به ينصح شاعر الناس و يمنعهم عن شئ، و لكن هذا النوع قليل جدا بالنسبة إلى الغزل و الوصف و الفخر و الفروسية و الرثاء و الحماسة فكل شاعر لا يكون حكيما، و الحكمة لا تؤتى لكل إنسان فمن أوتى فقد أوتى خيراً كثيراً. و المعانى التى يقدمها الشاعر الحكيم هى فى قول الدكتور محمد التونجي :

"حكم فى الأخلاق، و فى المعاملة ، و التربية، و الحضّ على العلم، و غير ذلك."٦

و يقول الدكتور ميشال عاصي و الدكتور أميل بديع يعقوب عن الشعر الحكمي ما يوضح أغراضه و أهدافه هو:

"يد خل فى مدلول هذه النسبة القصائد، و المقطوعات و الأبيات التى يودعها الشعراء خلاصة تجاربهم فى الحياة، و عصارة معاناتهم الاجتماعية و المصيرية لاذاعتها فى الناس تعبيراً عن موقف، و رسالةً تعليمية و تربوية يتّعظ بها المتعظون، و توجّه إلى الأجيال

الطالعة فى جملة مواد الإرشاد الأخلاقي و التعليم التربوى"٧

و قصيدة الحكمة تكون قصيرة عادة و تعتمد على الإيجاز فى الألفاظ و التوسيع فى المضمون، و قد تكون الحكمة منتشرة فى الشعر و ذلك فى موضوع آخر.

شعر الحكمة لا يختص بأمة دون أمة فقد وجد عند الأمم القديمة و لا يزال موجوداً حتى فى شعر اللغات الأهلية المحدود يقول الدكتور التونجى فى المعجم المفصل فى الأدب:

" وكان الإغريق ينظمون شعرهم الحكمى كثيراً، و يحفرونه على قبور موتاهم، و من هؤلاء الشعراء الذين حفرت حكمه على القبور" سيمويندديس" كما أن شعراء الإسكندرية نظموه داخل أغراض أخرى"٨

أورد شعراء العرب الجاهليون تجارب حياتهم و بنت نظرهم العقلى فى شعرهم لم يصل إلينا منهم إلا شعر طرفة بن العبد، و زهير بن أبى سلمى الحكمى، و عدّ المتنبى خير الشعراء الحكماء فى العصر العباسى، اللهم إلا أننا نرى فى شعر العرب الحكم منتشراً كالدرر و اللآلي، فمن ذلك حكمة كعب بن مالك. لم نطلع على قصيدة له حكمية من حيث أن تكون الحكمة موضوعها و عنوانها و هدفها من البداية إلى النهاية غير أننا نرى الحكمة منتشرة فى ثنايا أبياته يقول:

"من يفعل الحسان الله يشكره و الشر بالشر عند الله سيّان
و إنما قوة الإنسان ما عمرت عارية كارتداء الثوب للسان
إن يسلم المرء من قتل ومن مرض فى لذة العيش أبلاه الجديدان
فإنما هذه الدنيا و زينتها كالزاد لابد يوماً أنه فان ٩

و أجاب ضرارًا يوم أحد بشعره بدأه بحكمة الصدق:

أبلغ قريشا و خير القـول أصدقه والصدق عند ذوى الألباب مقبول[١٠]

و أخبر فى نفس القصيدة عن تجربته عن الحرب:

فلا تمنوا لقاء الحرب و اقتعدوا إن أخا الحرب أصدى اللون مشغول

إن ينج منها ابن الحرب بعد ما بلغت منه للتراقى و أمر الله مفعول

فقد أفادت لـه حلما و موعـظة لمن يكون له لب و معقـول ١١

و من بنت نظره: إن الذى قام بجريمة أو ارتكب جريرة هو محمول "و مواجه" عاقبته يقول فى القصيدة نفسها:

إذ جنى فيهم الجانى فقد علموا "حقا بأن الذى قد جر محمول" ١٢

الشرك و عبادة الأحجار و الأصنام ينغضها طبيعة الإنسان فمن ثم لا يستوى الذين يحاربون لغلبة الشرك على عقيدة التوحيد و الذين يناضلون لإعلاء كلمة التوحيد يقول فى نهاية قصيدة أخرى قالها يوم أحد:

ليسا سواء، و شتى بين أمرهما حزب الإله و أهل الشرك و النصب[١٣]

و بكى على حمزة بكاءا شديدا بعد استشهاده يوم أحد، و خاطب قبيلة لؤى و هددهم و ذكر تجربته أن الدهر ذو صرف و ليس بجامد، و أن الحرب سجال" و تلك الأيام نداولها بين الناس" يقول:

ألا من مبلغ عنى لـؤيا فبعد اليوم دائلة تدول ١٤

و قال يوم غزوة طائف:

فأمسـوا قد أقروا و اطمأنوا و من لا يمتنع يقبل خسوفا. ١٥

و قد يندرج فى شعر الحكمة وعظه الناس ونصحه لهم. فهو يتعلق بالشعر التعليمى من جانب و بالشعر الحكمى من جانب آخر، و قد تقدم الكلام عن الشعر الحكمى، و لا مناص من ذكر الشعر التعليمى،

الشعر التعليمى يخلو فى الغالب عن العاطفة و الخيال إلا أنه يكون موزونا بوزن الشعر و عروضه ينظم فيه بعض ألوان المعارف و الحكم و العلوم. يسهل به

حفظها و تقريبها إلى الأذهان و تناقلها و يستخدم له أسهل البحور و هو بحر الرجز لما فيه من جوازات كثيرة يقول صاحبا "المعجم المفصل فى اللغة و الأدب "عن هذا البحر:

"وقد سموه حمار الشعر لقربه من النثر، استخدمه الشعراء و الكتاب لأغراض تعليمية، لغوية و فكرية،"١٦

لا يحتاج الشعر التعليمى إلى استخدام الوسائط البلاغية و لا يقدر ناظمه على ذلك غالبا كما لا تكون فيه الصور البيانية و البديعية، لأن الشعر أساسا يثير الوجدان و الخاطر و العاطفة و يتعلق بالقلب، و العلم و التعليم بنت العقل. فالشعر التعليمى إنسان بلا روح لا حراك به.

عرف هذا النوع من النظم فى الأمم القديمة كما عرف الشعر الحقيقى يقول الدكتور التونجى فى كتابه المعجم المفصل فى الأدب:

" وقد عرفه عدد من الأمم القديمة، من ذلك الإغريق، فشاعرهم "هذيود" نظم قصيدة ضمت أكثر من ثمان مائة بيت فى النصائح، وفى أصول الزراعة، و الفلاحة، و الملاحة"١٧

و قد اشتهر العرب بالشعر التعليمى منذ العصر العباسى بعد ما تعلموا و تثقفوا، مع ذلك نرى طرفة بن العبد يخبرنا عن صفات النوق حتى ليسأم الدارس من دراسة شعره الذى يتعلق بتعليمه صفات الجمال و الأتان، نشعر بأن ذلك الشعر يخلو عن الوجدان و العاطفة و التأثير المحسوس،

و لكن فى العهد العباسى نشاهد أن العلوم المختلفة مثل قواعد النحو والصرف و المنطق و العروض و الفقه قد نظمت و أشهر كتاب فى النظم الغث البارد ألفية ابن مالك الذى نظم النحو فحفظه كثير من طلبة العلم، كما اشتهر الشاعر شمس الدين ابن أبى اللطف و من نظمه:

النوم بعد صلاة الصبح غيلولة   فقر، و عند الضحى فالنوم فيلولة
و هو الفتور، وقيل: الميل قيل له   إذ زاد فى العقل أى بالقاف قيلوله
و النوم بعد زوال بين فاعله   و بين فرض صلاة كان حيلولة١٨

نظرا إلى تعريف هذا الفن من النظم ونصبه أمام الأعين إذا درسنا شعر كعب أدركنا أنه ناصح أمين و واعظ خطيب، لا يعلمنا النحو و قواعده و الفقه و أصوله بل يعلمنا طريق الحياة و يرشدنا إلى صراط مستقيم، و ينصح مخالفيه بترك العناد و الحسد و القتال بالمسلمين، و يخبرنا بخصال النبى ﷺ و صفاته.

ففى قصيدة له قالها يوم أحد ينصح مخالفيه أن من أجاب محمدا الذى منطقه الحق و سيرته العدل هو ينجو من التبب يقول:

الحق منطقه، و العدل سيرته   فمن يجبه ينج من تبب.١٩

و قد نشاهده يعظ المشركين ويقول لهم أن يغضوا عن الفحشاء ولا يعرضوا لها و أن لا يطلبوا الحرب و أن لا يغصبوا أعراض المسلمين يقول:

واغضوا عن الفحشاء ولا تعرضوا لها   و لا تطلبوا حرب العشيرة بالقلب
و لاتغصبوا أعراضهم فى وجوههم   و لا تلمسوها فى المجالس والركب٢٠

و قال ابن اسحاق أن كعبا قال شعرا بعد ما أجلى بنو نضير و قتل كعب بن الأشرف، فقام فى قصيدته تلك بنصح الأحبار قائلا: من يتبع الرسول يهتد و من يكفر يجز بما كفر:

فمن يتبعه يهد لكل رشد   و من يكفر به يجز الكفور٢١

و فى نقيضة له ـ و ذلك يوم الخندق ـ وجهها إلى ضرار يذكره الأحزاب وما وعد الله المؤمنين من الجنان و الدرجات العلى التى أعدها لهم يقول:

فإما تقتلوا سعدا سفاها فان الله خير القادرينا
سيدخله جنانا طيبات تكون مقامة للصالحينا٢٢

و بالمناسبة نفسها في ضمن شعره الفخرى نراه يعظ الأحزاب بقوله:

إن الذين يكذبون محمدا كفروا، وضلوا عن سبيل المتقى٢٣

نعم، كنا بصدد شعر كعب التعليمى أو العلمى و ذكرنا فى ضمنه وعظه و نصحه فلنرجع إلى ما كنا بصدده. إن الشعرالعلمى هو القصائد التأريخية و العلمية التى تعد فى حكم الكتب، كذلك الرجز يستخدم غالبا فى هذا الميدان، فبشر بن المعتز له أرجوزة طويلة ذكر فيها الملل والنحل، اشتهرت حسب قول الجاحظ فى "الحيوان" بين الناس و ذكرنا ألفية ابن مالك، و هذا نشوان الحميرى ينظم قصيدة يسميها الحميرية يعد فيها ملوك حمير.

كذلك نرى كعبا ينظم أسماء النقباء فى قصيدة له قالها يوم العقبة ذكرها ابن هشام فى سيرته وننهى هذا الفصل بذكر كلها، و يستشهد به المؤرخون فى ذكر عدد أسماء هم، و نتأكد أن هذه القصيدة هى علمية أو تعليمية من جانب وشعر المناسبة من جانب آخر يقول:

أبلغ أبيا أنه قال رأيه .وحان غداة الشعب والحين واقع
أبى الله ما منتك نفسك إنه بمرصاد أمر الناس راء و سامع
وأبلغ أبا سفيان أن قد بدا لنا بأحمد نور من هدى الله سامع
فلا ترغبن فى حشد أمر تريده وألب و اجمع كل ما أنت جامع
و دونك، فاعلم أن نقض عهودنا أباه عليك الرهط حين تبايعوا
أباه البراء وابن عمر و، كلا هما وأسعد يأباه عليك و رافع
وسعد أباه الساعدى و منذر لأنفك إن حاولت وجادع
وما ابن ربيع ان تنا ولت عهده بمسلمه لا يطمعن ثم طامع

وأيضـا فلا يعطيـكه ابـن رواحة　　وإخـفاره من دونه السـم　ناقع
وفا به والقــوقـلى　بن صـامت　　بمندوحة عـما تحـاول　يافـع
أبو هيـثم　أيضـا وفى بمـثلـهـا　　وفاء بما أعطى من العـهد　خانع
وما ابن حضـير إن أردت بمطمع　　فهل أنت عن أحمـوقة الغنى　نازع
وسعد أخو عمر بن عـوف فـإنه　　ضروح لما حاولـت ما الأمر مـانع
أولاك نجوم لا يغـنيك　منـهم　　عليك بنحس فى دجى الليل طـالع ٢٤

فالبراء　　: هو البراء بن معرور الخزرجى،

ابن عمرو　　: هو عبد الله بن عمر و بن حرام الخزرجى،

أسعد　　: هو أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس الخزرجى،

رافع　　: هو رافع بن مالك بن العجلان الخزرجى،

سعد　　: هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة،

المنذر　　: هو المنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة الأوسى

ابن الربيع　　: هو سعد بن الربيع بن عمر بن أبى زهير الخزر جى ،

ابن رواحة　　: هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الخزرجى،

القوقلى　　: هو عبادة بن الصامت ابن قيس بن أصرم الخزرجى،

أبوهيثم　　: هو أبو هيثم بن التيهان،

ابن حضير　　: هو أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك الأوسى،

سعد أخوعمرو : هو سعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك الأوسى،

و عدد هم أثنا عشر شخصا من الخزرج يقول ابن هشام:

"من الخزرج. فيما حدثنا زياد بن عبد الله البكائى عـن محمد ابن إسحاق المطلبى"

و ذكر فيمن ذكرهم كعب فى القصيدة رفاعة بن عبد المنذر بن زبير الأوسى فقال:

"و أهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان، ولا يعدون رفاعه وقال كعب بن مالك يذكرهم فيما أنشدنى أبو زيد الأنصارى"

ثم ذكر القصيدة التى كتبتها أعلاه ثم قال:

فذكر كعب فيهم " أبا الهيثم بن التيهان" ولم يذكر "رفاعة"[٢٥]

و كل هذا يدل على أن العلماء و المؤرخين قد اعتمدوا على شعر كعب فى سرد أسما النقباء الأثنى عشر، و هكذا نرى كعبا فيما سبق من شعره أن شعره كان شعر الفتوح و العلم و الدين و الحكمة و التسجيل بحيث أنه سجل أهم الأحداث التأر يخية. والأخلاق و الملحمة.

إتضح لنا مما سبق من شعر كعب باختلاف أنواعه و صنوفه أنه كان شاعرا فحلا مارس الرثاء و الفخر و الفروسية و الرجز و العلم و الحكمة و التسجيل و الملاحمة، و إن ذلك كله يدل دلالة قاطعة على أنه كان شاعرا مرموقا فى الجاهلية، و أنه لم يقفز قفزة سحرية بعد إسلامه فى مجال الشعر و الأدب، و قد كانت شاعريته قد تعدت المدينة فى الجاهلية قبل العقبة الأولى إلى مسامع كبار الناس فى مكة، و تعدت فى نفس المدة أو بعدها بقليل إلى خارج الجزيرة العربية و وصل صيته إلى الغساسنة و أهل الروم، و بذلك نجزم و نتأكد أن شعره الجاهلى لم يصل إلينا منه بعضه، و يصدق قول الرقاشى: "أنه ما وصل إلينا من النثر العربى عشره و لا ضاع منه عشره"[٢٦]، و لكن الذى ضاع هو شعر كعب الجاهلى لعل ذلك لأجل صغرسنه وعدم احتفال المؤرخين به فقول النبى ﷺ ليلة العقبة عند ما تعرف

كعب على الرسول والرسول على كعب عند ما قدم العباس بن عبد المطلب كعبا إلى النبى. فما إن سمع النبى ﷺ اسم كعب حتى قال مستوضحا- الشاعر.٢٧

إن هذا الحديث الطويل الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما وكل المؤرخين فى تواريخهم المختلفة تنم عن أن كعبا كان شاعرا مشهورا قبل إسلامه لذلك استوضح النبى بقوله- الشاعر- يقول الهاشمى.

"وتفيد النقول والنصوص التى تتناول سيرة كعب بأن شاعريته تفتحت فى الجاهلية، وهو فى ميعة الشباب وريعان الصبا، وأنه ضرب فى حلبة الشعر بالسهم الصائب، و رجم بالشهاب الثاقب، فعرف شاعرا مجودا مطبوعا، كما يقول أبن عبد البر البغدادى:تعدت شهرته حدود المدينة وبلغت مسامع النبى-ص-فى مكة"٢٨

و عند تخلفه عن غروة تبوك ومنع الرسول الصحابة عن الكلام به ضاقت عليه الأرض بما رحبت و تعكر له الجو أرسل إليه ملك الغسان كتابا يدعوه إليه ليواسيه و يجعله فى دار النعيم فسجر كعب الكتاب فى التنور، و هذا يشير إلى أن كعبا كان مشهورا عند أهل الغساسنة بشعره يقول الدكتور الهاشمى:

"بل إن شهرته الشاعرية تعدت الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، فبلغت مسامع ملك غسان الذى انتهز فرصة لمقاطعة النبى-ص- والمسلمين عن كعب بسبب تخلفه عن غزوة تبوك، فأحب أن يصطاد فى الماء العكر، فأرسل لكعب رسالته المشهورة، أما بعد: فإنه

قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلـــك الله بـــدار

هوان، ولا مضيعة فالحق بنا نواسيك"٢٩

اعتنى الرسول ﷺ بشعر كعب اعتنـاء شديدا فنراه يـأتي بباب كعب و يطلب منه إنشاد الشعر فينشده، و يشهد أن شعره أشد على الأعداء من مواقع النبل، و كذلك نراه-ص- يغير كلمة من شعره يوافق و طبيعة الإسلام يقول صاحب الأغاني:

"إن النبى-ص- خلج على كعب وهـو فـى مسجد رسول الله- ص- ينشد، فلما رآه كأنه انقبض، فقال: ما كنتم فيه؟ فقال كعب: كنت أنشد فقـال رسـول الله: فأنشد حتى أتى على قوله:

مقاتلنا عن جذمنا كل فخمة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقل عن جذمنا، ولكن قل مقاتلنا عن ديننا"٣٠

هذا من جانب ومن جانب آخر نتحير عند المراجعة إلى المصادر الأدبية الكثيرة مثل جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشي الذى خص سبعة من شعراء الأوس والخزرج بسبع قصائد كلها جاهلية و أطلق عليها اسم المذهبات، والشعر و الشعراء لابن قتيبة الدينوري. و الموشح لأبى الطيب محمد ابن احمد الأعرابي تلميذ المبرد و ثعلب، وبعض مؤرخي الأدب العربى مثل بطرس البستانى صاحب أدباء العرب، وحسن الزيات مؤلف "تأريخ الأدب العربى" و صاحب "الحماسة" أبو تمام لم يذكر شعرا له فى أي باب من أبوابه المختلفة، بيد أن المؤرخين قد استشهدوا بشعره فى تأريخهم مثل ياقوت الحموى فى "معجم البلدان"،

و ابن اسحاق فى "السيرة النبوية "و العلامة الحافظ ابن كثير فى تاريخه "البداية والنهاية" وأبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى "تأريخ الرسل والملوك".

تحدث ياقوت الحموي عن "المزاد" التى ولد بها كعب وعين جغرافيتها فى معجمه فقال:

"قال ابن الأعرابي: المذاد والمزاد المرتفع موضع بالمدينة حيث حفر الخندق النبى صلى الله عليه وسلم، قال كعب بن مالك:

فليأت مأسدة تسل سيوفها بين المذاد وبين جزع الخندق.٣١

استشهد المؤرخون وأصحاب السير بشعره استشهادا تأريخيا مثل عدد أسماء النقباء كما مر آنفا، وقتلى المشركين فى غزوة بدر يقول كعب:

فأقام بالعطن المعطن منهم سبعون عتبة منهم والأسود.٣٢

هذا، وقد استدل الإمام اللغوى أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى فى كتابه "التنبيه" بتشبيه ضرب يرعبل بشعر كعب:

من سره ضرب يرعبل بعضه بعضا كمعمعة الإناء المحرق.٣٣

جملة القول تناول شعر كعب المؤرخون و البلاغيون و أصحاب الجغرافيا و أهل السير للاستدلال و الاستشهاد لدعم آرائهم أو سرد ماداتهم المتنوعة كما لاحظنا فى هذا الكتاب من قبل ملاحظات النقاد و آرائهم المختلفة فالمرزبانى محمد بن عمران صاحب "معجم الشعراء" يرى أن أفخر بيت هوقول كعب:

و ببئر بدر إذ يرد وجوهم جبريل تحت لواءنا محمد٣٤

و يقول ابن الرشيق صاحب العمدة:

" كان دعبل الخزاعى يرى أن أفخر الشعر قول كعب بن مالك الأنصارى ثم ساق البيت:

و ملخص ما قال ابن جرير أن جبّاراً وعامراً كانا قد ساهما من قبل المشركين في معركة بئر معونة، فحكى جبّار أنه طعن رجلاً يومئذ بالرمح بين كتفيه فنظر إلى سنان الرمح حين أخرجه من صدره سمعه يقول حين طعنه "فزت والله" فقال في نفسه ما فاز أليس قد قتلت الرجل حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا: الشهادة، قال: فقلت فاز لعمر الله، ثم أسلم، أما صاحبه عامر بن الطفيل فحرض حسّان بن ثابت بني أبي البراء عليه وساق شعراً له، ثم قال ابن جرير: " وقال كعب بن مالك في ذلك أيضاً:

لقد طارت شعاعاً كل وجه	حفارة ما أجاره أبو براء
فمثل مسهّث و بني أبيه	بجنب الرّده من كنفى سواء
بني أم البنين أم سمعتم	دعاء المستغيث مع المساء
وتنويه الصريخ بلى، و لكن	عرفتم أنه صدق اللقاء
فما صفرت عياب بني كلاب	ولا القرطاء من ذم الوفاء
أ أخفرت النبي وكنت قدماً	إلى السئوات تجرى بالعراء
فلست كجار جار أبي دؤاد	ولا الأسدى جار أبي العلاء
و لكن عاركم داء قديم	و داء الغدر فاعلم شرّ داء٣٦

ثم تحدث عن نتيجة هذا التحريض الشعرى وقال:

"فلمّا بلغ ربيعة بن عامر أبى البراء قول حسان وقول كعب حمل على عامر بن الطفيل فطعنه فشطب الرمح عن مقتله فخر عن فرسه"٣٧

فقزكعب قفزة تجديدية في الشعر العربي إذ أنه لم يخل شاعر من شعراء عصره جاهليين كانوا أو مخضرمين من الوقوف على الأطلال أو إتخاذ النسيب والتشبيب والوصف تمهيداً لشعرهم، فكان يرى الشعر غنى عن هذه التمهيدات و الاستهلالات يقول الدكتور الهاشمى:

"لم يكن كعب يلتزم الوقوف على الأطلال فى مطـــالع قصائده أو التمهيد لموضوعه بالنسيب أو الوصـف، أو غير ذلك من الموضوعات التمهيديـــة التـــى عرفتـــها القصيدة العربية الجاهلية"٣٨

إذا جعلنا شعر كعب الذى نجده فىكتب التاريخ نصب أعيننا و أمعنـا النظر في المناسبات التي قيل لها نخرج بإخفاق من أن نجد له شعراً في الجاهلية كما نجـده فى الإسلام، و ندرك أنّه قد ضاع شعره الجـاهلى الكثـير، نـراه يرثـى فـى الإسلام الشهداء وله شعره فى كل مناسبة، وكان مؤرخاً فـى شعره أو شـاعراً في تأريخـة و شاعراً، فإذا رأيناه يرثى حمزة و شهداء بدر و أحد و غزوات أخر و يرثـى عثمـان، فلماذا لا نطلع فى التأريخ على رثاءه على محمد ﷺ

هذه بعض الملاحظات عن شعر كعب التى لا مناص من البحـث عنـها أو مـن دق النظر فيها، و يملكنا الحيرة من هذا التناقض الذى ذكرناه.

١. لسان العرب	ابن منظور باب "حكمة"	دار إحيا التراث الإسلامى بيروت
٢. نفس المرجع	ابن منظور باب "حكمة"	دار إحيا التراث الإسلامى بيروت
٣. عين المصدر	ابن منظور باب "حكمة"	دار إحيا التراث الإسلامى بيروت
٤. المفردات فى غرُيب القرآن	الراغب الأصبهانى أبو القاسم الحسين بن محمد مادة "حكمة"	طبعة مصر
٥. نفس المصدر	الراغب الأصبهانى أبو القاسم الحسين بن محمد مادة "الحكمة"	طبعة مصر
٦. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثانى	الدكتور محمد التونجى ص: ٥٥٥	دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٩٩٣
٧. المعجم المفصل فى اللغة والأدب الجزء الثانى	الدكتور ميشال عاصى وأميل بديع يعقوب ص: ٧٤٥	دار العلم للملايين بيروت لبنان ١٩٨٧م
٨. المعجم المفصل فى الأدب الجزء الثانى	د/محمد التونجى ص: ٥٥٥	دار الكتب العلمية الطبعة الأولى بيروت لبنان ١٩٩٣م
٩. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر	د/محمد على الهاشمى ص: ٣٠٢	الطبعة الأولي ١٩٨٥م
١٠. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام ص: ٧٧	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧م
١١. نفس المصدر الجزء الثالث	ابن هشام ص: ٧٧	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧م
١٢. المرجع نفسه الجزء الثالث	ابن هشام ص: ٧٨	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧م
١٣. عين المرجع الجزء الثالث	ابن هشام ص: ٨٨	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧م
١٤. البداية والنهاية الجزء الثالث المجلد الثانى	الحافظ ابن كثير ص: ٦١ و ابن هشام فى سيرته الجزء الثالث ص: ٨٨	دار الكتب العلمية بيروت
١٥. السيرة البنوية الجزء الرابع	ابن هشام ص: ٩٢	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧م
١٦. المعجم المفصل فى اللغة والأدب الجزء الأوّل	د/ميشال عاصى وأميل بديع يعقوب ص: ٢٩٦	دار العلم للملايين بيروت لبنان ١٩٨٧م
١٧. المعجم المفصل فى الأدب	د/محمد التونجى ص: ٥٥٣	دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣م
١٨. نفس المصدر	د/محمد التونجى ص: ٥٥٣	دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣م
١٩. السيرة البنوية الجزء الثالث	ابن هشام المعافرى ص: ٨٨	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧م
٢٠. السيرة البنوية الجزء الثالث	ابن هشام المعافرى ص: ١١٥	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧م
٢١. السيرة البنوية الجزء الثالث	ابن هشام المعافرى ص: ١١٥	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧م
٢٢. السيرة البنوية الجزء الثالث	ابن هشام المعافرى ص: ١٥٧	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧م
٢٣. نفس المصدر	ابن هشام المعافرى ص: ١٦٣	دار الجيل طبعة جديدة بيروت ١٩٨٧م

٢٤. البداية والنهاية الجزء الثانى المجلد الثانى و السيرة البنوية الجزء الثاني	الحافظ ابن كثير ص:١٥٩ و ابن هشام ص: ٦٦	دار الكتب العلمية بيروت
٢٥. السيرة النبوية الجزء الثاني	ابن هشام ص: ٦٦	دار الجيل بيروت ١٩٨٧م طبعة جديدة
٢٦. المختارات الجزء الأول	أبو الحسن على الحسنى الندوي ص: ٨	قام بطبعه مكتبة دار العلوم ندوة العلماء
٢٧. السيرة النبوية الجزء الثاني	ابن هشام ص: ٦٢	دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٢٨. كعب بن مالك الأنصاري الصحابي الأديب الشاعر	د/ محمد على الهاشمي ص: ٥٧	الطبعة الأولي عام ١٩٨٥م لم تذكر المطبعة
٢٩. نفس المصدر	محمد على الهاشمي ص: ٥٧	الطبعة الأولي عام ١٩٨٥م لم تذكر المطبعة
٣٠. الأغانى الجزء السادس عشر	أبو الفرج الأصبهانى ص: ٢٣٢-٢٣٣	دار إحياء الراث السلامي بيروت
٣١. معجم البلدان	أبو عبد الله ياقوت الحموي باب "ميم"	مطبعة السعادة مصر الطبعة الأولى
٣٢. السيرة النبوية الجزء الثالث	ابن هشام ص: ٨٥	دار الجيل بيروت ١٩٨٧م
٣٣. كتب التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه	الإمام اللغوي أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري ص: ٦٣	مؤسسة عبد الحفيظ بيروت لبنان
٣٤. معجم الشعراء	محمد بن عمران المرزباني نقلا عن العمدة الجزء الثاني لابن الرشيق ص: ١١٥	طبع بمطبعة حجازى بالقاهرة الطبعة الأول ١٩٣٤م
٣٥. تأريخ الرسل و الملوك	أبو جعفر محمد بن جرير الطبري "ذكر خبر بئر معونة" القسم الأول ص: ١٢٢٦	مكتبة الحنياط بيروت لبنان
٣٦. المرجع نفسه	أبو جعفر محمد بن جرير الطبري "ذكر خبر بئر معونة" القسم الأول ص: ١٢٢٦	مكتبة الحنياط بيروت لبنان
٣٧. كعب بن مالك الأنصاري الصحابي الأديب الشاعر	د/ محمد على الهاشمي ص: ٣٠٢	الطبعة الأولي ١٩٨٥م لم تذكر المطبعة

مذهبه بعد وفاة عمر

إنّ أعظم حدث فى تأريخ الإسلام والمسلمين هو مقتل عمر- رض - بيد أبى لؤلؤة فيروز المجوسى، فثلم به الإسلام ثلمة لأن استشهاد المسلمين الكبار قبل هذه الحادثة الأهم كان فى ساحات المعارك و الحروب، أما هذا الحدث الأعظم فقد حدث بخليفة المسلمين من حيث الخليفة وأمير المؤمنين وذلك فى المسجد النبوى، وبه تفتحت الأبواب بمصاريعها للفتن و الويلات و الآهات فلم يسدها أحد من بعد، لعله كان إرهاصاً لها، و قد تلته حادثة حدثت بعثمان بن عفان ذى النورين - رقية و أم كلثوم - فكان قتله ظلماً عظيماً للإنسانية جمعاء، و كان المسلمون ينتظرون أنّ علياً الخليفة الراشد الرابع سيقوم بالثأر ولكنه لم يتمكن من ذلك لأسباب لسنا بصددها. فتفرقت الأمة المسلمة إذ ذاك إلى فريقين متخاصمين متناضلين ولكل دليل وبرهان لكونه على الحق والصواب. فهٰذا علوى و ذلك عثمانى ثم تفرعت منهما فروع متوازية كثيرة و أحزاب سياسية متنوعة. اتخذت مسالكها و مذاهبها و سارت عليها لايتفق و لا يلتحق بعضها ببعض إلى يوم القيامة.

رأى كعب تلك الحادثة بأم عينيه فتحمّس تحمّسا و شهر سلاحه ضد تلك الجماعة المتألّبة لقتل عثمان، و لكن عثمان لكونه رقيق القلب رحيم الجأش منع المسلمين عن مضاربة السيوف و مطاعنة الرماح. فامتنع كعب عن ذلك و لكنه دهش بعد بقتله وجاشت قريحته الشاعرية، ونراه قبله بقليل يعيّر الأنصار لعدم مساعدتهم لعثمان يقول أبو الفرج الأصفهانى فى "الأغانى":

> "كان كعب بن مالك، الأنصارى أحد من عاون عثمان على المصريين، وشهر سلاحه، فلما ناشد عثمان الناس أن يغمدوا سيوفهم، انصرف، ولم ير أن الأمر يخلص

إليه، و لا يجري القوم إلى قتله، فلما قتل وقف كعب بن مالك على مجلس الأنصار فى مسجد رسول الله. صلى الله عليه وسلم فأنشدهم:

من مبلغ الأنصار عنى آية رسلا تقص عليهم التبيانا
أن قد فعلتم فعلة مذكورة كست الفضوح وأبدت الشنئآنا
بقعودكم فى دوركم و أميركم تحشى ضواحي داره النيرانا
بينا يرجّى دفعكم عن داره ملئت حريقاً كابياً ودخانا
حتى إذا خلصوا إلى أبوابه دخلوا عليه صائماً عطشانا
يعلون قلّته السيوف وأنتم متلبثون مكانكم رضوانا
الله يعلم أننى لم أرضه لكم صنيعاً يوم ذاك وشأنا
يا لهف نفسى إذ يقول: ألا أرى نفراً من الأنصار لى أعوانا" ١

و يعدّ هؤلاء النفر من الأنصار الذين لو شهدوا منظر هذا الحادث لم يخافوا الخذلان و هم: ثابت بن قيس وسماك بن خرشة و ابن أرقم ثابت البلوى و معن بن عدى و ابن عبد المنذر العمرى، و سعد بن معاذ، و أخو معاوية المنذر ابن عمرو الساعدي يقول:

و الله لو شهد ابن قيس ثابت و معاش كانوا له إخوانا
و أبو دجانة، و ابن أرقم ثابتَ و أخو المشاهد من بنى عجلانا
و رفاعة العمرى و ابن معاذهم و أخو معاوىَ لم يخف خذلانا٢

ثم يذكر صفات هؤلاء الأشخاص، أنهم كانوا يرون نصر أميرهم فريضة من الفرائض وحقاً من الحقوق و إيمانا، وكانوا يرون أن الفوضى فى دينهم و ملّتهم يضيق عليهم البلدان يقول:

قوم يرون الحق نصر أمير هم و يرون طاعة أمره إيمانا
إن يتركوا فوضى يروا فى دينهم أمراً يضيق عنهم البلدانا
فليعلمنّ الله كعب وليّه و ليجعلن عدوه الذلانا ٣

و يمدح عثمان و يصفه وصفا و يصف أعراقه ومن ينتمي إلي مكانتهم بقوله:

إنّى رأيت محمدا إختاره صهراً و كان يعد خلصانا
محض الضرائب ماجدا أعراقه من خير خندف منصبا ومكانا
عرفت له عليا معدّ كلها بعد النبى الملك و السلطانا
من معشر لا يغدرون بجارهم كانوا بمكة يرتعون زمانا
يعطون سائلهم و يأمن جارهم فيهم و يردون الكماة طعانا٤

و يذكّرهم نصرهم نبيهم فى الحروب و المعارك، و يعيّرهم أنهم نسوا عهد النبىّ إليهم و هو نصر عثمان،

فلو أنكم مع نصركم لنبيكم يوم اللقاء نصرتم عثمانا
أ نسيتم عهد النبى إليكم و لقد ألظّ و كّد الإيمانا٥

يقول صاحب الأغانى بعد سرد هذه الأبيات:

"قال (أبو عُبيدة الراوى لهذه الأشعار):

فجعل القوم يبكون و يستغفرن الله عزّ و جلّ"٦

نظراً إلى مثل هذه الأبيات. و المراثى الأخرى التى نحن ذاكروها. قال مؤرّخوا الأدب أن كعباً كان عثمانى الهوى حتى أن أكثر رثاه و أرقّه فى عثمان، و نراه يتكلم علياً و يحاوره عن مقتله، و إذا قبلنا قول صاحب الأغانى أنه كان يقدم بنى أمية على بنى هاشم، وما نرى سبب تقديمه بنى أمية على بنى هاشم إلا أن علياً لم يأخذ ثأراً من القاتلين، لم يكن كعب فحسب يرى هذا الرأي من الشعراء، بل كان حسان والنعمان بن بشير معه. يقول صاحب الأغانى:

"لما بويع لعلى بن أبى طالب عليه السلام، بلغه عن حسان بن ثابت و كعب بن مالك، والنعمان بن بشير. وكانوا عثمانية. أنهم يقدمون بنى أميه على بنى هاشم، و يقولون الشام خير من المدينة و اتصل بهم أن ذلك

قد بلغه، فدخلوا عليه، فقال له كعب: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن عثمان، أ قتل ظالماً، فنقول بقولك؟ أم قتل مظلوماً، فنقول بقولنا، ونكلك إلى الشبه فيه، فالعجب من تيقننا و شكك، و قد زعمت العرب أن عندك علم ما اختلفنا فيه فهاته نعرفه"٧

إن كانت هذه المعارضة تدل على التحرى و الحرية فى الكلام أمام أمير المؤمنين علىّ فإنما تدل على حب كعب عثمان و مذهبه بعد وفاة عمر. رض. و قد أدى بعد هذا الحب إلى جلاءه من المدينة التى كان جعلها تتغنّى مع شعره به و التى ولد بها و نصر النبى بماله ونفسه، نراه يتدفّق شعراً بمحضرة علىّ يرثى به عثمان رثاءاً و يصور تلك الحادثة التى حدثت به يرويه لنا أبو الفرج الأصفهانى بعد سرد الكلام عن على وكعب و هو:

كفّ يديه ثم أغلق بابه ... و أيقن أن الله ليس بغافل
و قال لمن فى داره: لا تقاتلوا ... عفا الله عن كل امرئ لم يقاتل
فكيف رأيت الله صبّ عليهم الـعداوة و البغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر عنهم ... و ولّى لإدبار النعام الجوافل٨

ثم إن عليا بعد سماع هذه الأبيات وكلام كعب خيّر ثلاثة أشياء لهؤلاء الثلاثة أو أجابهم بثلاثة إن عثمان استأثر فأساء الأثرة، و جزعتم فأسأتم الجزع، و عند الله ما تختلفون فيه إلى يوم القيامة، فأجاب هؤلاء: لا ترضى بهذا الكلام العرب، فردّ عليهم علىّ بقوله واللفظ لصاحب الأغانى:

"أ تردّون علىّ بين ظهرانى المسلمين، بلا بيّنة صادقة، و لا حجّة واضحة؟ أخرجوا عنى، و لا تجاورونى فى بلد أنا فيه أبداً، فخرجوا من يومهم، فساروا حتى أتوا

معاوية، فقال: لكم الولاية و الكفالة، فاعطى حسان بن
ثابت ألف دينار وكعب بن مالك ألف دينار، و ولّى
النعمان بن بشير حمص، ثم نقله إلى الكوفة بعد"٩

تأثر شاعرنا تأثيراً بالغاً بشهادة عثمان مظلوماً و بتلك الفتنة العمياء التى أصبح ضحيتها، فقام بسلاحه يذود عنه، و لكنه منع عن حمل السلاح كما منع الآخرون من الذائدين، و أمر كل منهم بالكف، إنّ وقع هذه الحادثة كان أعمق فى الصحابة و أصيبوا بالدهشة لذلك لم نر هنالك جماً منهم غفيراً يحضر جنازة عثمان، كأنهم قد خافوا من الحضور إليها و الصلاة عليه، فكان كعب من هؤلاء القلائل الذين صلّوا عليه. يقول الدكتور محمد على:

"و لمّا همّت منية عثمان رضى الله عنه . وأدركه
الأجل المحتوم، كان كعب من القلائل الذين حضروا
جنازته و هم: على ابن ألى طالب، و الحسن و طلحة
و الزبير، و زيد بن ثابت، و كعب بن مالك، و مروان
بن الحكم، و عامة من كان هناك من أصحاب عثمان.
رضى الله عنه."١٠

و يظهر تأثيره بهذه الحادثة أنه رفض بيعة على تماماً بدليل أنه قاوم الفتنة بمسالمة بيد أنه كان يجب عليه أخذ ثأره، ولم يشهد حروب علىّ بيد أنه كان إبناً للحرب شجاعاً، مقداماً، وقعد عنه قعداً، يقول الدكتور عبد الله فى كتابه "الشعر الإسلامى فى صدر الإسلام":

"و عاش عمراً فى الإسلام حتى كانت الفتنة فى عهد
عثمان. رضى الله عنه فدافع عنه، و كان يوم الدار

ممن ذاد عنه و ناظره كما كان ممن رفض بيعة الإمام على رضى الله عنه"١١

رأينا من قبل أنه لم يكن يذود عن عثمان فحسب، بل و كان يحرّض الأنصار على الدفاع عنه، هذا، و قد ساق أبو الفرج شعراً له يؤنّب الأنصار على خذلانهم تأنيباً شديداً فيه و يصوّر أمامنا منظر الدار:

فلو حلتم من دونه لم يزل لكم
يد الدهر عز لا يبوخ و لا يسرى
ولم تقعدوا، والدار كاب دخانها
يحرّق فيها بالسعير و بالجمر
فلم أر يوماً كان أكثر ضيعة
و أقرب منه للغواية و النّكر.١٢

ذكرنا رثاء كعب على عثمان فى فصل الرثاء و فصلنا فيه الكلام، فإذا دققنا النظر فى رثاه نراه شديد الانفعال بتلك الكارثة التى أصيب بها عثمان رض. ويبكى بكاء الثكلى على فقده.

١. الأغانى الجزء السادس عشر أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٢٨,٢٢٩ دار إحياء التراث الإسلامي بيروت–لبنان

٢. المرجع نفسه الجزء السادس عشر أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٢٩ دار إحياء التراث الإسلامي بيروت–لبنان

٣. نفس المصدر الجزء السادس عشر أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٢٩ دار إحياء التراث الإسلامي بيروت–لبنان

٤. عين المرجع الجزء السادس عشر أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٢٩ دار إحياء التراث الإسلامي بيروت–لبنان

٥. المرجع عينه الجزء السادس عشر أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٣٠ دار إحياء التراث الإسلامي بيروت–لبنان

٦. نفس المرجع الجزء السادس عشر أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٣٠ دار إحياء التراث الإسلامي بيروت–لبنان

٧. المأخذ نفسه الجزء السادس عشر أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٣٣ دار إحياء التراث الإسلامي بيروت–لبنان

٨. نفس المأخذ الجزء السادس عشر أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٣٣ دار إحياء التراث الإسلامي بيروت–لبنان

٩. عين المصدر الجزء السادس عشر أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٣٤ دار إحياء التراث الإسلامي بيروت–لبنان

١٠. كعب بن مالك الأنصارى الصحابي الأديب الشاعر د/محمد على الهاشمي ص: ٩٦ الطبعة الأولى عام ١٩٨٥م لم تذكر المطبعة

١١. الشعر الإسلامي فى صدر الإسلام د/عبد الله الحامد ص: ٢٦٢ طبع بمطابع الإشعاع بالرياض الطبعة الأولى ١٩٨٠

١٢. الأغانى الجزء السادس عشر أبو الفرج الأصفهاني ص: ٢٢٨ دار إحياء التراث الإسلامي بيروت–لبنان

وفاة كعب بن مالك الأنصاري

اختلفت النصوص و المصادر فى سنة وفاته اختلافاً كثيراً و ذلك طبعي لعدم وجود آلة الطباعة و لوجود نجوم لماعة كثيرة لا تعد و لا تحصى، و هي كثرة الكاثرة للصحابة رضي الله عنهم، و لاشتغال الناس بعلوم القرآن و السنة من جانب، و بالفتوحات من جانب آخر.

لم يكن هذا الخلاف في سنة وفاته فحسب بل و تعدّي إلى مكان وفاته و لا ننسى فى هذا الصدد أن علياً ﷺ نفاه و صاحبه حسان- رضى الله عنهما- عن المدينة فاتصلا بمعاوية ﷺ بالشام، حيث استقبلا استقبالاً حاراً. و لا يفلت لنا أن نذكر أن كعباً قد عمي فى آخر عمره فأصبح عبد الله ابنه قائداً له و راويا لأحاديثه التي سمعها عن النبيﷺ

عقد الإمام البخاري باباً في صحيحه و أسماه : باب قوله :

لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهَاجِرِيْنَ وَ الْأَنْصَارِ الَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُ فِىْ سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ يَزِيْغُ قُلُوْبُ فَرِيْقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّه بِهِمْ رَؤُفُ رَّحِيْمُ.

و ذكر تحته حديثاً نصه:

" حدثنا احمد بن صالح، قال: حدثني ابن وهب، قال أخبرني يونس: قال أحمد: وحدثنا عنبسة، حدثنا يونس عن ابن شهاب قال: أخبرني عبد الرحمان بن كعب، قال: أخبرني عبد الله بن كعب و كان قائد كعب من بنيه حين عمي الخ"[1]

و ذكر نابغة الهند ملك المحدثين الشيخ محمد طاهر فى كتابه " تلخيص خواتم جامع الأصول"عن كعب .

" مات سنة خمسين وهو ابن سبع و سبعين سنة بعد أن عمي"[٢]

كذلك تذكر لنا النصوص الأخرى أن كعباً فقد بصره في آخر أيامه. و محمد بن أحمد بن حماد الدولابى صاحب كتاب "الكني و الأسماء" يفيدنا بأسناده:

"حدثنا عبيد بن مهدي أبو محمد الواسطي، قال: حدثنا يزيد بن هارون، قال: أنبأ محمد بن اسحاق عن الحارث ابن فضيل عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب قال: لما حضرت كعباً الوفاة أتته أم مبشّرة ابنة البراء بن معرور - و هو صديقه و سيده و كبيره و صاحبه من المدينه قادماً إلي مكة المكرّمة للحج و للقاء محمدﷺ فقالت: يا أبا عبد الرحمان إن لقيت ابنى فلانا فاقرأ منى السلام. فقال: غفر الله لك يا أم مبشرة نحن أشغل من ذلك ، فقالت: يا أبا عبد الرحمان أمّا سمعت رسول الله ﷺ يقول: أرواح المؤمنين في طير خضر تعلق بشجرة الجنة قال : بلى، قالت: فهو ذلك"[٣]

أما الأقوال المضطربة عن وفاة كعب فيتّفق أبو نصر الكلاباذى و أبو بكر الأصبهاني فى كتا بهما "كتاب الجمع"[٤] و العلامة الشيخ محمد طاهر الفتنى فى "تلخيص خواتم جامع الأصول"[٥] و الدكتور عمر فرّوخ[٦] و الدكتور الهاشمي[٧] على أن وفاته كانت سنة خمسين من الهجرة، وقال صاحب الاستيعاب:

"توفّى كعب بن مالك فى زمن معاوية سنة خمسين و قيل: ثلاث و خمسين و هو ابن سبع و سبعين"[٨]

و أفادنا صاحب الإصابة بما يلي:

" قال ابن حبان مات أيام قتل على ابن أبى طالب وقال ابن أبى حاتم عن أبيه ذهب بصره فى خلافة معاوية، واقتصر البخارى فى ذكر وفاته على أنه رثى عثمان و لم نجد له فى حرب على و معاوية خبر، و قال البغوى: بلغنى أنه مات بالشام فى خلافة معاوية"[9]

و ابن حجر العسقلاني صاحب "تهذيب التهذيب"[10] ينقل قول الهيثم بن عدى: أنه توفى سنة إحدي و خمسين، و لبعض الآخرين أقوال منها أنه توفى سنة خمس و خمسين أو ثلاث و خمسين كقول البغدادى، و منها أنه توفى عام أربعين و نسب هذا القول إلى الذهبى و المدائنى، و يقول ابن الكلبي أنه توفى سنة إحدى و أربعين فغلط قوله ابن كثير فى "البداية والنهاية" و ذكر الدكتور الهاشمي قول البراقى أنه توفى قبل الأربعين[11].

جملة القول إذا رأينا أرجح الأقوال فى وفاته أدركنا أنها وقعت عام خمسين، و تفيد المراجع أنه عمر حتى بلغ سبعا و سبعين من عمره على أرجع الأقوال أيضا، فيتبين لنا أن سنة مولده كانت حوالى سبع و عشرين قبل الهجرة النبوية على وجه التقريب، فنظرا إلى هذا نستطيع أن نقول أن النبى ﷺ كان من عمره سبعا و عشرين حين ولد كعب فى المدينة المنورة_ يثرب_، و الإنسان يبلغ الشعور فى السنة العاشرة على الأقل، و نعلم بالضبط أن النبى ﷺ بعث نبيا عند ما بلغ الأربعين، فيكون كعب فى ذلك الحين ثلاث عشرة سنة، و أخفيت الدعوة إلى ثالث سنوات إلا أن الحجيج كانوا يفدون إلى مكة المكرمة من كل فج عميق لتلقى الدعوة من صاحبها.

أذن النبى ﷺ بالصدع فنشرت هذه الدعوة أشعتها فى المدينة حتى تنورت فأول من ضاء بنورها هو سويد بن الصلت من المدينة المنورة. يقول العلامة شبلى النعمانى فى سيرة النبي ﷺ:

"سويد بن الصلت أول مدنى قدم مكة. فسمع النبى عنه أنه شجاع و شاعر. و إذا كانت تجتمع هاتان الصفتان فى شخص كان يلقب بالكامل، و كان ابن الصلت هذا يدعى أن له نسخة من حكمة لقمان فيها أمثال و حكم، فقابله النبى ﷺ و سمع من تلك ، فقال له النبي ﷺ إن عندى شيئاً أحسن منها، و قرأ عليه آيات من القرآن، فأثرت فى قلبه و رجع إلى المدينة متأثراً بالآيات، و قتل في حرب بعاث التي دارت رحاها بين الأوس والخزرج، و فى السنة العاشرة من النبوة لقى أفراداً من الخزرج فقرأ عليهم القرآن حتى أسلموا"١٢

و إذا جعلنا بعض النصوص نصب أعيننا ندرك أنه كان من هؤلاء النفر القلائل الذين شهدوا العقبة الأولى و ذلك فى السنة العاشرة من النبوة، و نرى كما سبق أنه خالف البراء بن معرور فى مسئلة من الصلاة فى السفر من المدينة إلى مكة، فندرك أنه أسلم قبل العقبة سواء كانت هذه العقبة الأولى أو الثانية أعنى قبل الهجرة بسنتين على وجه التقريب و نقدر أن نحدد أنه عاش خمساً و عشرين سنة فى الجاهلية و اثنتين و خمسين سنة فى الإسلام، لعل الجدول الآتى يوصلنا إلى الإطمئنان:

بعض مراحل عمر النبى صلى الله عليه وسلم

ولا دة النبى ٥٧١م

إعلان النبوة ٤٠ من عمره

العقبة الأولى ١٠من النبوة

العقبة الثانية ١٢ من النبوة

الهجرة ٥٣ من عمره

وفاة النبى ﷺ ٦٣من عمره

بعض مراحل عمر كعب رضى الله عنه

ولادته ٢٧ قبل الهجرة

كان ١٣ سنة من عمره

كان ٢٣ سنة من عمره
كان ٢٥ سنة من عمره } آمن بين هاتين السنتين

كان ٢٧ سنة من عمره

كان ٣٧ سنة من عمره

توفى ٥٠ من الهجرة على وجه التقريب وعمر ٧٧ عاما

قد اتفقت المصادر و المراجع جلها على أن كعبا قد عمى فى آخر عمره حتى أصبح عبد الرحمان رضي الله عنه ابنه قائدا له، إليكم نصوص بعض المصادر يقول صاحب الإصابة:

"و قال ابن أبى حاتم عن أبيه، ذهب بصره فى خلافة معاوية"١٣

و يقول صاحب الاستيعاب"

"و كان قد عمى و ذهب بصره فى آخره عمره"١٤

و قد سبق أن ذكرنا قول صاحب تلخيص خواتم جامع الأصول :

"مات سنة خمس وخمسين وهو ابن سبع وسبعين سنة بعد أن عمى"١٥

و يقول الدكتور عمر فروخ صاحب "تأريخ الأدب العربى"

"و عمى كعب بن مالك فى آخره عمره"١٦

غربت هذه الشمس الساطعة بعد أن نور الكون بضياءه سبعا و سبعين سنة و كانت حياته كلها مليئة بالكفاح و التضحيات و الدفاع عن حمى الإسلام بيده و لسانه رضى الله عنه وعن جميع الصحابة.

١. فتح البارى بشرح صحيح البخارى الجزء الثامن	الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ص: ٢٤٢ رقم الحديث: ٤٦٧٦	دار الفكر بيروت ١٩٩٧م
٢. تلخيص خواتم جامع الأصول	الشيخ محمد طاهر ص: ٣٥٦ حققه و علق عليه المحدث المحقق الشيخ حبيب الرحمان الأعظى	طبع بمطبعة "علمى بريس و همدم بريس ماليكاؤن ناسك الهند
٣. كتاب الكنى و الأسماء	محمد بن احمد بن حماد الدولابى ص: ٨١	
٤. كتاب الجمع بين كتابى أبى نصر الكلاباذى و أبى بكر الأصبهانى فى رجال البخارى و مسلم	أبوالفضل محمد بن طاهر المقدسى المعروف بابن القيروانى ص: ٤٢٩	الطبعة الأولى دائرة المعارف العثمانية الهند عام ١٣٢٣هـ
٥. تلخيص خواتم جامع الأصول	الشيخ محمد طاهر ص: ٣٥٦	طبع بمطبعة "علمى بريس و همدم بريس ماليكاؤن ناسك الهند
٦. تأريخ الأدب العربى الجزء الأول	دكتور عمر فروخ ص: ٣٢٣	دار العلم للملايين الطبعة الخامسة ١٩٨٤م
٧. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر	دكتور محمد على الهاشمى ص: ٥٦	الطبعة الأولي ١٩٨٥م لم تذكر المطبعة
٨. الاستيعاب فى معرفة الأصحاب	أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن البر ص: ٢١٦	على حاشية الإصابة فى تمييز الصحابة الجزء الثالث طبع بمطبعة السعادة مصر عام ١٣٢٧هـ
٩. الإصابة فى تمييز الصحابة الجزء الثالث	أحمد بن على حجر العسقلانى ص: ٣٠٢	طبع بمطبعة السعادة مصر عام ١٣٢٧هـ
١٠. تهذيب التهذيب	أحمد بن على حجر العسقلانى ص: ٤٤١	طبع بمطبعة السعادة مصر عام ١٣٢٧هـ
١١. كعب بن مالك الأنصارى الصحابى الأديب الشاعر	د/ محمد على الهاشمى ص: ١١٣-١١٤	الطبعة الأولي ١٩٨٥م لم تذكر المطبعة
١٢. سيرة النبى صلى الله عليه وسلم الجزء الأول	العلامة شبلى النعمانى ص: ٢٥٦	طبع بمطبعة الفيصل غزنى ستريت لاهور _ باكستان
١٣. الإصابة فى تمييز الصحابة الجزء الثالث	أحمد بن على بن حجر العسقلانى ص: ٣٠٢	طبع بمطبعة السعادة مصر عام ١٣٢٧هـ الطبعة الأولي

١٤. الا ستيعاب	أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن البر ص: ٢٨٨	على حاشية الإصابة فى تمييز الصحابة الجزء الثالث طبع بمطبعة السعادة مصر عام ١٣٢٧هـ
١٥. تلخيص خواتم جامع الأصول	الشيخ محمد طاهر ص: ٣٥٦	طبع بمطبعة "علمى بريس و همدم بريس ماليكاؤن ناسك الهند
١٦. تأريخ الأدب العربى	د/ عمر فروخ ص: ٣٢٤	دار العلم للملايين بيروت الطبعة الخامسة عام ١٩٨٤م

الختام

يتضمن هذا الكتاب جوانب كعب المختلقة من مغادرته مع رفاقه من المدينة المنورة – موطنه– إلى مكة المكرمة للمبايعة على يد الرسول ﷺ إلا أنى لم أعثر على نشأته و ترعرعه فى مهبطه غير أن صيته من حيث الشاعر كان قد تعدّى حدود المدينة المنورة إلى مكة بدليل أن الرسول كان يعرفه كشاعر".

و قد بدأت حياته الأدبية في الظهور و الوضوح من العقبة الثانية لكونه راو لأحداث العقبة فى أسلوب أنيق سهل. ثم نراه يقرض شعراً عن غزوة بدر و ما دار فيها و إن لم يخضها بنفسه. و قد يقوم التأريخ شاهداً على شهوده جميع الغزوات حامياً عن حمي الإسلام بلسانه و يده إلا أنه تُخلف عن غزوة تبوك. و لكن تخلّفه عنها قد جاء بأكل و أفادتنا حيث اطلعنا على مقدرته على سرد الأحداث سرداً فنياً. فهو وحده راو لها و لا ثانى له.

هذا، و له شعر يربو عدد أبياته آلاف مارس فيه كل قسمٍ من رثاءٍ و فخرٍ و هجوٍ و نقيض و رجزٍ و و مدحٍ و سردٍ للأحداث التى و اجهتها الدعوة الجديدة فى مسيرها. فكان يهجم الأعداد بنفس سلاحهم من هجوٍ و فخرٍ و السيل لا يمسكه إلا السيل، و الحرب أنفي للحرب.

قد فصلت القول عن أدبه النثرى المرسل القصصى و ذلك يحتوى على نص روايته عن العقبة و تخلفه و صاحبيه هلال و ربعية عن غزوة تبوكٍ، فلم أجمع نثره جمعاً بل و قسّمته إلي أقسام كما قسمه نقاد الأدب العربى و الغربى و بسطت القول عنه لغة و اصطلاحاً كما سجلت تأريخه مو جزاً و أضفت إليه أقوال الأدباء ثم عينت مكانة كعب الأدبية في النثر الفنى الفطرى الأصيل.على المنهج نفسه درست شعره دراسةً فوجدته أقساماً فشرحتها لغةً و اصطلاحاً كما ذكرت نشأتها و تأريخها و ازدهارها مراجعاً إلى إفادات الأدباء و النقاد القدامي و من له قول عنها من المتأ خرين.

لم استطع إغفال ذكر موطنه حيث نشأ و هو زهره فتكلمت عنه قبل التكلم عن ساكنه فكوّن ذلك فصل هذ الكتاب الأول ثم نتاج أدبه النثرى و أدبه الشعرى هما الفصلان الثانى و الثالث بالترتيب فهذا الكتاب باقة أقدمها إلى القراء ليشمّوها فان فرحوا بأريجها و تمتعوا برائحتها الذكية فذلك حسن حظى وسعادتى وما أردت إلا ذلك.

مفتاح اللغة

الأبـرام	: اللـئام
نرتـق	: نسدّ ونصلح
الأفـناء	: المخلـتط
الهـامّ	: الرؤس
أضاميم	:جماعات
أصفقت	: اجتمعت على أمرٍ
البزة	: السلاح
ضمرية	: منسوبة إلي قبيلة ضمرة
بنات الجوف	: القلب وما اتصل به من الأحشاء
الكوم	: عظيمة السنام من الإبل
ذو لبدة	: الأسد
شثن	: غليظ
البراثن	: مخالب الأسد
الأربد	: الأغبر
العقنقل	: كثيب الرمل
المعطن	: مبرك الإبل
تثفنهم	: تطردهم
تلجج	: تتمادى
الأضوج	: اسم مكان
المنهج	: الواضح
القسطل	: الغبار

المرهج : العالى فى الجوّ

الدوحة : الشجرة العظيمة المتّسعة

المولج : المدخل

بذى هبة أى بذى سيف هبة

الهبة : الوقوع فى العظم

سلجج : مرهف

عبد نبى نوفل هو وحشى

يبربر : يصيح

الأدعج : الأسود

أوجره : طعنه فى صدره

لم يُحنج : لم يمل عن وجهه

الزِّبرج : الزينة من الوشى أو الجوهر.

أجممنا : أرحنا

الكتيف : الصفائح الحديد

الجديّة : الدماء السائلة

الجادى : الزعفران

مدوف :مخلوط

أجدهم : أجدّ منهم

عريفا :عارفًا

الطروف : نجيبة الأصل

الريف فى الأصل : الأرض الخصبة المنزرعة خارج المدن و معنى البيت أن يجعلهم مساعدين لهم مستمدين عيشهم من ريفهم

الرعش : المتقلب

مضيف : ملجئ

التلاد : المال الموروث

الطريف : المال المستحدث

الشنوف و الأشناف جمغ شنف حلية تعلق فى أعلى الأذن

يجتدينا : يطلب معروفنا

ذات العظام يقصد هنا كعبٌ ذات الجوع الشديد حتى إن العظام ليعاد طبخها

الثمال : الغياث

البجود : جماعات الناس

الأذراء : الأكناف

جلمات : جمع جلمة و هو القطع

بُرينا : خلقنا

المعاطن فى الأصل أماكن برك الإبل ولكن الشاعر لايقصد هنا إلاّ الإبل بعينها

الفتين : الأرض التى بها الحجارة السوداء

تخيُّس : تذلُّل

الصحم : السود

دواجن : مقيمة

الجون : الأسود والأبيض ويقصد الشاعر هنا اللون الأبيض

الدفاع : ما يندفع من السيل

رجل : رجال

الجأواء : كتيبة سوداء لكثرة ما عليها من السلاح

الجول : الكتيبة العظيمة

الطحون : التى تطحن ما تمرّ به أى تهلكه لقوتها

قلصت : ارتفعت أي ارتفعت نيران الحرب

العوان	: الحرب المستمرّة
الضروس	: القوية
العضوض	: كثيرة العض
الجحون	: التي لا يعرف لها نهاية
الأرين	: جمع إرة و هى مستوقد النار.
سلع	: جبل بالمدينة
العريض	: وادٍ بالمدينة
نواضح	: حدائق تسقى بالنضح
خوص	: آبار ضيّقة
المرار	: نهر
الجمام	: الآبار كثيرة الماء
الثماد	: الماء القليل
الأجش	: العالى الصوت
تبقع	: صار فيه بقع علامة النضح
السكة	: النخيل المصطف
جلهات وادى	: ما كشفت عنه السيول فأبرزته
الحضر	: الجري و ذي حُضر يريد به الشاعر الخيل
نجتديكم	: نسألكم
الشطر	: الناحية
المذار	: مكان حفر الخندق بالمدينة
الطمرّة	: الفرس الوثوب القوية
تدف	: دف الطائر تحريك جناحيه
صفراء الجراد	: هى الّتى القت بيضها فهي خفيفة في طيرانها

المقلص : الشديد
الأراب : قطع اللحم
النهد : الغليظ
الهادي : العتيق أي كريم من أوله إلى آخره
القوانس : أعالى بيض الحديد
أشرجنا : ربطنا
الجدل : الدُروع المحكمة النَّسج
الأرب : العقد الشديدة
المذكى : شديد القوة
صبى السيف : وسطه
النِّجاد : حمائل السيف
المداعس : المطاعن
قمع الذرا : أعالى الأسنمة
الأبلخ : المتعاظم
المتشاوس : الجرئ فى القتال
انتخوا : تكبّروا
المتقاعس : الراكب رأسه
السرحان : الذئب
غضاة : اسم شجرة خشبها من أصلب الخشب و جمره شديد الالتهاب. ذئب الغضا مثل يضرب في الخداع و الاحتيال
الخادر : الأسد الّذى يلازم الخدر وهو بيته
الوجر : الحقد
الفروض : أماكن فى الأنهار يشرب منها

الأشاجع	: عروق ظاهر اليد
مذود	: مالع
الأروم	: الأصول
الكليم	: الجريح
حلفها	:حليفها
الصميم	: الخالص
الانتخاء	: الإعجاب
حامت من الحماية وهى الامتناع	
كداء	: مكان بمكة
روح القدس	: جبريل
ميكال	: ميكائيل
الملاء	: الملأ و هم أشراف القوم
الماذى	: الدِّرع اللَّيِّنة السهلة
يزهيها	: يحركها
تلظَّى	: تلتهب
زُبر الحديد	: قِطَعه
الساجر	: المُوقد
حمَّه	: قدره
فال	: بطل
اليافع	: العالى
الخانع	: الذليل
ضروح	: دافع عن نفسه
القواحز	: القلق

المقرفون جمع مقرف	: النذل الدنئ
الأعراض	: الجوانب
المنـزف	: من ذهبت الخمر بلبه
خرس الحسيس	: السيف الصامتة
أجمن	: مللن
الجفون	: أغماد السيف
الظلّ	: ظلال السيف
الهم	: الرؤس
السكون	: الساكن
المعمعة	: صوت اتقاد النار
الأباء	: الأغصان الملتفة
المأسدة	: المكان الكثير الأسود ، و يعنى هنا الشاعر مكان الحرب
المذاد	: مكان حفر الخندق.
السابغة	: الدُروع الكاملة
تخطّ فضولها	: ينجر علىٰ الأرض ما زاد منها
النهى	: غدير الماء
القتير	: مسامير الدُروع
الجنـادب جمـع جندب	: نوع صغير من الجراد
الشك	: إحكام فى الصُنع
موثق	: قويّة
الجدلاء	: الدِّرع القوية النَّسج
يحفزها	: يرفعها

النَّجاد : حمائل السيف

رونق السيف : طلاوته وصفاؤه وبريقه

بَلْهَ : اسم فعل بمعنى اترك

الململومة : المجتمعة أى كتيبة مجتمعة

المقلص : الفرس الخفيف

الورد : الأحمر الضارب إلى الصفرة

محجول القوائم : فى قوائمه بياض.

الطل : المطر الضعيف

العماية : ظلمة الغبار

الوشيج : الرماح

نعتق : نسرع

الخرق : الفلاة

المتنعنع : المضطرب

الأعلام : الجبال

القتام : ما اسودّ من الأشياء

النقع : الغبار

البزل : الإبل القويّة

العراميس : الشديدة

يمرع : يخصب

الصليب هنا دسم الشحم و اللحم

الموضع : المحلّى بالنقوش

العين : بقر الوحش

الآرام : بيض البطون سمر الظهور

خلفة : جماعة وراء جماعة
القيض : قشر البيض
يتقلع : يتشقق
فخمة : الكتيبة الضخمة
القرانس : رءوس بيض السلاح
الصموت : الدِّرع التى احكم صنعها
الصوان : ما يصان فيه الشئ
النهى : الغدير
اقشعوا : فرّوا
يزجى : يسوق
توزعوا : تفرّقوا
ابتئوا : ضربوا أبنهتهم
العرض : قري المدينة
نتظلع : لا نميل
قصرنا : غايتنا
الململومة : الكتيبة المجتمعة
السَّنَوَّر : السلاح
نصية : خيار القوم
نغاورهم : نداولهم
نشارعهم : نشاربهم
النبع : شجرة تتخذ منه القسى
اليثربى : الأوتار
المنجوفة : السِّهام

الحرمية : نسبة إلى الحرم
الصاعدية منسوب إلى صاعد وهو رجل مشهور بصنعها.
البصار : حجارة
تقعقع : تصوّت
القرة : البرد
التريّع : المجي و الذّهاب
ذكانا : التهابنا
تلفع : يصيب حرّها من قرب منها
الجهام : سحاب رقيق ليس فيه ماء
بيشة : اسم مكان تنسب إليه الأسود
ظلّع : أى امتلأت بنا الأرض لكثرتنا
يسفع : يحرق
الأضرع : الذليل
الفروغ جمع فرغٍ الطعنة الواسعة التى يسيل دمها
العزالى : جمع عزلاء وهى فم المزادة
يتهرع : يسرع فى سيلانه
جذمها : أصلها
الطباب :جمع طبابة وهى سير بين خرزتين فى المزادة
بنات نعش نوعان : الكبرى وهى سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي
والصغرى : سبعة كواكب قرب بنات نعش الكبرى،
السماك : هما سماكان نجمان نيّران أحدهما فى الشمال و يعرف بالرامح و الثانى فى الجنوب ويعرف بالأعزلومعنى هذا البيتأنّ الشاعر بات يرعى النجوم من طول سهره

KASHMIR UNIVERSITY
Iqbal Library
Acc. No 407557
Dated 24-12-2003

الفنق : فحول الإبل

المرفل : السابغ

الوعث : الالتحام

قرم : سيّد

تمّ الكتاب بالخير والحمد لله اوّلاً و آخرًا

Kaab-bin-Malik

And

His Literary works

By

Dr. Mohd. Muzaffar Hussain Nadvi

Published by :

Iqra Publications

Maisuma, Srinagar-190001 (KASHMIR)

Price: Rs 350/=

Ist Edition

2000 A.D.

Call No. ....   *Date* ....

Acc. No. ....

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last date stamped above. An over-due charge of *.06 P.* will be levied for each day, if the book is kept beyond that day.

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last stamped above. An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day. The book is kept beyond that day.

Call No. ....

Acc. No. ....

Date ....

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last date stamped above. An over-due charge of *.06 P.* will be levied for each day, if the book is kept beyond that day.

حياة المؤلّف فى سطور

● اسمه محمّد مظفّر حسين ولد عام ١٣٨٣ھ من أب عالم شريف اسمه شريف الدّين.

● بدأ التعلّم من المدرسة الابتدائية فى قريته ارن باندى فوره و تتلمذ على أبيه.

● التحق بالكلية الشرقية عام ١٩٧٩م ونال شهادة المولوى الفاضل فى العلوم الشرقية.

● شدّ الرّحال إلى دارالعلوم لندوة العلماء لإرواء غليله العلمى فنال شهادتى العالمية والفضيلة (التخصّص) فى اللغة العربية والأدب العربى عام ١٩٨٨م بالدّرجة الأولى.

● التحق بجامعة لكناؤ عام ١٩٨٨م وحصل على شهادة الماجستيرفى اللغة العربية وآدابها منها بامتيازٍ.

● نال شهادة الماجستير فى الفلسفة والدّكتوراه فى الفلسفة من جامعة كشمير سنة ١٩٩٣م و ١٩٩٧م بالترتيب.

● عمل محاضراً فى الكلية الحنفية حوالى أربع سنوات وفى جامعة كشمير فى القسم العربى ثلاثة أعوام تقريباً، وهوالآن محاضرفى التعليم العالى فى الحكومة.

● هو رئيس معاهد اللغة العربية والدّراسات الإسلامية بكشمير و مدير معهداللغة العربية والدّراسات الإسلامية بصوره سرينغر كشمير.

● يكتب لمجلّات و جرائد عربية وطنية وعالمية.

● طبع له سلسلة العربية للأطفال فى ثمانية أجزاء.

● له فى الطبع:

١. مساهمة أهل كشمير فى اللغة العربية والأدب العربى.

٢. قواعد اللغة العربية السهلة.

٣. باب اللّغة.